

A517P2A:V5



AS

892.74

A517F2A

V.5

فَيْضُ الْخَطِّاطِ

وهو

892.74

A517F2A

مجموع مقالات أدبية واجتماعية V.5

كتبه

أحمد أمين

الجزء الخامس



الطبعة الثانية

١٩٤٨

٧٧٦٠٣

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

Conf. Sept. 1951

فهرس

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
عبد الله باشا فكرى ٢٠٤	١	في الحياة الروحية	١
عبد الحمولى ... وألمز ... ٢١١	٢٧	عروة بن الورد	٢٧
ويل لمن كان أرقى من أمته ... ٢١٦	٣٤	في الطريق	٣٤
الرشوة ٢١٩	٣٨	خطرات في اللغة	٣٨
فلسفة البدع (المودة) ... ٢٢٣	٤٣	في الهواء الطلق	٤٣
البنطلون الطويل ! ٢٢٧	٥٠	في الهواء غير الطلق	٥٠
أعجبني ... ولم يعجبني في بلاد	٥٧	لماذا نعيش ؟	٥٧
الإنجليز ٢٣٠	٦٣	التعاون الثقافى العربى	٦٣
ميزانيات مختلفة ! ٢٣٤	٦٩	الشيخ رفاعه الطهطاوى	٦٩
زهر الربيع ٢٣٧	١١٤	تقدير الجمال	١١٤
الحكومة الصالحة ٢٣٩	١٢٠	في الهواء الطلق	١٢٠
شهر فبراير ٢٤١	١٣٦	الشو برمان أو الإنسان الكامل	١٣٦
الوجاهة والوجهاء ٢٤٤	١٤٧	عبرة الموت	١٤٧
أثمهم الزعماء ! ٢٤٧	١٥٣	الابتكار	١٥٣
المغفلون ٢٥١	١٦٠	سياحة في العالم	١٦٠
أخلاق جديدة في عالم جديد ... ٢٥٤	١٦٧	أخلاق الطفولة وأخلاق الرجولة ... ١٦٧	١٦٧
فن النفاق ٢٥٨	١٧٣	نظرة في إصلاح متن اللغة العربية ... ١٧٣	١٧٣
يوميات مصرى في لندن ... ٢٦١	١٨٤	كيف تتغلب على الأحزان ؟ ... ١٨٤	١٨٤
شخصية عرفتها ٢٦٥	١٨٨	لماذا نقرأ ؟ وماذا نقرأ ؟ وكيف	١٨٨
الدكتور سرور ٢٦٨	١٩٢	نقرأ ؟	١٩٢
في الهواء الطلق ٢٧١	١٩٦	عالم كذاب	١٩٦
النفخة الكذابة ٢٧٤	٢٠٠	من مخافات الناس	٢٠٠
لو أنشأت حزبا ٢٧٧		الفكرة والعمل	٢٠٠

في الحياة الروحية^(١)

— ١ —

أعجب ما في الإنسان أنه يحيا حياة واحدة هي مزيج من جملة ألوان . فلا تزال
فينا طبائع النبات ومظاهره ، نبحث عن غذائنا في الأرض كما يبحث ، ونعيش
تحت رحمة الرياح والفصول كما يعيش — وفينا أيضا طبائع الحيوان من شهوات
وغرائز ؛ وفينا العقل الذي يسيطر على هذه الطبائع الحيوانية ، ولكنه يعجز
عن السيطرة عليها سيطرة تامة . وكما يكون نوراً إلهياً يهدي الطبائع والغرائز ،
قد يكون ناراً شيطانية تثيرها فتجعله أفرس من أسد وأمكر من ذئب . ورقى
الإنسان إنما هو في استطاعته أن يوازن الموازنة الدقيقة بين ما في باطنه من عناصر
نبات ، وعناصر حيوان ، وعناصر إنسان ، وما أشقه من عمل !

وهو — لما في طبيعته من عناصر مختلفة نباتية وحيوانية وإنسانية —
قد واجه مشاكل لا تحصى ، لا يزال طوال الزمان يحاول حلها . هو من
ناحيته النباتية يواجه مشكلة البيئة التي تناسبه والتي لا تناسبه ؛ وغلة الأرض
وحاجته منها ، بعد أن وُزعت في البقاع والأصقاع حسب طبيعتها ، والأخطار
التي يتعرض لها من حشرات وديدان ، وجو وعطش وغرق . وهو من ناحيته
الحيوانية قد ورث ديناً ثقيلاً ، من غرائز جامحة ، وميل إلى افتراس بعضه بعضاً ،
فكان لا بد له من تحصين للدفاع والهجوم ؛ ودعاه ذلك أحيانا إلى التعاون
لصد العدو ، وأحيانا إلى التفرق لقتال بعضه بعضاً ، فألف القبيلة ، ثم الأمة .
وتحارب كما يتحارب جنس من الحيوان مع جنس آخر ، وتنازع على الطعام

(١) كتبت هذه المقالات الأربع في رمضان سنة ١٣٦٢ هـ

وعلى الشراب وعلى الحب الجنسي كما يتنازع الحيوان ؛ وساعده ما منح من عقل على تنظيم هذا الاجتماع والافتراق ، والتعاون والتحارب ؛ وعلى العموم استخدم العقل لتنظيم الغرائز الحيوانية .

ثم كان من عنصره الإنسانى شوقه الشديد للعلم والمعرفة ، فأخذ من مبدئه يتعلم ويعلم ، ويورث ما وصل اليه من يأتى بعده من الأجيال ، ويخترع اللغة لإيصال معلوماته . ثم أخذ ينشئ المعاهد يبيت فيها ما وصل اليه العلم منذ الأجيال السابقة ، ويزيد فى توسيع دائرة العلوم ، وتقليل دائرة المجهول ، ثم يستخدم العلم فى حياته النباتية والحيوانية ، وينشئ الصناعات — وهو كلما تقدمت تعقدت مشاكله ، وتركبت نظمه ، فأوجد الوظائف المختلفة فى المجتمعات ، تنظم شئونها ، ويقوم كل بقسطه فى ترقيتها . فالأسرة تربي الطفل ؛ ومعاهد التربية تكمل تربيته ، ومعاهد الصناعة تخرج ما يحتاج اليه ؛ والدولة تشرف على هذه الأنواع المختلفة من النظم ، وتوحد بينها وتوجهها .

ثم فى الإنسان عنصر روحى بجانب عنصره النباتى والحيوانى والعقلى ، أحسه الإنسان منذ وُجد . وكما أن عنصر العقل فيه ، مظهره العلم ، فعنصر الروح فيه ، مظهره الدين .

من طبيعة الإنسان الطموح إلى كل ما هو حق وخير وجميل ، وقد وجد مصداق ذلك كله فى الدين فاعتنقه . ومن طبيعته الشعور بقوة تسيطر على نفسه وعلى العالم ؛ ومن طبيعته الشعور بأن هناك روحاً علياً ليست روحه إلا شرارة منها وقبساً من نورها ، وأنها تتجاوب معها ، فكان ذلك هو الدين على اختلاف مناحيه ومذاهبه وأنواعه وأسمائه وشعائره . لقد شعر — منذ نشأته فى بداوته إلى منتهى ما وصل اليه من حضارة — أن فى باطنه شيئاً ليس مادياً وليس من جنس الأرض . ولما تقدم العلم كل هذا التقدم لم يهتد إلى حلّ العلاقة

بين العقل والحياة ، وبين المادة ومظاهرها . ولما فرغ العلماء لعلمهم ، وبحثوا واكتشفوا القوانين ، وآمنوا بالعلم كل الإيمان ، ظلّ كثير منهم يشعرون بفراغ في أنفسهم ، وهذا الفراغ لا يملؤه إلا إيمان بقوة فوق المادة ، وروح تسيطر عليها وتبعث فيها الحياة والروح ، وهم بهذا الإيمان يشعرون بقوة عظيمة ، لاتساع أنفسهم واندماجها في العالم أجمع ، وهم والعالم مشمولون بروح عليا تسيّرهم .

وكما يختلف الناس في مقدار العناصر التي يتكوّنون منها ، فبعض الناس أكبر عناصره العنصر الحيواني ، فهو أقرب شيء إلى أن يعيش بغرائزه كالحيوان ، لا همّ له إلا مأكله ومشربه وملبسه ؛ وبعضهم العنصر العقلي ، كما يتجلى ذلك في العلماء المتخصصين للبحث والمعرفة ؛ كذلك بعض الناس يغلب عليهم العنصر الروحي ، وهؤلاء يشعرون بنقص في أنفسهم ، ويشعرون أن روحاً علياً تشرف عليهم ، فيجهدون أن يتحرروا من نقص نفوسهم ، ويوسعوا ترقّيها بالاتصال بالروح العليا ، فتشرح صدورهم ، ويشعرون أن قبساً من نور أضاء قلوبهم . ويحدث هذا عند نضج الروح ، فيدركون العالم على نحو غير الذي يدركه العالم . هم يرون التشابه في الموجودات والوحدة فيها رغم اختلاف الأسماء والأشكال ؟ وهم لا يقفون عند الظواهر ، فيرون الإنسانية في المذكر والمؤنث ، ويرون وحدة الإنسان مع اختلاف الألسنة والأجناس ؛ وهكذا تتسع روحهم حتى يروا الوحدة في الوجود ، ، والله في كل شيء ، فيتجاوب العالم معهم ويتجاوبون مع العالم ، وتتسع نفوسهم لا إلى حد ، ويرون في ذلك سعادة دونها أى سعادة ؛ ويشعرون أن الظلام الذي كان يحيط بنفوسهم أخذ ينجاب شيئاً فشيئاً حتى يظلم نوراً ساطعاً ، كالذي ينظر إلى خريطة العالم فلا يدرك منها شيئاً حتى يقع نظره على بلدته فيتعرّفها ويتعرّف البلدان الأخرى بالنسبة إليها ، فإذا انخرطت كلها في فهمته وإذا هي ذات معنى . يرون أن المادة خيال ، والشهوات والرغبات أعراض لآلة ،

ولكن امتزاج روحهم بروح العالم هو الحق الذى لا يزول ولا يفنى . ويبلغ من شعورهم بوحدة الأشياء أن يشيع الحب فى نفوسهم لكل شىء ، فألم إنسان ألهم ، وسعادة إنسان سعادتهم ، ونجاح الإنسان نجاحهم ، وفشله فشلهم ، حتى ليبلغ الأمر ببعضهم أن يأملوا أن تبلغ الإنسانية من الصحة والنضج مدى تتمازج فيه أرواحها ، حتى يشعروا بالوحدة وبالسعادة ينالها بعضهم ، وبالآلم يصيب بعضهم ، ويعملوا ليلبغوا السعادة جميعاً .

قد كان علماء النفس فى حداثة عهدهم يهزءون بهذه الحالات النفسية ويرونها ضرباً من الخيال ، وسبحاً فى الوهم ، فلما نضجوا آمن بها بعضهم ، واعترفوا بها فى كتبهم ، وسجلوها فى تجاربهم .

لقد جنى على الحياة الروحية كثرة ما أحاط بها من تخريف وتمويه ، فكان بجانب الأنبياء المتنبئون الكاذبون ، وبجانب الصوفية الحقّة الدجالون الخداعون ، وبجانب الملهمين الحشاشون . وكان ما أصيب به الجانب الروحى أكثر مما أصيب به الجانب العقلى ، لأن معيار العلم يمكنه فى سهولة أن يعرف زيفه ، وليس بهذه السهولة الجانب الروحى .

والإنسان بتنميته جانبه الروحى يستطيع أن يدرك من الحق ما لا يدركه العلم ، وأن يقوّى نفسه بما لا يقويها العلم . ومن الخطأ الاستناد على العلم وحده دون الروح .

قد يكون مصلحو الشرق معذورين فى دعوتهم القوية إلى البحث العلمى ، ونشر المنهج العلمى ووجوب الاعتماد عليه ، لأننا فى الشرق نعيش على التقليد والتخريف ، حيث يجب أن نعيش على العلم فى الزراعة والصناعة والتجارة ووسائل التربية وما إلى ذلك ؛ ولكن مع التسليم بهذا كله يجب ألا نهمل الروح فى دائرتها . ولعل الشرق إذا اتجه إلى هذا الجانب الروحى بجانب اهتمامه بالجانب

العلمى فاق الغرب فى ذلك ، لأن له تاريخاً قديماً فى الروحانيات ، وهو
مُلهمها الغرب .

إن العلم له دائرته التى يجب أن نعترف له بها ، ونؤسس حياتنا عليه فى
حدودها ، ولكن بجانب العلم الروح ، وبجانب العقل القلب ، وبجانب المنطق
الإيمان ، ولكل وجهة هو مؤلِّها ، وما أحسنهما إذا اجتمعا ، وما أشقاهما
إذا افترقا .

تعجبني قصة طريفة للأديب الكبير « هـ جـ ولز » سماها « مملكة
العميان » ، خلاصتها — فيما أذكر — أن جماعة من العميان طوَّح بهم القدر
حتى أنزلهم وادياً بعيداً منعزلاً ، تحيط به من كل الجوانب الجبال الشاهقة الوعرة ،
فعاشوا فيه ، ونسلوا عمياناً مثلهم ؛ وقد عوّضتهم الطبيعة عن فقدان أعينهم قوة
فى آذانهم ، وبذلك استطاعوا أن يكونوا لأنفسهم مدينة ، توافق حالتهم
وطبيعتهم ، ووثقوا كل الثقة بمعارفهم ومداركهم ، وآمنوا كل الإيمان أن العالم
كله محدود بمحدود أربعة ، هى سلسلة جبالهم — وشاء القدر أن ينزل بواديهـم
رجل بصير ، فحدّثهم يوماً عن السماء الزرقاء فوقهم وجمالها ، والنجوم الساطعة
وضيائها ، والثلوج المعمّمة للجبال وبياضها ولعانها ، فلم يشكّوا أنه مجنون ،
وجزموا أن ما يحدّثهم به عن قوة عينيه ورؤيتها لهذه الأشياء ليست إلا ضرباً
من الخداع والوهم . فحاول بكل ما يستطيع من قوة وبيان أن يفهم أنهم
عميان فاقدوا البصر ، وأنه بصير . فلم يزدحم ذلك إلا عتوّاً وضلالاً ، وإمعاناً فى
الضحك منه والسخرية به ؛ وقالوا لو كان فى رأس هذا الرجل عقل لتخلّى عن
هذه الأحلام والأوهام ، ووجّه همته إلى الحياة الواقعية ، والأشياء العملية ، وقوى
سمعه حتى يبلغ مبلغنا ، واتبع الطريقة التى سلكنا ، وسار على المنهج الذى عليه
أجمعنا . فلما أعياهم أمره قرروا أن سبب مصائبه وفساد عقله يرجع إلى هاتين

النافذتين في وجهه التي يزعم الإبصار بهما ، وأن لا شفاء له إلا بفقههما ؛ ولكن كان من حسن ظنه أن يجد منفذاً للهرب من هذا الوادى .

لقد رمز « ويلز » بهذا إلى ضيق نظر القادة السياسيين والاقتصاديين والاجتماعيين وجمودهم على الآراء العتيقة البالية ، ووقوفهم على ما ورثوه من تقاليد من قبلهم ، وعدم إصغائهم إلى صوت كبار المصلحين الذين يدعون إلى بناء عالم جديد ، أساسه التفكير الحر وسعة النظر . ولكن قصته كذلك تصلح مثلاً لمن يريد أن يُخضع كل شيء في هذا العالم للمادة وقوانينها وعلومها ، وينكر الروح والله والدين والإيمان ، فهو لا يريد أن يعتقد في شيء إلا ما يعتقد به سكان هذا الوادى ، ولا يؤمن بما يرى هذا الضيف بعينه — هو يسمع ويرى ، ولكن قلبه لا يرى وروحه لا ترى ثم هو يزعم أن ما يشعر به المؤمنون ليس إلا ضرباً من الخيال والوهم .

إن الناس يتفاوتون في المعرفة تفاوتاً بيناً ، فمن الناس من إذا أراد أن يعلم حجرة وما فيها ، نظر من ثقب الباب فرأى بساطاً هنا وكرسیاً هناك ثم زعم أنه عرفها ؛ ومنهم من علا درجة عن هذا ففتح الباب ووقف في زاوية من زوايا الحجرة في ضوء قليل وزعم أنه رآها ، وهذان موقفهما موقف العامة وأشباهها ؛ ومنهم من تعمد أن يدخلها في وضوح النهار ، ويقف في جميع الزوايا ، ويفحص ويمتحن كل ما فيها ، وهذا هو العالم ؛ ومنهم من يفعل ذلك ثم لا يكتفى به . بل يحاول أن يعرف شأن الغرفة من المنزل ، وموضع المنزل من الشارع ، ومكان الشارع من المدينة ، ومنزلة المدينة من القطر ، ومكان القطر من العالم ، وذلك هو الفيلسوف من جانب ، والروحي الحق من جانب .

إن في الإنسان ملكات عدة ليس العقل وطريقه العلمى إلا إحداها ؛ وخطأ العالم الغربى في القرن الماضى كان تقوية الناحية العلمية على حساب الملكات

الأخرى . ويعجبني تعبير طريف قرأته لأحد كتاب الغرب إذ يقول : « لقد أسرع العلم في السير حتى جاوز القلب بمراحل ، فواجبنا أن ننح العلم إجازة حتى يدركه القلب » — لقد نجح العلم نجاحاً عظيماً حتى استطاع أن ينفذ إلى أدق أعماق المادة ، وحتى كاد يجعل العالم المادى شفافاً واضحاً ، وحتى أخضع كثيراً من قوانينه لإرادته ، وهذا حسن وجميل . ولكن بجانب ذلك جعل حياة الإنسان مصطنعة سطحية ، إلهها السرعة والعجلة والآلات والأدوات ، فكسب أذنه وخسر عينه ؛ وما ضره لو كسبهما جميعاً ، إذن لو وجد روحه التي فقدها في هذه الضوضاء والسرعة ، وأحس الراحة والهدوء في نفسه ساعةً ينعم فيها بالطبيعة والعالم وربهما .

وكما أن كل إنسان له نوع من الاستعداد والملكات للفن والموسيقى والشعر والعلم ، كذلك عنده استعداد ما للإجابة الروحية ، وهي أرقى من سائر كل الملكات . وكما أن كل إنسان له قدر من الفن ولكن ليس كل إنسان فناناً ، وكل إنسان يغنى ولكن ليس كل إنسان يجيد الغناء ، كذلك كل إنسان روحى إلى حد ما ، ولكن الروحيين حقاً قليل . ويعجبني شاعر هندى في قوله : « الجواهر أحجار ، ولكن لا توجد في كل مكان ؛ والصندل أشجار ، ولكن لا توجد في كل غابة — والفيلة كثيرة ، ولكن فيلاً واحداً هو فيل الملك ؛ كذلك ما أكثر الناس ولكن قلّ بينهم الإنسان الحق » . والنبوغ في كل ملكة موضع إعجاب ، ولكن أعجب العجب هو النبوغ الروحى . وكما قال القائل : « إن المصلح وليد المدنية ، ولكن النبى أبوها » .

عماد الأديان كلها أن وراء هذه المملكة الظاهرة في الحياة مملكة أخرى باطنة ، وهاتان الملكتان يختلف بعضهما عن بعض تمام الاختلاف ؛ فالمملكة الظاهرة فيها المادة بجميع أشكالها وتطورها ، من حبة الرمل إلى خلية النخ ، وفيها كل مظاهر الدنيا مما نرى من جماد ونبات وحيوان ، وفيها كل شئون الإنسان الظاهرة ، من زرع وتجارة وصناعة ، وتنظيم للحياة الاجتماعية ، واستغلال وجمع وإنفاق ، وتدير ميزانيات ، وإنشاء دواوين وحكومات تشرف على الأعمال ، وملوك أو برلمانات تشرف على الحكومات ، وهكذا — وكل ما نقرأ من أحداث التاريخ فإنما هو تاريخ هذه المملكة الظاهرة — أما المملكة الباطنة ففيها أنبياء وأولياء وقديسون وملائكة وشياطين ، ويوم آخر ، وبعث ونشور ، وحساب وثواب وعقاب ، وجنة ونار ، وروح ووحى ، وإلهام وإله .

وهذه المملكة الباطنة سميت أسماء مختلفة ، فبعضهم يسميها « دائرة المجهول » ، و « ما لا يمكن علمه » ، وسميها القرآن « الغيب » ، كما سمي المملكة الظاهرة « الشهادة » ، فقال : « الذين يؤمنون بالغيب » ، « عالم الغيب والشهادة » ، « تلك من أنباء الغيب » . الخ . وترى الأديان أن هذين العالمين إذا قوُما فالمملكة الظاهرة قليلة القيمة جداً إذا قيسَت بمملكة الباطن ، لأن الأولى ذاهبة فانية ، والأخرى باقية خالدة ؛ ولأن الأولى دخلها عنصر الزمان فأضعف قيمتها وأقصر مدتها ، وأما الأخرى فلم يدخلها عنصر الزمان فخلدت . وكما كان في مملكة الظاهر خداعون وكذّابون يكذبون في العلم والخلق والتجارة والصناعة ، كان كذلك خداع وتمويه في عالم الغيب ، كقصص العفاريت ، وأعمال السحرة ، والأساطير المتوارثة في كل أمة ، والتنجيم والطلاسم ، وهكذا .

وليس الإيمان بعالم الغيب — كما يظن بعضهم — ضرباً من الأوهام ورثناه من آباءنا الأولين أيام كانوا ضعاف العقول ، أقوياء الخيال ، بل هو جزء من طبيعة النفس الإنسانية ملازم لها في جميع أدوار عقليتها ومدنيتها وثقافتها ، والذين أنكروه أنكروه بمنطقهم ، ولم يستطيعوا التجرد منه في نفوسهم ومشاعرهم .
يشعر الناس أن هناك دائرة للمعلوم تحيط بها أسوار ، وأن وراء هذا الأسوار دائرة المجهول أو عالم الغيب ، وأنهم يريدون أن ينفذوا من هذه الأسوار للوصول إليها ، فمنهم من يصل ومنهم من ينقطع .

ووسائل إدراك مملكة الظاهر غير وسائل إدراك مملكة الباطن ، فوسائل الأولى هو ما نسميه « العلم » وهذا العلم يعتمد — فقط — على الحواس الخمس ، وهى : السمع ، والبصر ، والشم ، واللمس ، والذوق . فكل المناهج العلمية ، وكل الآلات والمخترعات ، وكل البحوث في الطبيعة والكيمياء ، والفلك ، والنبات والحيوان ، إنما عمادها هذه الحواس الخمس ، مرهفة أو مكبرة ؛ حتى أدق العمليات الرياضية والهندسية ، إنما هى أعمال الحواس الخمس تستخدم فيها المقارنة ، ثم أعمال العقل فى هذه المقارنات بالاستنتاج ؛ وكل النتائج العجيبة التى وصل إليها العلم ليست إلا وليدة الملاحظات الحسية مع الاستنتاج المنطقى ، وهذه هى خطة العلم دائماً .

أما وسائل عالم الغيب ، فليست الحواس ولا المنطق ، وإنما هى الرياضة النفسية ، واختطاط خطة غير الحواس الخمس ، ومحاولة تخطى هذه الأسوار بها ، والنفوذ من خلالها لإدراك عالم المجهول ؛ وهذا ما سلكه دائماً الروحانيون من الأنبياء والمتصلين بهم ، فمحمد ، وعيسى ، وموسى وغيرهم ، لم يسلكوا سبيل العلماء فى بحثهم واعتمادهم على الحواس وتجريبهم ومقارنتهم بين المواد والاستنتاج منها ، إنما راضوا نفوسهم على نحو ما ، لينفذوا إلى عالم المجهول . وغار حراء بالنسبة

لمحمد (ص) في جهده للوصول إلى المجهول من عالم الغيب ، كالعالم في معمله وتجاربه في عالم الشهادة ؛ هذا منهج وهذا منهج ، وشتان ما بينهما . بالمنهج العلمى من ملاحظة وتجربة واستنتاج ومنطق تكتشف قضايا العلم ؛ وبالمنهج الروحى الذى أشرنا إليه ، يحدث نوع من المعرفة أساسه مانسميه بالوحي أو الإلهام .

وفي القرآن قصة ترمز إلى الفرق بين نوعى العلمين : العلم المبني على المنطق والعلم المبني على مكاشفة الروح ، وهى قصة موسى مع العبد الصالح الذى علمه الله من لدنه علماً ؛ فموسى سلك سبيل المنطق ، وبناء المسببات على الأسباب الظاهرة ؛ وهذا العبد الصالح لم يسلك هذا المسلك ، فخرق سفينة ليس لخرقها من سبب ظاهر ، وقتل نفساً زكية بغير نفس ، وأقام جداراً لأهل قرية أبوا أن يضيّفوهما ، وكل هذا منتقد من جانب المنطق ، ولكن له ما يبرره من جانب الإلهام الروحى كما شرح فى القصة^(١)

لقد ذهب كثير من علماء النفس إلى أن وسائل العلم والمعرفة تنحصر فى الوسائل المعروفة من ملاحظة وتجربة ، وعدّوا ما يظهر غير ذلك نوعاً من المرض النفسى ، أو شروداً فى الخيال ؛ ولكن ظهور حالات كثيرة من المعرفة ، وانكشاف أمور ليس انكشافاً أساسه المنطق ، عدّل أذهان كثير من علماء النفس ، فأقروا بأن هناك إدراكاً أساسه المنطق من ملاحظة وتجربة واستنتاج ، وهذا هو العادة والأغلب ؛ ولكن بجانب ذلك أحوال نادرة ، يستطيع فيها الإنسان أن يدرك ويعلم ، ويعرف عن طريق غير المنطق ، وإن كانت نادرة ، وأقروا بأن طريقة علمنا ومعارفنا وبحثنا واستنتاجنا هى الطريقة المألوفة العادية ، ولكن ليست هى كل وسائل المعرفة ، فهناك من الوسائل ومن أنواع الإدراك ما لا يخضع للمنطق . ومن ذلك الحين أخذ علماء النفس ينوعون اتجاههم ،

(١) اقرأ القصة فى سورة الكهف : (وإذ قال موسى لفتهاه) الآيات

ويوسعون بحثهم ؛ فبحثوا في المتصوف ونفسيته ، وكيفية إدراكه ومعرفته ، ولا يزالون في بدء هذا الاتجاه ، وهذا البدأ كان بدءاً فقط من الناحية العلمية ، أما الحقائق نفسها فمقررة في كل دين ، معترف بها في كل عصر .

على هذا الأساس تكون الإنسانية تسبح في دائرتين : دائرة خارجية أو ظاهرية ، ودائرة داخلية أو باطنية ؛ مثل الأولى كجسم الشجرة ، وجذعها وساقها ، ومثل الأخرى كالحياة تدب فيها فتكوّن وظائفها المختلفة ، وتهيئها للإزهار والإثمار ، ومثلها جميعاً كجسم الشمعة وقوتها على الإضاءة .

وكل ما نغنى به الآن من علوم على اختلاف ألوانها ، وما نغنى به من تاريخ أحداث وحروب واجتماع ، وما نغنى به من دعوة إلى الصدق والأمانة ، والجد والعدل ، كل ذلك متعلق بالحياة الخارجية ؛ أما الحياة الروحية فحياة داخل حياة وحكومة داخل حكومة ؛ وهذه غذاؤها الدين ، وهو غذاء فاسد ، إن فسد ، وصالح إن صلح .

ونرى في غرضون التاريخ إشارات إلى هذه الحياة الروحية في معابد اليونان ، وهياكل المصريين ورموزهم ؛ فالخاصة كانوا يفهمونها على حقيقتها ويرمزون إلى المعاني التي في صدورهم برموز مجسمة وقصص رمزية ، يفهمها الخاصة على أنها رمز ، ويفهمها العامة على أنها حقائق ، وهكذا الشأن في تاريخ سائر الأمم والديانات . وقد حاول كشف الجهول من الحياة الخارجية والباطنية أربعة أصول ؛ كلٌّ

سلك طريقه الذي يناسب طبيعته ومزاجه : العلم ، والفلسفة ، والدين ، والفن ؛ وكثيراً ما تنازعت في الطريق ، وقامت بينها المشاحنات والخصومات ، ومنازعتها دليل على أنها لم تدرك وظائفها حق الإدراك ؛ وأن كلا حاول أن يوسع طريقه على حساب غيره ؛ وأن يتعدى في اختصاصه على اختصاص غيره ، ولو نظرت كلها إلى طريقها من طيارة لأدركت أن الطريق المرسوم لكل منها طريق

مستقل بنفسه ، واضح بأعلامه ، وأنها كلها تصب في دائرة وسطها ، هي دائرة الحقيقة . ولو سار كلٌّ في طريقه الخاص به ، ولم يتعدَّ على غيره لتوصل إلى الحقيقة من جانبه . وهذه الحقيقة كفيّلة بأن تنكشف في نهاية كل طريق عما يخصه ، وفيها كلها كشف الحياتين الظاهرة والباطنة ، والعالمين عالم الغيب وعالم الشهادة ؛ ولكن مع الأسف نرى علماً يُغير على دين ، وديناً يُغير على علم ، وفلسفة تُغير عليهما جهلاً بالطريق وعمى عن الحقيقة .

إن العلم — كما قلت — أساسه الملاحظة والتجربة ، ولا يكون ذلك إلا فيما يُلاحظ ويجرَّب ، فإن أراد أن يتخطى أسواره إلى عالم الغيب ، فقد أدواته ، وتكلم كلاماً سخيفاً ، وكذلك إذا أصابه الغرور ، فأنكر ما وراء السور .

والدين عماده الوحي والوصول عن طريق الروح إلى عالم الغيب بالرياضة وما إليها ، والاتصال بالشعور الأنبل إلى القوة العليا ، فإذا هو تخطى الدائرة الروحية إلى الدائرة العلمية ، فتعرض لقضايا العلم يشرحها ويدلل عليها ، أو ينكر على العلماء بحُجهم ونتائجهم ، فقد تعدى طوره ؛ وكذلك إذا أخذ يدال على الدين بقضايا المنطق كما فعل علماء اللاهوت وعلماء الكلام في الإسلام فقد أتوا بفلسفة تافهة ليس فيها طعم الفلسفة ولا طعم الدين ؛ وكل هؤلاء وهؤلاء مثلهم مثل من أراد أن يشم بعينه ، ويرى بأذنه ، ويتذوق بأنفه .

والفن من أدب وموسيقى وتصوير أساسه انهمم العاطفي ، والشعور بما خفي وراء المظاهر ، والوصول إلى قلب الأشياء ومزجها بعواطف الفنان ومشاعره ومزاجه ، وإبرازها في شكل متناغم ، والاستمداد من قوة الخالق ليخلق صوراً وألواناً يلهم بها العواطف النبيل والسمو ؛ فإن هو لم يمس الباطن واكتفى بالسطح أو اقتصر على استخراج السخرية والهرزؤ ، لم يؤد رسالته ، وعدَّ من توافه الأشياء ؛ وإن هو اكتفى باستدراار المال من الأمراء والأغنياء ، أو كان وسيلة للإثارة

المشاعر الجنسية ، كان سلعة تجارية وضيفة لا سموًا روحانيا رفيعًا .
والفلسفة أساسها التأمل والتفكير المنطقي ، وشرح مانعهم وتمييزه عما لا نعلم
والوصول إلى جذور شجرة العلم والفن والدين لإدراك أصولها ؛ فإن هي كانت
لعبًا بالألفاظ ، وعرضًا لآراء الفيلسوف ومشاعره ، وتضاربها مع آراء الفلاسفة
الآخرين ومشاعرهم ، لم تؤدّ رسالتها ، وكانت فلسفة لفظية أو شكلية أو حوارية
أو ضربًا من التعمية ، أو سخافة مغلفة بالألفاظ الغريبة الضخمة .

وما المدنية الحققة إلا هذه الأصول الأربعة راسمة لكل أصل حدوده وطرقه ،
موازنة بينها حتى لا يطغى منها أصل على أصل ، مهذبة كل أصل حتى لا يدخله
الاستبداد والغرور ، منقحة كل واحد منها حتى لا يدخله زيف أو تحوير
أو تضليل .

ونفس كل إنسان فيها هذه العناصر الأربعة مع تفاوت بين الناس في المقدرة
والكفاية والفاعلية والقابلية ؛ والنفس الكلية للعالم كذلك فيها هذه العناصر
واضحة جلية ، وهي بجملتها وتفصيلها مظهر المدنية .

وفساد مدنيتنا التي نعيش فيها اليوم أتى من اختلال التوازن بين هذه العناصر
وما دخل على كل عنصر من الفساد .

فالعلم تقدم وتقدم ، ولكن أين له القلب ؟ لقد ملأ الدنيا آلات وأدوات ،
ونظريات في السياسة والاجتماع والاقتصاد ، ولكن أصيب بعيبين : أولهما أن
دائرته الطبيعية هي المادة ، فأداه غروره أن يبحث فيما وراء المادة بأدوات
المادة ، فلما لم يجده أنكره ؛ وثانيهما أن الروح لم تتقدم تقدمه وتخلقت وتخلقت ،
فاستُخدم التقدم العلمى لخدمة الغرائز الوحشية على شكل ممدّن ، فإذا كان الوحش يُقْتَل
بالحجر أو الهراوة ، فالعلم يقتل بالكهرباء والغواصات والطائرات والغازات
الخانقات ، والوحش يأسر خصمه ويستعبده لخدمته ، والمدني يغزو ويفتح

ويستغل ويستعبد بأسلوب منظم ، وفي الأمة الواحدة أنواع وأنواع من الاستعباد ؛ وكذلك الشأن في بواعث اللهو والسرور ، فقد ترقّت في الرقص والموسيقى واللعب . فالفرائز بين المتوحش والمتمدن واحدة ، والبواعث واحدة ، والعلم نظم الشكل وهذب الأسلوب فقط ، وقامت عظمة المدنية على ما كان عند المتوحش من غريزة حماية الأسرة أو القبيلة بشكل أضخم ، من استعداد حربي عظيم ، وتقوية الروح العسكري ونحو ذلك ؛ فالعلم — بتقدمه من غير أن يتقدم الباعث القلبي — أبقى القديم ورقى الشكل ؛ فأصبحت المدنية على هذا الوضع وحشية مغلفة ، أو همجية مفضضة .

والدين في المدنية الحديثة مظهر لا مخبر ، وعمل بلا قلب ، وشعائر بلا شعور ، وحركات بلا روح ، ورجاله أتباع السلطة المدنية ، لا قادة الحياة الروحية ، ينظرون بأعينهم إلى الأرض ، ولا ينظرون بقلوبهم إلى السماء .
والفن تحريك للشهوة ، واستجلاب للثروة ، وجدّ في بقاء الشعوب في مستواها الهزلي .

فهل هذا الذي نرى — من تدمير بلغ أقصى مداه ، وقلق واضطراب وصل إلى نهايته ، وزلزلة وبلبلة قلبت العالم رأسه على عقبه — إعلان للثورة على المدنية التي لا روح لها ، لئني على أنقاضها مدنية لها روح ؟
نرجو أن يكون !!

٣

قصتان هنديةتان رمزيّتان ، قرأتها هذا الأسبوع ، فأعجبت بهما لطرافتهما ودقتهما ، وإيحائهما إيحاءً واسعاً شاملاً .

فأما الأولى فخلاصتها أن الإنسان الأول لما شعر بضعفه ، وبدأ يتعرّف بربه ، سمع صرخة استغاثة ملأت الآفاق ، فحار في تفسيرها ، ولما أعياه الأمر في البحث عن سرها أظلمت نفسه ، وقلق باله ، حتى جن عليه الليل ، فرأى في منامه أن الروح الأعلى تجلّت له وخاطبته : إن تقبل هديتي يزُلْ قلقك ، وينجَلْ لك ما أبهم عليك ، ويضئ ما أظلم من نفسك . إني خلقت لك ثلاث حمامات بيضاء ناصعاً لونها تسرُّ الناظرين ، تُسمّى إحداها الإيمان ، والثانية الرجاء ، والثالثة الحب ؛ فإن أنت أسكنتها معك في أرضك ؛ واستألفتها إليك ، وحافظت على سكناها معك ، ضمنتُ لك قوّة في قلبك ، ونوراً في نفسك يكشف لك الحق ، ويهديك إلى الخير ، ويحقق لك السعادة .

وانتبه من نومه ، فرأى الحمامات الثلاث في أرضه تساكنه ، وتتجسّب إلى الناس وتتألف لهم وتصادقهم ؛ ولكن ما لبثت أن رأت قليلاً من الناس يألفها ويصادقها ، وكثيراً منهم يهزأ بها ، وكثيراً آخر لا يعابها ، وكثيراً ثالثاً يطاردوها ويرجمها بالحجارة ، حتى سئمت الحمامات من سوء ما لقيت ، وعادت إلى بارئها وقالت : « سبحانك ربنا ، لقد مللنا من خلقك في الأرض ، فليس منهم إلا قليل أحسن استقبالنا ، وأكثَرهم عبسوا في وجوهنا ، أو هزئوا بنا ، أو طاردونا — لبئس المكان مكاننا في الأرض ؛ إنا نضرع إليك أن تعفينا من سكناها هذا ، وتقرّبنا إليك ، وتسكننا في مملكتك السماوية ، حتى لا نألم ولا نشقى »

قال خالقها للأولى التي اسمها الإيمان : « ذلك ما ليس في الإمكان ، فليس

في ملكوت السماوات مكان لك ، إن أهله قد ذاب إيمانهم في تمام معرفتهم وانكشاف الحق لهم ، وتحول غيبيهم إلى شهادة ، فارجمي إلى الأرض حيث أهلها في حاجة إليك ، وقد منحتك قدرة أن من تقبلك قبولاً حسناً سعدت نفسه ، ومن آذاك أو طاردك لم يعرفني ، فأظلم قلبه وشقى في حياته .

« وأما أنت أيها الرجاء ، فكذلك لا مكان لك عند أهل السماء ، فما محل الرجاء عند من بلغوا كل رجائهم . ونالوا منتهى أملهم — ارجعي إلى الإنسان وقد منحك قوة أن تكوني بلسماً لهمومه ، وعوناً له في محنته ، وألا يخاف من الموت إذا كنت بجانبه .

« وأما أنت يا حمامة الحب فلك موقف آخر ، حقا إن لك مكاناً في ملكوت السماوات ، وأنت نعيم الجنة ؛ ولكن ألا تعودين إلى الأرض مع حمامتي الإيمان والرجاء ، فليس لهما حياة بدونك ! وإذا كانت الجنة لا تستغني عنك فسأمنحك القدرة على أن تجولي في لحظة بين السماء والأرض ، وأن تخطري في لحظة بين أهل الفناء وأهل البقاء ؛ وسأجعل جزاء من يتعشّقك ويتذوّقك في الأرض أن يطمح إلى لقيائك في السماء » .

فأطاعت ما أمرت به ، ونزلت ثلاثهن إلى الأرض يحتملن الأذى من أهلها ، وظلت الثالثة تذهب وتجيء . وكان ما وعدّها ربّها حقاً من طمأنينة من تألف الإيمان ، وشقاء من طارده ، والتئام جراح من احتضن الرجاء ، وعذاب من أطاره ، وسعادة من عانق الحب ، وشقاء من أغلق دونه بابه .

وفي الحق ما الدين وراء هذه الثلاثة ؟ إيمان بما وراء المحسوس لشعورنا به ، فهما غالبنا هذا الشعور بتقوينا للمحسوس أكبر من قيمته ، ومهما غالبنا في تقويم العلم والمنطق ، فنوازعنا الباطنية الطبيعية تنادينا من أعماقنا بالله ،

وتحن شوقاً إلى رؤية الحمامة البيضاء ، حمامة الإيمان ومن فقدوا الإيمان بالله لجئوا إلى أسماء أخرى لما أعجزهم فهمه ، من طبيعة ، أو حظ ، أو قدر أو مجهول أو مثل أعلى للعالم أو نحو ذلك ! فقد تعددت الأسماء والمسمى واحد سبحانه وتعالى .

والرجاء — عنصر قوى في الدين ، مبناه الاعتقاد في سعة رحمة الله — لقد وُجدَ في كل دين لون من الرجاء ولون من الخوف ، ووُجدَ في كل عصر من رجاله من قَوَّوا جانب الرجاء ، ومن قوَّوا جانب الخوف . وأنا أشدُّ حباً لمن كانوا في جانب الرجاء ، فهو أبعث للعمل ، وأصلح للحياة ، وأدعى إلى الطمأنينة وأفتح للرغبة في بذل الجهد لصالح الأعمال . ولست أحب طريقة الحسن البصري وأمثاله ممن ملأوا الناس رعباً وتخويفاً وتهديداً ، حتى شلوا القلوب ، وطَيَّرُوا الحب من النفوس ؟ وجعلوا الحياة بأسنة حزينة بغیضة . والقرآن في كل سورة يكرر بسم الله الرحمن الرحيم ، والرحمة مبعث الرجاء والحب لا الخوف والرعب .

ما الحياة وما الدين بلا رجاء ؟ قرأتُ مرَّةً أن أحد كبار العلماء الملحدین حضرته الوفاة ، وعنده بعض أصدقائه من أمثاله ، فقال له أحدهم يشجعه على البقاء على إلحاده : « لا تخف ، لقد قربت من النهاية ، فتماسك وتقوَّ واحتمل » . فقال المحتضر : « آه ! ولكن لا أجد ما أتقوَّى به وأعتمد عليه ، ليس لدى رجاء ولا أمل في حياة أخرى سعيدة ، كلُّ ما حولى ظلام » .

وأما الحب فعماد الدين الحق ، إنه في الدين يصحب الرجاء ولا يصحب الخوف ، قد يبعث الخوفُ اجتنابَ الشرور والإتيانَ بالشعائر ، ولكنه كالشرير يجتنب الجريمة اتقاء السلطان ؛ بل الحب في الدين قد يستغنى عن الرجاء والخوف .

وكانت حمامة الحب أجمل الحمامات شكلاً ، وأرشقها حركة ، فقتن الناس

بجملها أكثر مما فتنوا بحقيقتها ، فصنعوا لها تماثيل كثيرة وسموها الحب ولا روح لها . وكل يوم يسيء الناس استعمال اسمها ألوف المرات في أتفه الأشياء ، أوفى لا شيء ، ويحدث ذلك حين تطير إلى السماء ، أو تكون في مآلف القليل ممن يفهم حقيقتها .

هذه قصة ؛ وأما القصة الثانية فهي أن جَنِّيَّة ظريفة ممن يسكن الأماكن السحيقة ، أحبت المرح يوما فنزلت أرض الناس ونسلت فيها ؛ وشاء صغارها أن يلعبن فصنعن « عروساً » وَبَنَيْنَ لها داراً على قدرها ، وأرادت الأم الكبيرة أن تدخل المنزل وترى « العروس » ، فصغر باب المنزل عن حجمها ؛ فقكرت فكرة شيطانية : أن تفرق أجزاءها وترسلها جزءاً جزءاً ، فقكت أصابعها وأدخلتها ، ثم رأسها ، ثم قلبها ، ثم سائر أجزائها ؛ فلما كانت جميع الأجزاء في المنزل ضاق بها ، واحتك بعضها ببعض ، فتخاصمت الأعضاء وتحاربت ، وتنازعت على الأماكن ، كل يدعى ملكية مكانه ، وأنه أولى به ، ولا يقبل من أى عضو احتلال مكانه أو القرب منه أو التحكك به . ثم أراد بعض الأعضاء الخروج فوجد الآخر في طريقه ، وأبى أن يفتح له الطريق خشية أن يحتك ببعض الأعضاء الأخرى ، واحتبس الأعضاء جميعاً في بيت « العروس » الصغير المظلم ، وتدافعوا من غير جدوى ، واضطرب حالهم ، وأدركتهم الحيرة ، وعمى على الأعضاء أمرهم وعلاقتهم بالجسم كله ؛ وحينئذ نبض القلب ، ووقف بين سائر الأعضاء خطيباً قائلاً : « أيها الأعضاء ! إنكم كلكم منى ، وقد ساءت حالكم واضطرب أمركم ، وسأقدم لكم النصيح لأزيل اضطرابكم ، وسأقدم لكم المعونة لتخرجوا من مأزقكم ، إني شاعر بمرجكم وضيقكم ؛ وسأعمل لرفع الحرج عنكم » .

قال بعض الأعضاء : « إنا راضون عن مكاننا ، غير قلقين في موقفنا » .
قال القلب : « لا بأس ، إنكم اعتدتم الظلام فحمدتموه ، وألقتم الضيق فاطمأنتم إليه ، وستحمدون معي الخروج إلى النور ، والسعة بعد الضيق » .
وما زال بهم حتى ألف بينهم وقادهم عضواً عضواً إلى الخارج ، ثم جمع أشتاتهم على أحسن ما كانوا .

قال القلب هذا لأنه وحده الذي شعر أن كل عضو جزء منه ، وأن كل الأعضاء متفرقة منه متجمعة حوله ، وهكذا رجعا كلها إليه ، وأعادها متماسكة جسماً واحداً كما كانت .

ودعا القلب هذه الدعوة لأنه مسكن الحب ، ولأنه وحده الذي يستضيء بنوره ، وينصهر بناره ؛ وهو وحده الذي لما مسّه الحب كان منه الصبر واحتمال المكارِه والتسامح والتضحية ، والعمل خيراً الجميع .

أليست دنيانا منزل « العروس » ؟ ! كنا جسماً واحداً أبناء آدم وحواء ، فنفرقنا في أنحائها ، وتخاصمنا في ملكيتها ، واحتبسنا فيها ، وفقدنا الشعور بوحدتنا ، وسددنا الطرق على أنفسنا ، وظن كل عضو أنه مستقل بنفسه ، مستغن عن غيره .

إن العالم في كل أزمة كهذه ينتظر الداعي الذي يجمعه بعد تفرقه ، ويأسوه بعد جراحه ، ويدعوه إلى جمع شتاته ؛ وما هذا الداعي إلا نفوسه الكبيرة التي يوجد بها الزمان من آن لآن ، على ندرة كندرة الجوهر في الأحجار ، والصنديل في الأشجار . إن هذه النفوس تشعر شعور الناس ، وتحمل أعباء الناس ، وتحيا للناس ؛ إنها بعملها تنسج المستقبل ، وتلد الأفكار للجيل الجديد ، إنها تسمع شكوى الشعوب من ثقل أغلالهم ، واستغاثتهم من سوء حالهم ، فتقدم أغلى

شيء لديها لفك قيودهم ، وتحرير عقولهم . إنها تعثر في أثناء جهادها على حجر الفلاسفة الذى تقلب به معادن الناس إلى ذهب خالص ؛ إنها بأقوالها وأفعالها تحرك العالم وتحوله من جَزُر إلى مد ؛ إنها ترى الغرض الأسمى على ضوء نار الحب فلا تهاب شيئاً ، وتسير إلى غرضها لا تلتفت يمنة ولا يسرة ، محطمة في طريقها الأصنام التى تعوق الناس عن سيرها ، منسدة أناشيد الإنسانية التى تملأ الناس حماسة وأملًا .

٤

سعة النفس :

تختلف النفوس سعة وضيقاً كما تختلف الحُجُر والمنازل والأماكن ؛ فمن الناس من تضيق نفسه حتى تكون كسَمِّ الخياط ، ومنهم من تتسع نفسه حتى تشمل العالم وما فيه .

تولد النفس ضيقة شديدة الضيق ، ثم كل تجربة من الحواس الخمس توسع دائرتها ، وكلما زادت تجاربها زاد اتساعها .

وفائدة التربية توسيع النفس ؛ فكل موضوع تتعلمه يزيد فى اتساع نفسنا كما يزيد فى اهتمامنا . فإذا قرأنا التاريخ — مثلاً — قديمه ووسطه وحديثه زاد شعورنا بالأجيال المختلفة على تعاقبها ، واتصلت نفوسنا بالعالم على توالى العصور ، وارتبطت بعضاء الرجال على نحو ما ، فكان ذلك كله عنصراً هاماً لسعة النفس ؛ وكذلك درس النبات ، يزيد اتصالنا بعالم النبات ويخلق فينا عيناً جديدة نقرأ بها فى النبات وأنواعه وتطوره وحياته ما لم نكن نقرأ ، فتتسع نفوسنا من هذه الناحية اتساعاً يجعل علم النبات جزءاً منا ؛ وكذلك الشأن فى كل علم من جيولوجيا وفلك وطبيعة وكيمياء ، كل علم بشيء يبعث موجات لاسلكية من

الأشياء المعلومة ويجعل من نفسنا جهازاً مستقبلاً لها ، وعلى قدر علمنا بالعالم حولنا تكون سعة نفسنا ، وتكون مقدرة استقبالنا للموجات ، ويكون تجاوب نفسنا مع العالم .

وكما تتسع نفس الإنسان بعلمه بالشئ تتسع قدرته ونفوذه ؛ فالمهندس يرى في الأبنية ما لم ير ، ويقرأ فيها من أحجارها وأخشابها وأوضاعها ما لم نقرأ ، ويستطيع أن يتخيل من الصور والأبنية والأشكال ما لم نتخيل ، ويُخرج إلى الوجود من المشروعات والتصميمات ما لم نستطع ؛ وشتان بين موسيقى يدرك أدق شيء فيما يسمع ، ويُصغى إلى نفسه فيستخرج من الألحان ما نُعجب به ، وبين من ليس له أذن موسيقية فلا يميز بين صوت وصوت ، فضلاً عن خلق ألحان جديدة !

هناك وسائل كثيرة لتوسيع النفس ، أكثرها شيوعاً مزاولة الأعمال المادية مهما اختلفت هذه المادة ؛ فالنجار في نجارته ، والحداد في حدادته ، والتاجر في سلعه ، والزارع في زرعه ، كلٌّ يوسع نفسه ونفوذه في ناحيته ، فمارسته العمل تنمي خياله في موضوعه ، فيحلم بأشياء في ذهنه يستخرجها إلى حيِّز الوجود بعمله ، وكل التحسينات في الصناعات ناشئة عن هذه السعة في النفس التي تتبعها قوة الخيال وإصلاح الإنتاج .

وكل ما يباشره الإنسان ويتصل به يكون جزءاً من نفسه ؛ فبيتك الذي تسكنه ، وأثاث منزلك ومالك وثروتك ، كل هذا يتحد مع نفسك ويكون جزءاً منها ، من تعدَّى عليه فقد تعدى على نفسك ، ومن عاب بيتك أو أثاثك أو صناعتك فقد عاب نفسك ، ومن مدحها فقد مدح نفسك .

وهكذا الشأن في المعنويات ، فمن ضروب توسيع النفس وسعادتها اتصالها بنفس مثلها ، فقد تشعر النفس بضيق وظلام حتى تجد نفساً تألفها ، فتشعر بالسعة

بعد الضيق ، والنور بعد الظلمة ، وتشعر بلذة التجاوب بين النفسين ، والتناغم بين الروحين ، وهذا هو سر السعادة في الصداقة ، والسعادة في الحب ؛ فالنفس تشعر بسعتها ، وأن نفساً أخرى انضمت إلى نفسها وتكوّنت منهما وحدة ، تسعد كلُّ بسعادة الأخرى ، وتكمل كلُّ نفس الأخرى ، وتستمد كل نفس قوة من النفس الأخرى ، وربما استطاعا بامتزاجهما أن ينتجا شيئاً لا تستطيع أن تنتجه كلتاها ولا هما معاً غير ممتزجتين ، كالعنصرين يمتزجان فيكوّنان عنصراً جديداً ليس أحدهما وليس هما معاً متفرقين منفصلين . وعمل الأنبياء والمصلحين أن يوحدوا الغرض بين النفوس ، ويعملوا بتعاليمهم على توحيدها ، فإذا الجمعية الأولى الملتفة حول النبي أو المصلح متحدة كأنها نفس واحدة ، واسعة لأن كل نفس تشربت سائر النفوس ، وإذا ما يصدر عنها مجمعةً يستدعى العجب . ومما يشده كبار المصلحين المتفائلين في العالم تحقيق نظم اجتماعية وسياسية إنسانية تدرك هذه الحقيقة ، فتوسّع النفوس بالتوحيد بين أغراضها ، والتأليف بين قواها ، والقضاء على عناصر التفريق من وطنية وعصبية ودينية وقومية وجنسية ولغوية ، حتى تتسع النفوس إلى أقصى حد ممكن ، وتتجه كلها لخير الإنسانية على السواء ، وإذا ذاك يقفز المجتمع الإنساني والمدنية قفزة لم يرها التاريخ ، لأن التاريخ في جميع عصوره كان معوقاً بالعصبية القبلية والقومية ، والحدود الجغرافية ، والنزعات الوطنية والجنسية ، والخلافات الدينية ، وكلها مظاهر لضيق النفس .

ومن مزايا الدين توسيع النفس ، وهو ما عبر عنه الإسلام بانسراح الصدر ؛ ولعلك صادفت في حياتك أناساً ضاق صدرهم ، وتغلب عليهم الشعور بأن القدر يعاكسهم ، والحظ يعبس في وجوههم ، وأنهم كما سلكوا طريقاً سُدَّ أمامهم . إن الدين كفيل بإزالة هذا الشعور ، وشرح الصدر وتوسيع النفس ؛ فالؤمن يشعر

شعوراً عميقاً بأن قوة تويده وتكتسح الصعاب أمامه ، وهو يشعر بانهدام السدود والحدود في طريقه ، وهو يشعر بانعدام الزمان والمكان بضمه عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، واتصال الحياة الأخرى بالحياة الأولى ، فهو واسع الرجاء ، لا يعوق نظره عائق ، ينجذب إلى عالم علوى فيه السعادة وفيه الرضا وفيه الطمأنينة . الدين الحق يغير النفسية فينقلها من عالم ضيق محدود إلى عالم فسيح غير محدود ، كالذى حدث في عبّاد الأصنام في الجاهلية لما انتقلوا إلى الإسلام ؛ فستان بين أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وأبى عبيدة وخالد بن الوليد الجاهليين ، وبينهم أنفسهم وهم إسلاميون ! ما أضيق أنفسهم في حياتهم الأولى وما أوسعها في الثانية ! وكما أفادهم الدين سعة نفس أفادهم قوة نفس ؛ فمحال أن كان الجاهليون من العرب يفتحون ما فتحوا وينتصرون ما انتصروا إذا بقوا على دينهم الأول ، ولو تجمعوا حول قائد حربى كبير ؛ فإن انتصارهم يرجع إلى سببين كبيرين : التوفيق في اختيار قوادهم ، وأهم من ذلك العقيدة بأنهم مؤيدون بقوة من عند ربهم . الدين هو الذى فتح أمامهم الأفق ، وملاهم روحاً للعمل ؛ بل هو الذى غير موقفهم نحو الحياة ، فجعل من الجبان شجاعاً ، ومن البخيل سمحاً ، ومن الشاك مؤمناً ، ومن الجزوع مطمئناً — قد كانت النفوس قبله مكبلة ببعض أوهام من غضب الصنم ورضاه ، ومن عادات وتقاليد تشل العقل وتقيد الروح ، فلما آمنت بآله واحد فوق كل شيء يرضيه الخير ويغضبه الشر ، سمت سموً كبيراً . وفساد الدين يأتى من التعاليم التى تضيق النفس ، وتحجبها عن عالمها العلوى الفسيح — فالنفس إذا اعتقدت فى الخرافات ضاق حيزها ، وإذا امتلأت رعباً وفرعاً من النار وعذابها ارتبك حالها .

ومن أكبر ما أفسد الدين — فى نظرى — تزمت رجال الدين ومبالغتهم فى وصف الله — تعالى — وصفاً مخيفاً مرعباً ، بدل أن يصفوه — كما وصف

نفسه — رحمانا رحيمًا يعفو عن كثير . وقادهم هذا النظر إلى التخويف من كل نعيم الحياة ، حتى قالوا إن الضحكة يؤاخذ عليها ، والأكلة الطيبة موضع الحساب ، ونادوا أن لا غناء ولا فرح ، ولا سرور بالحياة — ما هذا كله ؟ وكل ذلك يفسد النفس ويخلق منها مزاجاً سيئاً لا يصلح للحياة ! إن الدين الحق يتفتح للحياة الدنيا كما يتفتح للحياة الأخرى ، ويكون أساسه حب الله الذي يحب الناس ، وأن في الدنيا جنة وفي الأخرى جنة . إن التزمت في الدين مغالاة في الحكمة حتى تعود سخفًا ، وحتى تحطم الحياة . الدين الحق يُدخل السرور على القلب والنشاط على النفس ؛ أما الحزن والخوف فيضيق الصدر ، ويشل النفس ويبعث السأم . أصبحت الصورة التي يرسمها رجال الدين للمتدينين — مع الأسف — صورة رجل منكس الرأس تواضعًا ، مملوء القلب رعبًا ، زاهد في النجاح في الحياة الدنيا طمعًا في الحياة الأخرى ، مغمور بالكرب خوفًا من الموت وما بعد الموت ، راغب عن متع الحياة ، شديد المحاسبة لنفسه في كل ما يأتي وما يذر ، عابس في وجه الحياة خوف أن تضله ، منهمك في العبادة غير عابئ بحقوق الناس ، يفر من الصوت الجميل ، ومن الملبس الجميل ، والنظافة الجميلة ، والفكاهة الحلوة ، إلى نحو ذلك .

وهذه الصورة التي يرسمها بعض رجال الدين وزادوا فيها على اختلاف العصور تنتهي إلى رجل ضيق الأفق حرج الصدر لا يصلح للحياة ، يُستغل ولا يُستغل ويُحكم ولا يُحكم ، ويذل ولا يعز ، وفي ظني أنه يشقى في الدنيا ولا يسعد في الآخرة ؛ فلو أراد الله منا العمل للآخرة وحدها ، لاستغنى عن وجود الدنيا واختصرها — إنما الصورة الصحيحة للرجل الصالح رجل أحب الله أكثر مما خافه ، وأحب الناس من حبه لله ، وتفتحت نفسه للدنيا كما تفتحت للآخرة ، ربط دينه بإسعاد الناس والتخفيف من متاعهم ، يضحك ويواسي ، ويصلي

ويتقن عمله ، ويحسن علاقته بالله وبالناس ، ويسم للحياة ولا بأس بالموت إذا الموت نزل ، ويرى الخير في أن يكون في الصدر في الدنيا وفي أعلى عليين في الآخرة ، ويرفع رأسه في الدنيا لأن ذلك مقرون برفع الرأس في الآخرة ، يوسع نفسه حتى تحتضن الإنسانية بأجمعها والكون وما فيه ، يعتقد أن الدين في القلب لا في المظهر ، والدين المعاملة لا العبادة وحدها ، وأن خير الناس عند الله أنفعهم للناس — وقد كان هذا هو الدين الأول قبل أن يفسده الخرفون ، وكانت هذه هي صورة المتدين قبل أن يشوهها المتأخرون . لو كان الدين أتى أوله بمثل ما أتى به آخره ما تحرر أهله ، ولا انتصروا ولا عزوا ، وكانوا طعمة لجيرانهم ، أدلة في أنفسهم . إن الصورة الأولى التعيسة تملأ النفس شعوراً بالضعف ، وكما يعبر علماء النفس الآن تزيده شعوراً « بمركب النقص » ؛ بينما الصورة الثانية تبعث على التسامى . ومركب النقص يفقد الثقة بالنفس وبالرب ، والتسامى يبعثها . إن النفوس قوانين طبيعية لا تتخلف : احرم النفس طمأنينتها واملأها رعباً وجردها من متع الحياة تفقد احترامها وقوتها ، وأمدّها بالمال الذي يلزمها وأصلح الظروف التي تحيط بها تتفتح وتحس القوة والعظمة . واعتماد النفس على إله مخيف ليس كاعتمادها على إله محب رحيم ، وشتان بين شعور ابن نحو أب يحب ويرحم ، ونحو أب يخيف ويرعب .

إن الدين الصحيح يغذى الشعور بالتسامى والتفوق ، ويعالج الشعور بالنقص ، والدين إذا فسد كان على العكس . الدين الصحيح ينقل النفس من « السوداء » والرعب إلى الطمأنينة والسعادة . إنه يوسع النفس حتى ترى بينها وبين الناس كلها وبينها وبين المخلوقات كلها نسباً كنسب الأسرة الواحدة ، بها الله .

ويحدث في النفوس العظيمة أن تتصل بعالم غير منظور فيتسع أفقها اتساعاً

مضاعفا — وهى ظاهرة من الصعب إنكارها ، وإن عز على العلم شرحها . وما نسميهم بنوابغ العالم وعظمائه هم من هذا القبيل ؛ خلقت نفوسهم ولها الاستعداد والقدرة على هذا الاتصال ، حتى لنرى هذا النوع — من كبار الأدباء والفنانين — يتعرضون لكتابة كتاب أو تصوير فكرة فيرتج عليهم ويصابون بالعقم ، فما هو إلا أن يشعروا أن بابا كان مغلقا ثم انفتح فجأة ، فاتصلت نفوسهم بعالم غير عالمهم ، ورأوا ما لم يكونوا يرون ، وتدفقت عليهم الإلهامات والمعاني والأفكار ، حتى كأن الرواية أو الكتاب أو القصيدة أو الصورة الفنية أو القطعة الموسيقية تكتب نفسها ؛ وهؤلاء يعالجون التعرض لهذا الوحي بأشكال شتى ، ومعالجات نفسية ، يستطيعون معها أن يستقبلوه ، إما بنوع من العزلة والاستغراق ، وإما بالتفكير فى فكرة نبيلة ، أو بقراءة كاتب ملهم مثلهم وتركيز النفس فيما كُتِبَ أو نحو ذلك . وليس أحد منا إلا من قرأ أو جالس عظيما فعجب كيف اتسعت نفسه هذه السعة ، وكيف تتدفق منه الأفكار والآراء كأنها وحي مُنزل ، وتفيض منه القوة حتى يُعَدِّى بها من قرأه أو سمعه . وعظماء رجال الدين من هذا القبيل تتسع نفوسهم لاتصالها بعالم روحى لا يقاس به عالم المادة . ويكاد يكون عند كل إنسان نوع من الاستعداد لهذا الوحي ، ولكن الفرق بين النفوس كالفرق بين حبة ظلت حبة ، وحبة وجدت جوَّها وغذاءها فأخرجت جذورا وجذعا وأغصانا وأزهارا وأثمارا . والتربية الصحيحة وتعاليم الدين الصحيحة هى التى تربي النفوس وتغذيها وتجعلها أقدر على أن تكمل نفسها وتوسع أفقها .

عروة بن الورد

في عصر يوم زرتُ أستاذنا الجليل « أحمد لطفي السيد باشا » في مصيفه في « رأس البر » ، وأخذنا نتحدث فنوناً من الحديث ، حتى وصل بنا إلى الأدب ، فقال :

لفتَ نظري وأنا أقرأ في « الأغاني » اليوم ما حكاه من أن معاوية قال : « لو كان لعروة ولدٌ لأحببتُ أن أتزوج إليهم » وأن عبد الملك بن مروان قال : « ما يسرُّني أن أحداً من العرب ممن لم يلدني قد ولدني إلاَّ عروة بن الورد » .

كيف يكون هذا ومعاوية هو ما هو في نفسه وفي ملكه ، وفي عظمته ، وفي قومه ، ثم يتمنى أن لو نال شرف الإصهار إلى عروة ؟ وعبد الملك بن مروان ، وهو ما هو في كل ذلك ، يتمنى أن يستعيز عن نسبته إلى معاوية وأبي سفيان وبنى أمية — هذه النسبة التي جلبت له الملك الضخم — بنسبته إلى عروة بن الورد ؟ ومن هو عروة ؟ صعلوكٌ من صعاليك العرب . وكتب اللغة تُعرِّف الصعلوك بأنه الفقير الذي لا يملك شيئاً ، ولا اعتماد له إلا على الغارة والتلصص .

كيف يستقيم ذلك في الأذهان ؟ أحد أمرين : إما أن تكون هذه الأقوال المنسوبة إلى معاوية وعبد الملك غير صحيحة ، وإما أن يكون فهمنا للصعاليك غير صحيح ! وجدتُ السؤال صعباً ، والاعتراض وجيهاً ، فلم أحرِ جواباً .

واليوم عدتُ إلى مكتبي وذكرتُ السؤال ، فرجعتُ إلى ديوان عروة أتلِس الحل . وجدتُ أن عروة — كما يصفونه — كان عبسياً ، من قبيلة عنقرة ، « وكان قارساً من فرسانها ، وصعلوكاً من صعاليكها المقدمين الأجواد . وكان

يلقب بعروة الصعاليك ، لجمعه إياهم ، وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ؛ ولم يكن لهم معاش ولا مغزى .

ووجدتُ أن كلمة الصعلوك تطلق على معنيين متقابلين ، أتم التقابل ، أحدهما في منتهى الخسة والضعفة والذلة ، والآخر في منتهى العزة والسمو والنبيل ؛ كلا المعنيين أساسه الفقر ، ولذلك سُمِّيَ كلا الرجلين صعلوكا ، ولكن شتان ما بينهما ؛ فأما أولهما فقير كسول خامل ، دنىء النفس ، ساقط الهمة ، يتلمس رزقه من السؤال ، ويدور على الموسرين يتحننهم ، ويستدرّ قوته الحقيق من أيديهم ، هذا صعلوك حقير . وأما الآخر فشهم شجاع ، يتلأأ وجهه عند الشدائد ، ويطلب رزقه من سن رحه ، فإن نال ما طلب طعم منه وأطعم ، وأكل وآكل ، وتزود وزود ، حتى يأتى على آخره فإذا هو فقير ، فهذا صعلوك نبيل .

ولم آت بشيء من عندى فى هذا التفريق بين الصعلوكين ، فقد عبر عروة عنه تعبيراً خيراً مما عبرتُ ، وجلاه خيراً مما جلوتُ ، فقال :

لَحَا اللهُ صُعْلُوكًا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ مُصَافِي الْمَشَاشِ آلِفًا كُلَّ مَجْزَرٍ ^(١)
يَعْدُ الْغَنَى مِنْ دَهْرِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مُبَسَّرٍ ^(٢)
يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ طَاوِيًا يَحْتُ الْحَصَى عَنْ جَنْبِهِ الْمُتَعَفِّرِ ^(٣)
قَلِيلَ التَّمَاسِ الزَادِ إِلَّا لِنَفْسِهِ إِذَا هُوَ أَمْسَى كَالْعَرِيشِ الْمَجْوَرِ ^(٤)

(١) لحا : لعن ، وجن الليل : أظلم ، والمشاش : رأس العظم اللين الهش ، ومصافى المشاش أى مفضله وملازمه ، وعائد عقد الألفة بينه وبينه ، والمعنى لعن الله صعلوكا حقير النفس إذا أظلم ليله تحس سقط الطعام ولازم مكانه .

(٢) أى أن هذا الصعلوك إذا أصاب الضيافة من صديق غنى حسب ذلك من نفسه غنى ، أى أنه يرضى من عيشه بقرى ليلة من صديق .

(٣) يحت الحصى : يفركه عن جسمه ، وهذا علامة خوله ودناءة همته ، فهو كثير النوم لا يسعى لرزق .

(٤) أى إذا هو أمسى وشبع بطنه مما أعطاه الناس سقط على الأرض من التخمّة ، كالكوخ الذى يتداعى ويسقط ، والمجور : السافط .

- يُعين نساء الحى ما يَسْتَعِنَّهُ (١) فَيُضْحِي طليحاً كالبعير المحسّر (١)
 ولله صعلوكٌ صَحيْفَةٌ وجهه كضوء شهاب القابس المتنور (٢)
 مُطْلأً على أعدائه يَزْجُرُونَهُ بساحتهم زجر المنيح المشهر (٣)
 فإن بَعْدُوا لا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ تَشَوُّفُ أهل الغائب المتنظر (٤)
 فذلك إن يلقى النية يلقها حميداً وإن يَسْتَعْنِ يوماً فأجدر (٥)

وفى هذا المعنى وتقسيم الصعلوك إلى هذين القسمين أيضاً قال حاتم الطائي :

- لما الله صعلوكاً مناه وهمه من العيش أن يَلْقَى لبوساً ومطعماً
 ينام الضحى حتى إذا الليل جَنَّهُ تَنَبَّه مثلوج الفؤاد مورماً (٦)
 مقياً مع المثرين ليس بيارح إذا نال جدوى من طعام ومجماً (٧)
 ولكن صعلوكاً يساور همهم ويمضى على الهيجاء ليثاً مصمماً (٨)
 إذا ما رأى يوماً مكارم أعرضت تيمم كبراهن ثمت صمماً (٩)

(١) أى يقضى نهاره فى خدمة النساء فى الأعمال الوضيعة حتى يعيا فيكون كالبعير الكليل
 (٢) القابس : طالب النار ، والمتنور : الذى يطلب النار من بعيد ، أى لله صعلوك فقير
 آخر مهلل الوجه ، منبسط النفس للجد والعمل لا يتخشع لفقره ، كأن ضوء وجهه ضوء ذى
 النار المستضىء بنورها .

(٣) مطلاً : مشرفاً على أعدائه يغزوهم ، فيزجرونه ويصيحون به — كما يصيحون
 بقداح اليسر عند اللعب بها — ليعبده .

(٤) أى إن بعد أعداؤه عنه لم يهمله بعده أن يغزوهم ، ولا يأمنون ذلك منه ، كما يفعل
 أهل الغائب الذى ترتقب عودته .

(٥) أى إن يمت يمت حميداً وإن بقى فاستغنى فما أجدره بهذا الغنى لأنه ينفقه
 فى المحامد .

(٦) مثلوج الفؤاد : بارد القلب بليداً ، ومورماً : منتفخاً من الغم .

(٧) الجدوى . العطية ، والمجثم : المكان يقيم فيه .

(٨) يساورهمه : يوائبه ويدافعه .

(٩) تيمم : قصد وتعمد .

فذلك إن يَلْقَى الكريهة يَلْقَهَا حميداً وإن يَسْتَعْنِ يوماً فربما^(١)

كان عروة صعلوكا بالمعنى الثانى ، يلمع فى وجهه ضياء الأمل والنشاط ،
ويترفع عن المعيشة الدنيئة ، ويهابه أعداؤه ، ويُغير عليهم فيستغنى منهم ، ويفرق
ماله على من حوله ، ويعيش فقيراً نبيلًا .

وحول هذه المعانى كلها كان شعره كله ، فهو يسعى للمجد وحسن الذكر
فإما مات فى سبيله وإما ناله :

ذرينى ونفسى أمَّ حسانِ إنتى	بها قبل ألا أملك البيع مُشْتَرى
أحاديثَ تَبَقَى والفتى غير خالدٍ	إذا هو أمسى هامةً فوق صَيَّر ^(٢)
ذرينى أطوَّفَ فى البلاد لعلنى	أخْلِيكَ أو أغنيك عن سوء مُحَضَّر
فإن فاز سهمٌ للغبية لم أكن	جزوعاً وهل عن ذاك من متأخَّر ؟
وإن فاز سهمٌ كَفَّكم عن مقاعدٍ	لكم خَلْفَ أدبار البيوت ومنظر

كان عروة اشتراكياً عملياً ، لا اشتراكياً نظرياً فحسب ، يذكرنا بتولستوى
على بُعد ما بينهما فى البداوة والحضارة ، والأمية والثقافة ، والزمن بين القرن
السادس والتاسع عشر ؛ ولكن الروح النبيلة فيهما واحدة . فقد حمل « عروة »
عبء الفقراء فى قبيلته ، وآلى ألا يستريح حياته أو يجدوا كفايتهم ، وألف
منهم فرقة تعمل معه وتسعى سعيه ، وما نالوا فهو للجميع ، ونفسه لا تهتدأ من
الشعور بهذا العبء :

ومن يك مثلى ذا عيال ومُقْتَرّاً من المال يَطْرَح نفسه كل مَطْرَح

(١) فربما أى فربما حمد أمره .

(٢) يريد أن الفتى يموت فتخرج منه هامة تلو كل نشر كعقيدتهم فى الجاهلية .
والصبر : القبر .

ليبلغ عذراً أو يُصيبَ رَغِيبةً ومُبْلِغُ نفسٍ عَذْرَها مثلُ مُنْجِحٍ
وليس عياله هم أولاده كما نفهم نحن اليوم ، ولكن مَنْ يعولهم من أهله
وفقراء قومه ، كما تدل عليه سيرته .

وقد جمع « عروة » فقراء قومه حوله ، وبني لهم حظيرة يقيمون فيها ، وهو
يغزو بأشدائهم أعداءه وأعداءهم ، فما جمع وجمعوا فرّقه عليهم ؛ وسأوى بين
نفسه وبينهم ، وسماهم اسماً إن كان قبيحاً اليوم فلم يكن قبيحاً في عهده ، سماهم
« أصحاب الكنيف » ، و « الكنيف » الحظيرة تقام من الشجر فتقى من فيها
الريح والتراب والبرد .

وكان له في الهجمات والغزوات رأى لطيف ، وهو تقصّى حال من ينوى
غزوهم ، فإن كانوا كرماء سمحاء تركهم ولم يُغِرْ عليهم ، وإن كانوا أشحاء بخلاء
أدنياء ، تعمد غزوهم ، وسلبهم ما في أيديهم ؛ وأعطاه لأصحاب الحظيرة .

يُخبرنا الرواة عن حادثة طريفة حدثت له ، فقد كان « عروة » حياته في
جهد متواصل من الغزو والقتال ، وهذه هي أهم وسيلة من وسائل العيش في ذلك
العهد ، وكان إذا أصاب إبلاً أطعم أصحاب الحظيرة منها ، وقسمها عليهم قسمة
عادلة ، وأخذ لنفسه نصيباً مثل نصيب أحدهم ؛ فأغار يوماً ونال إبلاً كثيرة ،
وسبى امرأة ، فقسم الإبل بينهم ، وأراد أن يستخلص المرأة لنفسه ، فأبوا عليه
حتى يطبق الاشتراكية تطبيقاً دقيقاً ، وطلبوا إليه أن يقوم المرأة بالإبل ويجعلها
سهماً ، فمن شاء أخذها ومن شاء تركها ، أما أن يستصفيها لنفسه فلا . فغضب
« عروة » أشد الغضب ، وفكر أن يهدم الحظيرة على من فيها ، وينتزع
منهم ما أسدى إليهم ، ويقتل من أبى عليه منهم ، ولكن رجعت إليه نفسه
الخيرة فقال : « إن فعلتُ أفستُ ما صنعتُ » ؛ ثم نزل على حكمهم وترك
المرأة لهم ، وشكا في شعره قومه ونفسيتهم ، يقول فيه إنهم كسائر الناس ،

ضعاف إذا جاعوا ، لئام إذا شبعوا ؛ وإني وإياهم كالأم الرءوم على ولدها الصغير
ترضعه وتحمله ، وتغذيّه وتلبسه ، وترهن له ماء عينيها ، حتى إذا تم شبابه ، وأدرك
خيرهُ تزوج ، فغلبت الزوجة الأمّ على ابنها ، وسلبته قلبه بما تتطيّب له وتنزين
فخارت الأم في أمرها ، إما أن تخسر ابنها إذا تنكرت له ، أو تصبر على الألم من
أن تكون زوجته آثر عنده منها ، فدفعتها الشفقة أن تختار الثانية ، وهذا ما كان
منه مع أصحاب الحظيرة ، فذلك قوله :

ألا إن أصحاب الكنيف وجدّهم كما الناس لما أخصّبوا وتموّلوا
وإني لمـدفوع إلىّ ولاؤهم بماؤان إذ نمشى وإذ تتملّل^(١)

فإني وإياكم كذى الأمّ أرهنتُ له ماء عينيها تفدّي وتحمل
فلما ترجّت نفعه وشـبابه أتت دونها أخرى جديدٌ تكحلّ
فباتت لحدّ الرفقَيْن كليهما توحّوحُ مما نابها وتولّول^(٢)
تخيّر من أمرَيْن ليسا بعبطة هو الشكّلُ إلا أنها قد تجمّل^(٣)

أكبر ميزة لعروة أنه كان رجلاً ، وكان يشعر بالناس أكثر مما يشعر
بنفسه ، واخترع لذلك المعنى التعبير الفنيّ الجميل « أقسم جسمي في جسوم
كثيرة » ، أي أقسم ما يلزم لجسمي من طعام في أجسام الناس ، ثم هو لا يعبأ
بهزله إذا سمن قومه ، ولا يعبأ بالأعباء يحملها لتخفيفها عن عشيرته ، وقد لخص
هذه النظرات في وصف نفسه بقوله :

(١) ماوان : واد في شرق المدينة . أدركتهم وهم هُزل من شدة الجهد ، لا يقدرّون
على المشي ، فأخرجتهم وقت بأمرهم حتى إذا قووا وأخصّبوا وجدّتهم كسائر الناس يكفرون النعمة .
(٢) باتت الأم لحد الرفقين ، أي متكئة عليهما من الهم والتفكير .
(٣) يقول تفكر في خسارته أو مجاملته ، وتخيّر ما تريد أن تصنع ، ثم يقول هو ولدي
ولا غنى لي عنه .

إني امرؤ عافٍ إنائي شركة^(١) وأنت امرؤ عافٍ إنائك واحد^(٢)
 أتَهْزَأُ مِنِّي أَنْ سَمَنْتَ وَقَدْ تَرَى بِجَسْمِي مَسَّ الْحَقِّ وَالْحَقُّ جَاهِدُ^(٣)
 أَقْسَمُ جَسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَّاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدُ^(٤)
 لعل هذه المعاني النبيلة وأكثر منها هي التي جعلت معاوية يتمنى أن
 يصاهره ، وعبد الملك يتمنى عمروة أن يكون أباه ؛ وهذا سمو في تفكير معاوية
 وعبد الملك عظيم ، وتقدير لمعاني النبيل كبير .

(١) عافٍ إنائي شركة : أى طالب المعروف منى خلق كثير .
 (٢) والحق جاهد : أى يجهد الناس . والحق الذى يعنيه صلة الرحم ومساعدة الضعفاء .
 (٣) يقول أقسم جسمى على الناس ، وأكثفى بالماء الخالص غير المزوج بالبن فى الشتاء
 حيث الجسم أحوج إلى الغذاء .

في الطريق

مررت أمس في الشارع فرأيت «عسكريّ المرور» يرفع يده أويصفر ،
فيقف كل من في جانب ، ويتحرك كل من في جانب ، ولا من يجرو على
مخالفته ، كأن في يده عصا سحرية ترغم على الطاعة .

الحوذيّون يطيعون ، وسائقو السيارات بما يحملون من بكوات وباشاوات
وآنسات وسيدات يطيعون ، والمارة على أرجلهم يطيعون ، فما كل هذه العظمة ؟
ليت هذا السحر في لسان المعلم ، يأمر وينهى تلاميذه فيطيعون ، فإني
أرثي لحالم يأمرهم فيعصّون ، وينهون فيعصّون ، وهم وتلاميذهم في نزاع دائم ،
وحرب مستمرة ، ويذهب المعلم آخر النهار كأنه ضرب مائة سوط من كثرة
الحاكمة والمخاصمة .

وليت هذا السحر كان للمصلحين ، فقد بَحَّ صوتهم ولم يُسمع نداؤهم ،
فطالبوا قالوا للأغنياء تبرعوا للفقراء فلم يتبرعوا ، وللكسالى جِدُّوا فلم يجِدُّوا ،
وللحكام اعدلوا فلم يعدلوا ، وذهبت أقوالهم في الصحف والمجلات والكتب
والخطب أدراج الرياح ، ولو منحت أقلامهم وألسنتهم قوة «عسكريّ المرور»
لصلحت الأمور في لحظة ، وتقدمت الأمة ألف خطوة في لحظة .

وليت هذا السحر كان للآباء والأمهات في البيوت ، فإننا نجد الأسرة ناراً
متقدة ، ونزاعاً حامياً ، يأمر الأب فيعصى الابن ، وتنهى الأم فتخالف البنت ،
فلو كانت لهم سلطة في البيت كسلطة «عسكريّ المرور» لشمّت البيت السعادة
ولفّته الطائنة والهدوء .

وليت للحكومة هذا السحر تصدر أوامرها فلا يُتلاعب فيها ، وتصدر

التعليقات في التموين وغير التموين فلا يُتَحَايَل في العبث بها ، كما لا يستطيع أن يتلاعب المارة بأوامر « عسكريّ المرور » .

الحق أن هذا السحر حَيَّرَنِي في تعليقه !

(١١) الشخصية «عسكريّ المرور»؟ كلا ! فمنهم ضعاف الشخصية ، ويسمع لقولهم كأقوياء الشخصية سواء بسواء ، حتى لو استعصت عن هذا العسكري بقطعة زجاج ملونة حمراء وخضراء وراءها مصباح عادي لكان لها هذا السحر .

(١٢) أم لأن وراء العسكري قوة القانون ؟ وهذا أيضاً غير صحيح ، فقوة القانون وراء كل الأوامر التي تصدرها الحكومة ، ومع ذلك تخالف سرا وجهرأ ، ويُتَحَايَل على الهرب من أوامرها ونواهيها حيلة لا تحصى .

(١٣) قلت ربما كان السبب أن تنفيذه تحت سمع الجمهور وبصره ، فمخالفته مخالفة صريحة وراءها العقوبة الحتمية السريعة وهي ازدراء الجمهور للمخالف ؛ ثم وجدت أيضاً أن هذا لا يكفي ، فالجمهور بحمد الله ليس له من القوة ما يخيف ، وليس له من الغيرة على تنفيذ القوانين ما يُخْجَل من مخالفتها .

(١٤) وقلت : لعل السبب تعرض المخالف للخطر ! ولكن رأيت هذا الأمر يطاع حتى في ساعة قلة الازدحام وعدم احتمال الخطر .

وأخيراً حرت في بيان السبب فتركته للقراء .

انتقل ذهني بعد ذلك — بحكم تداعي المعاني — إلى مسألة متصلة بها ،

وهي هل الأوامر والنواهي تختلف قوة وضعفاً ؟ ولماذا واللغة واحدة والفعل فعل أمر ، ولا لا الناهية ، والنحويون لم يفرقوا بين أمر وأمر ، ونهى ونهى ، ففعل الأمر مبني دائماً ، وفعل النهي مجزوم أبداً ؟ ومع هذا نرى دنيا الواقع تخالف دنيا النحو .

فهناك أمر عسكريّ المرور ، وهو في القمة من الحتم والجزم وقوة التنفيذ .

وهناك أمر الطبيب ونهيه للمريض بأن يأكل كذا ويمتنع عن كذا ، وهى أوامر ونواه قوية ، ولكنها لا تبلغ قوة الأول ، فكثيراً ما يهزأ بها المريض ولا يعيرها اهتماماً ، ومع ذلك فلها قوتها على قدر رغبة المريض فى الصحة وإيمانه بالطبيب .

وهناك أوامر الواعظين فى المساجد والمجتمعات العامة ، وما أضيّعها ! وهناك أوامر المعلمين لتلاميذهم بأن يلتفتوا إلى الدرس ، ويؤدوا الواجبات فى منازلهم فى حينها ، وهى أوامر حالها كحال أوامر الوعّاظ .

وهناك أوامر « العسكرية » حين يتجاوز المرور إلى البائعين والبائعات ، وحينئذ يفقد سلطانه ، وتصبح أوامره أضيّع من أوامر المعلمين .

وهناك أوامر التسعيرة فى تحديد أثمان السكر والورق ، وما إلى السكر والورق ، وقد حار أولو فى كيفية تنفيذها .

وإذا كانت الأوامر تختلف هذا الاختلاف ، فواجب علم النحو الحديث أن يقسم فعل الأمر إلى أقسام متعددة ، ففعل أمر بوليسى ، وفعل أمر تعليمى ، وفعل أمر تموينى الخ ، لأن لكل عصر نحوه وتصريفه .

وانتقلت بعد ذلك من فعل الأمر فى علم النحو إلى فعل الأمر فى علم النفس ، فعلم يأمر فيطاع ، ومعلم يأمر فيُعصى ، والأمران متشابهان ، والتلاميذ واحدة حتى قد يكونون فى فصل واحد ، وواعظ يأمر فيُبكي ، وآخر يأمر فيُستهزأ به ، وقد يكون كلامهما دائراً على معنى واحد ؛ وأب يأمر فيطاع ، وأب يأمر فيعصى . وخرجت من ذلك إلى أن فعل الأمر وحده لا يكفى فى التنفيذ ، وإنما يحمل على التنفيذ أمران متمزجان أتم الامتزاج ، فعل الأمر ونفسية الأمر ، فإذا كانت نفسية الأمر نفسية قوية وَجَدَتْ السامع تتخاذل نفسه أمام

الأمر ، وأحس أنه أمام قوة كهربائية هائلة ، فاضطر إلى تنفيذ فعل الأمر رغم أنفه ؛ وإذا كان فعل الأمر صادراً من نفسية ضعيفة ، أو عز هذا الضعف إلى السامع العصيان أو الاستخفاف — ذلك أن النفس الإنسانية مولعة بحب الأمر ، لأنه مظهر السلطة ؛ حتى الأطفال في ألعابهم يسرهم أن يمثلوا في بيوتهم مع الخدم أو نحوهم موقف المعلم أو الأب في أمره ونهيه ؛ والنفس الإنسانية أيضاً مولعة بالعصيان ، لأنه إذا كان الأمر والنهى مظهر السلطة والشخصية ، فالطاعة والامتثال مظهر ضياع الشخصية ؛ لذلك كانت النفس أميل إلى العصيان ما لم تشعر بقوة الأمر وسلطان الناهى . وفعل الأمر والنهى فى ذاته لا قيمة له ، فهو لفظ سيال ، ينتهى بمجرد النطق ، وإنما الأثر الحقيقى أثر النفس ، فهى التى تضيق على المأمور الخناق حتى تلزمه التنفيذ .

وشىء آخر ، وهو أن المأمورين والمنهيين عندهم حاسة عجيبة يدركون بها تمام الإدراك حال الأمر والناهى من صدق أو تهريج ، ومن حرارة قلب أو برودة نفس ، ومن إخلاص أو نفاق ، فإن شعروا بالصدق والحرارة والإخلاص خضعوا ، لأن ذلك كله قوة ملزمة ، وإن شعروا بالتهريج والنفاق تنمّروا ، لأن ذلك ضعف يتستر بالقوة ، فإذا نفذوا وراء الستار أدركوا حقيقة الضعف .

ثم انتبهت من تفكيرى ، فإذا أنا قد جاوزت عسكرى المرور بمراحل ، وضللت قصدى من غير وعى ، فقلت : كم يحنى فعل الأمر !

خطرات في اللغة

(١) لاحظت أن اللغة تؤدي معانيها في دقة وإحكام في مواد العلوم : كالرياضة ، والطبيعة ، والكيمياء ، ومصطلحاتها مضبوطة قل أن يعثر عليها غموض أو إبهام . وقريب من ذلك التاريخ ، فاللغة قادرة على أداء معانيه وحمل رسالته أداء حسناً ، وإن لم تبلغ في ذلك مبلغ العلم ؛ فإذا نحن جاوزنا ذلك إلى الفلسفة والأدب رأينا اللغة مسكينة عاجزة عن أداء المعاني في وضوح وضبط وإحكام ، حتى المصطلحات ، من الصعب تعريفها وضبطها ، فما أصعب أن تعرف « الوجود » ، و « الحقيقة » ، و « ما وراء الطبيعة » ، وما إلى ذلك ، وما أصعب ما تعرف « الشعر » و « الأدب » و « الخيال » ونحوها ؛ وكذلك في فروع الفلسفة والأدب ، فمن الصعب تعريف « الجمال والجميل » ، و « الفضيلة والريضة » ، و « الزمان والمكان » ، و « العدل والحرية » ؛ ومن العسير تعريف « القصة والرواية والمثل » ؛ وما أكثر ما يقع الناس في الجدل والحجج ، لأن كلاً يتكلم وفي ذهنه معنى للشيء غير ما عند الآخر ، ولو اتفقوا على التحديد لاتفقوا على النتائج ! ولا أنسى حادثة رويت لي ، وهو أنه — منذ سنين — أرادت حكومة العراق التعاقد مع الحكومة المصرية بالمراسلة والخطابات ، فكان الاتفاق مستحيلاً لأن كلتا الحكومتين كان لهما معنى خاص في مصطلحاتها لا تفهمه الأخرى ، ولم يتم الاتفاق حتى تمت المشافهة والاتفاق على معاني المصطلحات . وسمعت محاضرة لفاضل عمراق في التربية ، فثار جدل حول الموضوع تبين أن سببه الاختلاف في المصطلحات ، فهم يطلقون اسم « المدارس الداخلية » على غير ما نطلق ، ويسمون « الفصل » ما نسميه نحن بالسنة ، ويسمون الترفيعات

ما نسميه نحن بالترقيات ، ويسمون « مدارس الحضانة » ما نسميه نحن برياض الأطفال ؛ وهكذا .

(٢) من أسباب وقوع الناس في الخطأ اللغوي عدم دقتهم في الاستنتاج ؛ فهناك عقول تستنتج من الجملة أكثر مما يلزم ، وهناك عقول تستنتج منها أقل مما يلزم ، وكلاهما خطأ — إذا قلتُ : إن « الغول مرعب » فاستنتجت منه أنى أقول : إن الغول موجود ، فقد أخطأت ، واستنتجت أكثر مما يلزم ؛ لأن الخيال قد يرعب ، والوهم قد يرعب ، ولو لم يكن الشيء موجوداً . وإذا حدثتك عن فرس بأنه أشهب ، فاستنتجت أنى أقول إنه موجود ، كان استنتاجك صحيحاً . ومن الناس من لا يفرق بين القضيتين — وليس الأمر مقصوراً على الجمل ، بل دلالة الألفاظ على المعانى تختلف جد الاختلاف بين الأشخاص بحسب مدنياتهم وثقافتهم وعقليتهم ، فإذا قلت : « كرسى » لم يكن معناه عند الفلاح القروى كعناه عند المدنى المتحضّر ، وكذلك الشأن فى كلمة « بيت » ، و « دولاب » ، و « سرير » ؛ وإذا قلت : « علم الحساب » ففهومها عند الصانع المتعلم تعليماً بسيطاً ليس كالمعنى الذى يفهمه العالم بالرياضيات ، وهكذا . وهذا ما يجعل الناس إذا اختلفت مدنياتهم وعقليتهم وثقافتهم لا يتفاهمون تفاهماً صحيحاً . ومن أسباب ذلك عدم دلالة الألفاظ على معان واحدة فى الرؤوس المختلفة ، ولا تصدق أن معاجم اللغة تستطيع أن تشرح دلالة الألفاظ شرحاً تاماً صحيحاً ، فكل كلمة هالة غير معناها الأصلى يعجز المعجم عن شرحها ؛ فدنيا الأطفال غير دنيا الرجال ، ودنيا الفلاح غير دنيا المتمدن ، ودنيا الجاهل غير دنيا العالم ، وكل يفسر الألفاظ حسب دنياه .

(٣) يتصل بهذا أن كل لفظ من ألفاظ اللغة يوحى بأشياء تختلف باختلاف الأشخاص حسب بيئتهم وتجاربهم فى الحياة وغير ذلك ؛ فكل كلمة أبيض توحى

إلى الفلاح بالبن ، وقد توحى إلى الطفل بالسكر ، وقد توحى إلى سكان البلاد الباردة بالثلج ؛ وكلمة « وزير » توحى إلى الشرقيين بمعان غير ما توحى بها عند الغربيين ؛ وكلمة « العيد » توحى إلى أطفال بمعنى الثياب الجديدة والأراجيح ، وعند أطفال آخرين بالهدايا تهدي إليهم ، وعند الرجال بالزيارات والتهنئات الخ ؛ وكلمة « البرلمان » و « نظام الحكم » توحى بمعان مختلفة في الأفراد المختلفة والأمم المختلفة . وهذا سبب آخر من أسباب الاختلاف بين الناس في الإفهام والفهم ؛ فوحى الألفاظ عند الناس يختلف اختلافا كبيرا .

بل قد يكون اللفظ يوحى بمعنى عند الناس في عصر لارتباطه بحادثة أو نادرة ، فإذا نسيت الحادثة انقطع وحى اللفظ . فمذ حين كانت كلمة « تعديل الأساس » ، و « ردم البرك » ، و « الحكم الصالح » تستثير منا الضحك لإيحائها بمعان خاصة في ظروف خاصة ، فلما زال الإيحاء زال التأثير — أعتقد أنا فقدنا كثيراً من معانى الجاحظ وقطع الأدب الاجتماعى ، لأن بعض ألفاظها وجملها كانت توحى بمعان معروفة ، فلما تقادم الزمن جهلت فبطل سحرها — إن شئت فاقراً رسالة الترييع والتدوير للجاحظ ، وهى تدور حول السخرية من « أحمد ابن عبد الوهاب » تشعر بغموض فى بعض الجمل والإشارات ، وسبب غموضها أنها كانت إشارات إلى أشياء مفهومة فى زمنها ، ثم انقطع وحياها فغمض معناها .

(٤) ما وظيفة اللغة ؟ يخطئ من يظن أن اللغة تؤدى غرضاً واحداً ، وهو نقل المعنى من ذهن إلى ذهن ، فلها أغراض أخرى كثيرة قد يصعب حصرها ، وقد يبعد إدراكها ؛ فمن أعجب أغراضها أنها أحياناً تستعمل لتخدير الأعصاب ، كتعزيمات السحرة مثل ألفاظ « شهورش » ، و « جملجولت » ، ونحو ذلك ؛ فهى لا تؤدى معنى ، ولكن تخدر الأعصاب بغرابتها وتأليف حروفها ، ولذلك لا يصح أن نحاول كثيراً فهم سجع الكهان فهماً تاماً ، فهى لم يقصد منها

الإفهام التام بقدر ما قصد منها التحذير ، والمعاني المحلولة ؛ وأحيانا يقصد بالألفاظ مجرد ما توحىه من نغمات موسيقية لها أثرها النفسى كأثر الموسيقى — ولذلك لم تكن تخلو الأدعية الدينية — إذا تليت فى المعابد بلغة أجنبية — من أثر قد يكون بالغا ، لأن الألفاظ توحى بمعان سحرية موسيقية ، وإن لم تفهم معانيها الأصلية ، وهذه لغة الإنسان الأول كانت صيحات متشابهة اللفظ ، ولكنها أحيانا تدل على الخوف ، وأحيانا على الغضب ، وأحيانا على طلب النجدة ، وأحيانا على التحذير من خطر ، وإنما تختلف دلالتها باختلاف موسيقاها ، وكذلك كان الشعر فى أول أمره ، غامض المعنى ، دالا بالموسيقى — فليس نقل المعنى من ذهن إلى ذهن هو الغرض الوحيد ، إلا فى الكتب التعليمية فى العلوم ، والحوادث المحلية فى الجرائد ، وجدول الضرب ، وقانون اللوغاريتم ، ونحو ذلك ، مما ليس فيه اتصال ما بين عواطف المؤلف وعواطف القارىء .

(٥) لغة أساليب مختلفة فى أداء المعنى الواحد ؛ فهناك دلالة تصريحية ، وهناك دلالة تضمينية ، فإذا أراد أحد أن يقترض منك ، فقلت له : « لا أقرضك » فهذه دلالة تصريحية ، وإذا قلت له : « ليس عندى نقود » أو « إني مدين » أو « قد كنت فكرت أن أطلب منك ما تطلب منى » ، فهذه كلها تدل على عدم الإقراض بطريق التضمن — واللغة ترتقى من طريق الدلالة التضمنية أكثر مما ترتقى من طريق الدلالة التصريحية ، وكلما ارتقى ذوق الفرد أو الأمة شعر أن ما يناسبه هو التلميح لا التصريح . والدلالة التضمنية لا الدلالة التصريحية — وهذا من أهم الفروق بين لغة العلم ولغة الأدب ؛ فلهذا العلم أقرب ما تكون إلى الدلالة التصريحية ، ولغة الأدب تسودها الدلالة التضمنية — لغة المعادلات الجبرية وشرح النظريات الهندسية ، وقوانين الطبيعة والكيمياء لغة تصريحية ، ولغة الشعر لغة تضمينية ؛ والمجازات

والاستعارات والتشبيهات والكنايات كلها دلالات تضمينية .
وقد دل البحث النفسى ، على أن استمالة النفس من طريق الدلالات التضمينية أقوى وأفعل من طريق الدلالة التصريحية ، ولذلك كانت الدلالة التضمينية لغة الخطباء والأدباء والشعراء والوعاظ ورجال السياسة ورجال الدين ؛ فالقِصَص ذات المغزى ، والعبرة بأخبار الأولين ، والأساطير الرمزية كأساطير اليونان ، وتحريك الوطنية بالشواهد والأمثال ، وتحميس الأمة للمشروعات الاقتصادية والاجتماعية ، ونداء المصلحين ، كل هذه تعتمد على الدلالة التضمينية أكثر مما تعتمد على الدلالة التصريحية لهذا السبب النفسى ، وهو أن النفس أكثر استمالة من هذا الطريق . والسبب فى هذا على ما يظهر أن الأوامر والنواهي العريانة تُشعر المأمور والمنهى بالضعفة ، ولذلك كان أقصى أنواع الزجر الأمر الصريح ، « كاش ، واخرج ، واذهب » ، مصحوبة بالنعمة التى تدل على تعالى الأمر ؛ أما فى الدلالة التضمينية فقد سمح المتكلم للمخاطب باستعمال عقله فى الاستنتاج وفهم الأمر من طريق خفى ، فإذا هو استنتج الأمر فكأنما هو الأمر لنفسه ، وهو إذا أمر نفسه لم تكن هناك غضاضة عليه ، وهذا يوضح لنا ما للعلاقة القوية بين اللغة والتفكير والخيال والإرادة .

(١) في الهواء الطلق

٤

كانت الرحلة هذه المرة إلى رجل كبير قد طوى مراحل الشباب والكهولة ،
وصحب الأيام الخالية ؛ تقوَّس ظهره واعوجت قناته من طول ما حمل من أعباء
العيش ؛ خَبَرَ الحياةَ حلوها ومرها . وعرف حياة الفلاح في حقله ، والموظف في
مناصبه المختلفة ؛ ومكنته ظروفه أن يخالط الأعيان ويدرس أحوالهم ، والطبقة
الأرستقراطية ويعرف تقاليدها ، وقوانينها وتزماتها ، ورجال السياسة واتجاهاتهم
وأساليب تفكيرهم وتهريجهم ، وشاهد معامع خلافاتهم ، وانغمس في تيارهم ،
ثم نفّض يده من كل شؤونهم ؛ وفي طول حياته يجارى الحركة الفكرية
والأدبية والفلسفية في الشرق والغرب ، ويتذوقها ، وينقدّها ، ويدلى بآرائه فيها .
زرتّه في ضاحية من ضواحي القاهرة ضحى ، والجو بارد ، والشمس جميلة
تبعث بدقّتها فتعشّش النفس ، وترد الحياة .

تبادلنا التحية ، وتكلّمنا في الجو والبرد ، والسياسة والحرب ؛ ثم قال :
هل لك في مشية خفيفة في هذه الشمس اللطيفة ؟ فقلت : أنعم بها وأكرم ،
وسحب عصاه .

وبعد قليل كنا في الهواء الطلق ، والجو النقي ، والسماء الصافية ، والشمس
الساطعة ؛ وتنقلنا في الحديث إلى أن وصلنا إلى العجب من اختلاف الناس في
آرائهم ، وتعدد اتجاهاتهم في تفكيرهم ، وكيف يُلعب بالحق ويخفى وجه
الصواب ؛ فحرّكتُ من الشيخ كامن شجنه ، وعميق فكره ، فقال :

إن الخلاف في الرأي يرجع — في نظري — إلى أسباب كثيرة ؛ وهو موضوع لطيف ، قرأت فيه بعض كتب إفرنجية ، وجربت فيه تجارب شخصية ، ولا يزال يعلق شيء منها بذهني الذي أدركته الشيخوخة ، ولعلها قوَّسته كما قوست ظهري ، وشيئته كما شيت رأسي ، فأصبح يرى الأمور كما يراها الناظر خلال منظاره ، ومع ذلك فمن الذي يستطيع أن ينظر إلى العالم مجرداً من منظار ؟ إن كل إنسان ينظر إليه من خلال منظاره الأحمر أو الأصفر أو الأسود أو الأبيض ؛ وللشباب منظاره ، وللشيخ منظاره ، وكل إنسان ينظر إلى العالم من خلاله ، وتحول بينه وبين إدراك الحقيقة شهواته أحياناً ، وكل شيء ما يراه الحق . وقد استفدت من مطالعاتي في المنطق أن أحدد موضوعي وأحصر كلامي في نقطة حتى أستوفيها ، سواء في ذلك إذا أردت أن أفهم أو أردت أن أتحدث ، ورأيت ذلك أجدي وأنفع ؛ وأكره ما أكره تشئت الذهن في الفهم ، وتشقق الحديث في القول — ففي موضوع كهذا نرى أن أسباب الخلاف بين الناس كثيرة ، بعضها يرجع إلى اللغة ، وبعضها يرجع إلى درجة الثقافة ، وبعضها يرجع إلى اختلاف الأغراض والشهوات ، وبعضها يرجع إلى اختلاف الأمزجة ، ونحو ذلك . فأحب إذا تحدثت أن أتحدث في نقطة حتى أستوفيها ، ثم أعطف على غيرها ، ولا أحب أن أتكلم كلمة من هنا وكلمة من هناك ؛ فاختر ما تحب أن نبدأ به .

قلت : فلنبدأ من آخرها ، فذلك أشهى إلى .
قال : وهو أيضاً أحب إلى .

وكنت ألاحظ أنه يرقب السماء والشمس ، وأخيراً أدركت أنه يخشى أن تحول بينه وبين الشمس سحابة تذهب بدقتها وتعرضه للبرد والزكام ، فإذا رأى سحابة ، قدَّر البعد بينها وبين الشمس وحسب حساب الزمن الذي تقطعها فيه .

فقلت في نفسي : يا الله من الكبر ؛ وما أقسى الوقوف على ساحل الحياة !
ثم اطأنا إذ ودع آخر سحابة تسير من الغرب إلى الشرق ، واستمر في
حديثه فقال :

هب أن عقل الناس كلهم وتفكيرهم المنطقي واحد ، فإنهم في أمزجتهم
مختلفون ، والفكر الإنساني لا يتكون ولا يظهر في الخارج — بالحديث
أو الكتابة — إلا ممزوجاً بالمزاج ، ويكاد كل إنسان يكون له مزاجه الخاص
به . ويتبع ذلك أن يكون لكل إنسان تفكيره الذي يظهر في قوله أو فعله
أو كتابته ، ولكن — لأجل التقريب فقط — قسم الأستاذ « وليم جيمس »
المزاج الإنساني إلى قسمين هامين ، ويكاد كل إنسان يكون من أحد هذين
القسمين : « غليظ العقل » و « رقيق العقل » ، كما نقول : غليظ القلب ،
ورقيق القلب ؛ ولكل منهما مظاهر ، فغليظ العقل — عادة — واقعي يؤمن بما
يعتمد على التجربة والاختبار والحواس فقط ، مادي ، متشائم ، ملحد ، متعصب
شره ، شكاك .

وعلى العكس من ذلك أخوه « رقيق العقل » مثالي ، متفائل ، متدين ،
حر الفكر ، قانع ، مطمئن إلى عقائده .
وقد يتلون الناس ألواناً مختلفة ، ولكن إذا حللت ألوانهم رأيتها ترجع في
النهاية إلى هذين اللونين .

ولهذا ترى أن الناس — فيما يختارون من المذاهب الدينية والفلسفية ، بل
والسياسية ، وما ينظرون إليه فيما يعرض عليهم من المسائل اليومية ، ونظراتهم
إلى الله وإلى الحياة ، وعواطفهم وميولهم وأخلاقهم — متأثرون بما فطروا عليه من
أحد هذين المزاجين أكثر من تأثرهم بفكرهم المنطقي المجرد .
من أجل هذا كان الوجود كله معروضاً أمام الناس كلهم على السواء ، ولكن

كل يقرؤه بعينه الخاصة ، ويشعر به بشعوره الخاص ، وكل ينجذب إلى أشياء لا ينجذب إليها الآخر ، ولا سبب لهذا إلا عقله الغليظ أو الرقيق ، ومزاجه الطبيعي المفطور عليه .

هذا الشاعر الذي لا يرى في الحقل إلا جماله ، لا يرى فيه المالى إلا غلته ؛ وهذه جماعة تنظر كلها إلى امرأة واحدة ؛ ينظر أحدهم إلى جمالها الظاهر من جسمها فيهم بها ، وينظر الآخر إلى سوء حديثها وقبح معانيها فينفر منها ، ويقومها الثالث حسب ثروتها وما ينتظر أن تناله من ميراث أبويها فيحبها أو يكرهها ، حسب علمه بجمالها ، ولا يقومها الرابع إلا بمقدار صلاحيتها لأن تكون ربة بيت ، ومربية نسل ، والمرأة المرأة ، وإنما اختلف النظر باختلاف المزاج ؛ وقديماً قالوا : « كل يُفَنِّى على ليله » .

أرأيت الأكل أصنافاً وألواناً ، يُستورد كل يوم لحديقة الحيوان ، من حشائش وبقول ولحوم ، ثم يأكل كل صنف من الطيور والحيوان ما يتفق وطبيعته ؟ !

أو رأيت الأسواق العامة للمأكل والملبس والمشرب ؟ يأتى إليها الناس فيتخيرون ما يشترون ، كل حسب مزاجه ، ويعجب كل كيف اختار غيره غير ما اختاره ؛ كذلك الشأن فى الآراء السياسية والدينية والاجتماعية والأخلاقية ، إنما يقع عليها الشخص منجذباً بمزاجه لا بمنطقه ، ثم من غفلته يظن أنه حر الإدارة حر الاختيار .

وهنا تعب الشيخ ، فاقترح العودة ، ثم قال :
هذا سياسى من الصنف الغليظ العقل ، قد اتخذ السياسة مغنياً ، يختار المذهب الذى يرى أنه يدر الربح عليه أكثر ، ويتخذ السياسة مصعداً يصعد عليه فى ماله وجهه ونفوذه ، وليست السياسة عنده إلا كسب المال أو انتهاز

كسبه ؛ وهذا سياسى آخر من الصنف الرقيق العقل ، مثالى يرى السياسة مفرما ، وهى ليست إلا وسيلة إلى إصلاح قومه قدر جهده ، فهو يضحى لذلك من ماله وزمنه خدمة لمبدئه . وليس الفرق بين الاثنين إلا الفرق بين المزاجين . وتجد هذين النوعين فى الأمم المختلفة راقيا ومنحطها قد يختلفون فى العرض ، ولكنهم يتحدون فى الجوهر .

وكذلك الشأن فى الدين .

وكنا قد وصلنا فى عودتنا إلى حديقة جميلة فى أطراف الضاحية ، فوجدنا مقعداً خشبياً قفعدنا ، فإذا نظرنا عن قرب فالحشائش الخضراء الجميلة ، والفخيل التى تبهر بقوامها اللطيف وغصونها المتهدلة ، وإذا مددنا الطرف فالصحراء وما لا نهاية — وبدأ الشيخ يشكو التعب وكبر السن فخرّ كته ليم حديثه ، فسأل : إلى أين وصلنا ؟ فقلت : الدين .

قال : نعم إن الدين كذلك تابع المزاج ، فهما حارب العلم الدين ، ومهما دعا الملاحدة إلى الإلحاد ؛ ومهما قاوموا العقيدة ، فالناس فى كل عصر قسمان : قسم لا يريد أن يؤمن إلا بالحواس وقواعد المنطق الجافة ، وقسم يدعو قلبه إلى الإيمان . وهؤلاء حجج وهؤلاء حجج . ولا تظن أن العقل هو الذى يعمل وحده فى تأليف الحجج ، بل إن المزاج هو الذى يوحى إلى العقل بها وبتكوينها وتشكيلها . والتصوّف والزهد ليس إلا مزاجا ؛ ومهما حاولت أن تجعل من الملحد صوفياً فلن تستطيع ، لأن تغيير المزاج فى حكم المستحيل . فذو المزاج الذى سميناه « رقيقاً » ينظر إلى العالم فىرى فيه أشياء لا تفهم ولا تشرح ، فيهم بها ، ولا يستطيع أن ينكرها ، فيوليها احترامه وتقديسه ، على حين أن الغليظ المزاج يتخذ من غموضها وعدم فهمها وسيلة لجحدها ، ويحترم كل الاحترام حواسه ومنطقه ، فينكر ما وراءها ، ويصيح إن الله ، والخلود ، والحياة الأخرى ،

والوحي ، وما إلى ذلك لا أحسبها ولا أهتدى إليها بالمنطق الصرف ، فأنا أنكرها احتراماً لحواشي ومنطقي . ويجادله الأول : ما حواسك وما منطقك ؟ إنك كلما وثقت بها زدت عمى ، وهى ليست إلا وسائل لإدراك التافه من الأمور ، وخدمة الشهوات ، ومن الحق والمنطق الرخيص أن تغمض العين عما لم تدركه حواسك وقواعد منطقك ، وتحل مشاكله بإنكارك السهل ، فيكون مثلك مثل من عجز عن حل مسألة حسابية أو تمارين هندسية ، فأنكر وجودها بدل أن يحاول حلها بأساليب جديدة غير التى جربها — وهكذا ، وهكذا ، يطول النزاع والجدل ، والمسألة فى الواقع مسألة مزاج .

وسئل الشيخ سعدة شديدة ، احمرّ منها وجهه ودمعت عينه ، فرثيت لحاله ؛ ولكن عز على انقطاع حديثه ، فتكلمت كلاماً خفيفاً فى غير الموضوع ، حتى عادت إليه نفسه ، واستراح نفسه ، ثم حركته من جديد ، فقلت : ولكن إذا كانت مسألة الدين مسألة مزاج ، فكيف تفسر من كفر بعد إيمان ، أو آمن بعد كفر ؟ أتغير مزاجه ، وقد فهمت من قولك استحالة تغييره ؟ فسكت قليلاً ثم قال :

إن أخذت بالظواهر فاعتراضك صحيح ، ولكن إن دقت النظر فغير صحيح . إني أعتقد — مثلاً — أن الذين لبوا دعوة النبى فى أول الأمر كانوا من ذوى المزاج الرقيق الذى ينزع إلى الدين ، وكانوا يتدينون فى جاهليتهم ، فلما جاء الإسلام سهّل عليهم التحول من دين غير صحيح إلى دين صحيح ، والنزعة الدينية واحدة ؛ وهناك بعد قوم أسلموا رغبة فى مغنم ، أو خوفاً من سيف ، أو نحو ذلك ؛ وأنا لا أنظر فى قولى إلى الأشكال ، وإنما أنظر إلى القلوب ، ويعجبني الحديث : « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام » ، والحديث : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » .

إن الذين يؤمنون إيماناً تجارياً خارجون من حسابي ، وكذلك الذين يكفرون كفراً تجارياً .

وقد قرأت عن بعض العلماء المحدثين أنهم شغلوا بالعلم وتعمقوا فيه واستسلموا له ، وغرهم تياره فكفروا بالدين ، ولكن مع هذا كله ظل أمر الدين ساكناً في أعماق قلوبهم ؛ ووصف بعضهم أحد هؤلاء فقال : « إنه قد كفر عقله وآمن قلبه » ، وذلك لأن مزاجه من النوع الرقيق الذي يؤمن رغم أنفه .

والآن أظنك توافقي على أن كل إنسان ينسج من عقله وقلبه وعواطفه ومزاجه خيوطاً خاصة به ؛ يؤلف منها مقدماته ونتائجها ، ثم يعتقد أنها الحق ، وأنها وحدها الحق ، وأنها منطق صرف ، وأنها عقل بحت ؛ وكذلك يفعل الآخر حسب عقله ومزاجه ، فيكون الخلاف ؛ وكلما كانت هذه الخيوط أكثر اختلافاً في النوع ، كان المتجادلان أشد خلافاً في الرأي .

وإن ما ترى — الآن — حتى من الاختلاف في النزعات السياسية من نازية وشيوعية وديمقراطية يمكن إرجاعه إلى ما ذكرت من اختلاف في المزاج ، وأعني اختلاف القادة والمؤسسين لهذه المذاهب ، لا العامة والأتباع .

لقد هممت أن أمطره بوابل من الأسئلة : ما قيمة التربية الأخلاقية والدينية والسياسية — إذن — على مذهبك ؟ كيف يؤسس الإصلاح إذا صحت نظريتك ؟ كيف تقرب التفاهم بين المفكرين إذا اختلفت خيوط نسيجهم ؟ ونحو ذلك من الأسئلة ، ولكنه بدأ يسعل ثانية ، فأشفقت عليه وسأيرته إلى منزله ، وتحدثنا ولكن في الصحة والمرض ، والأدوية ومنافعها ، لا في العقل والمزاج . وودعته بعد أن رجوت له الصحة ، وتواعدنا أن يتم لي رأيه في باقي أسباب الخلاف .

في الهواء غير الطلق

دق جرس « التليفون » صباحاً :

— آلو.....

— صباح الخير...

— أمدعو أنت لحفلة عرس فلان ؟

— نعم .

— وستذهب ؟

— نعم .

— إذن مرّ على في الساعة الثامنة مساء لنذهب معا .

— مع السرون .

ووضعت السماعة ، وكان الذي يتكلم أستاذنا الفيلسوف الذي حدثتك عنه ، فأحسست شعوراً مزدوجاً ، سروراً بآلم ، ورضاً بغضب .
لقد كنت أوّل ليلة خفيفة ، فيها أكل شهى ، ومنظر بهى ، وغناء مطرب ،
وتنادر فكّه ، وراحة من كتب ، وفرار من درس ؛ فإذا كل هذا الأمل يخيب
من هذا الحديث القصير ، فقد توقعت درساً في الفلسفة ، ومحاضرة في الحكمة ،
وإن كنت أجهل موضوع الدرس ومدار البحث . فصاحبنا مهما تحدث
لا يتحدث إلا فلسفة ، وإذا تلقف موضوعاً — مهما كان — فهو يعمق فيه إلى
ما تحت الطبيعة ، أو يعلوفيه إلى ما فوق المادة ، وهو قادر على أن يفلسف كل
شئ ، حتى أبعد المسائل عن الفلسفة ، ولكنه في حديثه خفيف الروح ، حلو
النفس ، جيد المحاضرة ، حسن التفنن ؛ وهذا ما خفف على بلواى ، ثم له على

حق الأستاذية ، والأبوة العقلية والروحية ، فوطنت نفسى أن أضحي بلدة عيني
وسمعى للذة عقلى ، وقدّرت أنى سأنتقل من مكتبة إلى مكتبة ، وسأكون فى فصل
من مدرسة ، وإِن كان المظهر حفلة عرس ومجال أنس ، وذهبت معه وأمرى
إلى الله .

حضارة أم فى دار ، ليلها نهار ، معرضُ فنان ، وجمال ألوان ، وغيد حسان ،
وروائح الجنان ، وموسيقى تصدح بأعذب الألحان ، ووجوه فرحة ، ونفوس
مرحة ، وفى كل ركن وكل حجرة منظرٌ خلّاب ، من مرح الشباب .
وإذا أنا وشيخى فى هذا الحفل اللجب كأننا نشاز فى نغم ، أو تعويذة فى
سلك درر .

قال شيخى : ما أنصفنا إذ أتينا ، ولو علمت ما جئت ، فأنا إذا وجدْتُ هذه
المنابر فقدت نفسى ، ومع هذا فهبنا فى رواية تمثّل على مسرح نلهو بمنظرها
ولا نشترك فى تمثيلها .

وانتحنينا ناحية ، واسترحت واستراح الشيخ من المقابلات والتحيات
والخفاوات ، وعادت إليه شهوته للكلام ورغبته فى التفلسف ، فقال :

— أنظر : كل هذا بعض ما تفعله الغريزة الجنسية ، إليها يرجع الفضل فى
إعجابنا بالألوان البراقة ، والأشكال الجذابة ، والأصوات الجميلة ، بل إليها يرجع
فى نظرى كل فنٍّ جميل . فالحفر والتصوير والموسيقى والشعر والنثر الفنى وأوزان
الشعر وأنواع البديع ما كانت تكون لولا الغريزة الجنسية ، وكل ما فى اللغة
والأدب من وصف الجمال والقبح ، والغزل والنسيب ، والمهجر والوصال ، ولذة
الحب وألمه ، مردّه إليها ، بل وإليها يرجع عالم البيت وعلاقاته وشئونه من زوجية
وأبوة وبنوة ، وكل ما يتصل بذلك من ملاذ وآلام ، وما تلعب فيه العواطف

من حب و بغض ، ورضا و غضب ، ورحمة و قسوة ، وما شئت من أشكال وألوان .
— راقب الألاعيب المختلفة أمامك من مرح وضحك ، وحركة وسكون ،
وهزج ومرج ، وأناقة في ملبس ، وتأنق في حديث ، وموسيقى جميلة ، سارة
وحزينة ، وحلل كل ذلك إلى عوامله الأولية ، تره الغريزة الجنسية .

— بل اخرج من عالمنا هذا الضيق إلى العالم الفسيح ، ومن هوائنا غير
الطلق إلى الهواء الطلق ، ترغناء الطير : من هديل الحمام ، إلى سجع القُمْرِيّ ،
إلى عَنْدَلَة العنديلِب ، إلى قطقطه القطا ، إلى زقزقة العصفور ، إلى نقنقة الدجاجة ،
إلى نحو ذلك ، إنما تبعث عليه الغريزة الجنسية ؛ وقل مثل هذا في صهيل الفرس ،
وحنين الناقة ، وخوار البقر .

بل خطأ أستاذنا « دارون » ومدرسته أكثر من ذلك ، فزعموا أن جمال
الطيور والحيوان إنما منشؤه الغريزة الجنسية والانتخاب الطبيعي ، فتحجبل الفرس
وبياض غرته ، وزرکشة الطاووس ، ونقش الفراشة ، والنُّكْت البِيض والصفَر
والسود والحر في الطائر والحيوان إنما هي تبرُّجٌ للغريزة الجنسية .

قلت : لم يبق إلا أن يقولوا كذلك في الأزهار وألوانها ، وجمال الورد ،
وزرقة البنفسج ، وبياض الياسمين ، وزرکشة « البنسيه » !

قال : نعم ، كذلك قالوا ، حتى لو عدت الغريزة الجنسية لم يبق من الجمال
في العالم شيء .

قلت : وجمال الطبيعة ؟

قال : لم نكن ندرك لها جمالا لو فقدنا هذه الغريزة — ولم يصنع الإنسان
أكثر من أنه أخذ ما يفعل النبات والحيوان ، فرقاه في شعوره بالجمال ، وفي
شعوره بالواجب ، وفي الحب الزوجي والأبوي ، وفي الغناء ، وفي الرقص ، وفي
الزينة والتزيُّن ؛ وقد فعل في ترقية كل ذلك ما فعله في المأكل والمشرب والملبس

من تعقيد وتجميل ، والأساس في كل ذلك ما عنده وعند كل حي من الغريزة الجنسية .

قلت في نفسي : سبحان ربى ، أفى مثل هذا الجو ثار مثل هذه المشا كل ؟ وأنحى عن هذه الملاحه والوضاءه ، وأحرم من قراءة نسخة الحسن فى الوجوه ، لأقرأ نسخة من أرسطو ، وأنقل من سمع الألمان ، إلى سمع الكيان^(١) . ودعينا إلى سماء فخم ، فيه كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . قلت لشيخى : ما هذا ؟

قال : كأنه كتاب أنيق ، حسن الديباجة ، محكم الوضع ، متناسق التبويب ، متنوع الأساليب ، قد استوعب الأصول ، وأحاط بالفروع . قلت : أرسطو ورب الكعبة .

وصمت الشيخ فلم يتابع حديثه ، وكأنه ضن بالفلسفة أن يسمعها غير أهلها ، أو يُقال فى غير محلها ، فحمدت الله إذ استرحت من غذاء الفكرة بغذاء المعدة . وحدث ما شئت عن جمال وظرف ، وأناقة ولباقة ، وفكاهة حلوة على لقمة حلوة ، وهمسة خافتة ، تتبعها ضحكة عالية ، حتى اتبهينا من أكلنا هنيئاً مريئاً ، وعدنا إلى مجلسنا فى ركننا ، وبالتكلم رغبة فى أن يتكلم أكثر مما للسامع أن يسمع ، ثم قال : إلى أين وصلنا ؟

قلت : إلى أن كل فن فى الإنسان ، وكل غناء للطيور والحيوان ، وكل برقشة للنبات ، سببها الغريزة الجنسية .

قال : نعم ، وقد فكرت طويلاً فى هذه الغريزة ، وما القصد منها ، فتبين لى أن الطبيعة منحتها بقصد « استمرار الحياة » ، وقد كانت الطبيعة سخية ، فمنحت منها أكثر من الحاجة إليها ، فرصدت « للاحتياطى » منها أكثر مما يلزم ، ومنحت الإنسان أكثر مما يقتضيه بقاء النوع واستمرار الحياة ، فصرف جانباً

(١) سمع الكيان : اسم كتاب فى الفلسفة اليونانية نقل إلى العربية .

منه في هذا الغرض الأساسى ، وفاض ما عنده فصرفه في اللعب بالعواطف وممارسة الفن ، وأنفق جزءاً منه في تربية البنين والبنات ليكمل غرضه في « استمرار الحياة » ، ويجعله استمرار حياة تأخذ في الرقى والتقدم ؛ ولما كان الحب عند الإنسان أكثر من الحيوان كانت تربيته لنوعه أرقى وأنفع ، فاستطاع أن يرقى ملكاته ، ويربى مواهبه على مدى الزمان ، حتى لتشعر بالفرق الكبير بين الإنسان الحاضر والإنسان الماضى ، ولا تشعر بفرق كبير بين القط الحاضر والقط الماضى ، وبذلك امتاز الإنسان بأن ليس الغاية من غريزته الجنسية حفظ نوعه واستمرار حياته فقط ، بل غايته أيضاً ترقية النوع إلى أن يصل إلى درجة الإنسان الكامل — وكل القوانين التى شرعت للزواج والطلاق وحقوق الأسرة ، وعقوبة الزنا وما إليه ، إنما كان الغرض منها حماية هذه الغريزة حتى تؤدي غرضها على الوجه الأكمل ، واختلاف هذه الشرائع رقيقاً وانحطاطاً اختلاف في التوفيق في فهم الغرض الأساسى ووسائله ، أو عدم التوفيق — وقد وجد في الطبيعة من فسدت منه هذه الغريزة الجنسية كما يوجد من فسدت غرائزه الأخرى ، فهناك المعتدل في شهوة الأكل ، ولكن بجانبه النهم ومن لا يشتهى الطعام ، كذلك هذا ؛ فمن الناس أبو العلاء ، وأبونواس ، وصريع الغوانى . والإغراء في هذا الباب أقوى ، والحيل فيه أوسع ، لهذا التفت التجار إلى أن يستغلوا هذه الغريزة ويستهووها بشتى الوسائل حتى السينما والتمثيل والصحف والمجلات ، والتفت المشرعون لصد هذا التيار ، ووقف الغريزة عند حدها المشروع ، فكان صراع أين منه الصراع على المأكل والمشرب والملبس .

وبينا هذه الناحية من الغريزة الجنسية تشغل رجال الدين والأخلاق والاجتماع ، إذا بناحية أخرى منها تشغل بعض علماء النفس ، فقد لفت نظرهم تعدد أنواع النساء والرجال ، ولعب الغريزة الجنسية بهم ألعاباً مختلفة ، لماذا يجب

هذا الرجل هذه المرأة دون تلك ؟ إن في مجال هذه الألعاب مناظر نفسية مختلفة : هذه امرأة تثير في الرجل خياله ومشاعره وأحلامه ، تجذبه وتضطره أن يتحمل في سبيلها الآلام ، ويتخطى العقبات ، ولها سر مجهول يجعل حبه لا يفنى ولا ينقص مهما تغيرت الظروف .

وهناك امرأة أقل منها شأنًا تثير هذا الحب والجاذبية ، ولكن في إمكان الرجل أن يتغلب عليه بسلطان عقله ، لأن ما تثيره من حب هادئ غير عنيف . وهناك امرأة تثير في الرجل إعجابه لا من طريق شخصيتها ، بل من طريق ملابسها ، كذكاؤها وذوقها ، فالرجل ينظر إليها نظرتة إلى الصديق الموائم ، والأخ المنسجم .

وهناك امرأة تلهب شعلة كشعلة القش ما تشتعل حتى تحمد ، وإذا خمدت فالكرهية والاستئثار والنفور ، إلى غير ذلك من أشكال وألوان .

وشأن الرجال في نظر النساء شأن النساء في نظر الرجال ؛ بل قد تكون امرأة في نظر رجل من الصنف الأول ، وفي نظر آخر من الصنف الرابع وهكذا ، ولذلك يخرج من عشرة رجال وعشر نساء أشكال عدة وعلاقات مختلفة — هل درست التوافق والتبادل في الحساب ؟

قلت : نعم .

قال : هو هذا . ولبعض علماء النفس في ذلك بحوث تستخرج العجب ، سأقص عليك طرفًا منها في فرصة أخرى ، وأزيد الآن على ما قلته أن كثيراً من أسباب السعادة الزوجية أو الشقاء يرجع إلى هذا السر الخفي .

وبدأ الناس في الانصراف فانصرفنا ، وركبنا عربتنا ، وفي الطريق ظلّ يتدفق : — أرايت كيف أن الطبيعة وضعت فينا هذه الغريزة ، وسخت في منحها ، فلعبت بنا هذه الألاعيب في الفن والغزل ، وفي الحياة ومتاعبها ؟ ! لقد أخفت عن الإنسان سرها ، وحجبت عنه فهمها ، وسخرته في خدمتها ، وهو يظن أنه حر

طليق يلعب ألعبيه باختياره وإرادته ، مع أنه عبد لغريزته ! لقد ضحكت منه الطبيعة وهو — من غفلته — يعتقد أنه هو الذى يضحك منها !

قلت : أما وقد كشفت لعبتها . فهل ترى رأى أبى العلاء :

تواصلَ حبلُ النسلِ ما بين آدمٍ وبنى ولم يُوصَلْ بلامحى بآء

تثاءبَ عمرو إذ تثاءب خالد بعدوى فما أعدتني الثؤباء ؟

قال : لا ، فرأى أبى العلاء قلب للوضع ، وتحريف للجنس ، والإنسان الكامل ليس من يحارب طبيعته ، بل من يرقبها . وأرقى أنواع الحب — كحب الوجود ، وحب الله — لم ينشأ إلا مما أفاضته علينا الطبيعة من حب الجنس . لقد كان أبو العلاء وأمثاله يرون أن الغريزة الجنسية عائق عن تحرر النفس ، وأنها مانع من موانع رقبها وسموها ، وأن كمال الإنسان فى التخلص منها وإماتها بكتبها ، وأنها فى الإنسان ضرورة محزنة ، وعلى هذا الأساس تأسست نزعة الرهبانية ، ونظم الأديرة ، وخلوات الصوفية ، ولكنى أرى غير هذا رأى . نعم إن الغريزة الجنسية كم حطمت من أفراد ، بل كم حطمت من أمم ، وجعلت حياتهم ليست إلا حياة بهيمية مزوّقة ، وجعلتهم يسخرّون كل ملكاتهم الأخرى — من ذكاء وعاطفة وقدرة — لخدمة هذه الغريزة ، ولكنى أرى أن من الممكن أن يتسامى الإنسان من طريق وجودها لا من طريق إعدامها ، ومن الممكن تحويلها من مصدر شر للإنسان إلى مصدر خير ، وخير الإنسان أن يُمنح نعمة الحب فيعدها ويلطفها ، ويستخدم ما ينبعث عنها من عواطف لخير نفسه وخير إنسانيته ، من أن يحرم الحب ، ولو عاش بعقله .

ومسألة أخرى عظيمة الأهمية فى هذا الموضوع وهى أن الإنسان . . .

وهنا وقفت العربية أمام بيت الأستاذ ، فودعته وانصرفت ، ونظرت ، فإذا أنا قد عدت من حفلة العرس بخفى حنين ، ومن الفلسفة بملء اليدين ، أخماس أنا أم راج ؟

لماذا نعيش ؟

فى ركن من أركان « كازينو » رأس البر ، جلستُ وحدى ومعى كتابى ،
على أسام فأقرأ . ورأس البر لم تزدحم بعد بالمصيفين ، فينعم فيها مثلى بعيش
هادى واستجمام مريح . جلستُ أحلق فى البحر بعد غيبة عنه طويلة ، فإنى لم أره
منذ شهور ، مع حبى له وشوقى إليه . وكرهت أن أفتح الكتاب فالبحر نفسه
كتاب مفتوح ، وهو كتابٌ حى وما فى يدي كتابٌ ميت ؛ وهو يوحى بأفكار
مبتكرة وكتابى يوحى بأفكار تقليدية .

هذا هو البحر الذى لا تنفى عجائبه ولا العجب منه ؛ لم تنل الأيام من جماله
ولا جلاله ، كأنما خرج من حكم الزمان وعزَّ على أفاعيله ؛ وقفتُ على شواطئه
الأجيال ، ثم طواهم الدهر جيلا بعد جيل ولم يستطع أن يمسه هو بسوء ؛ فى شباب
دائم ونشاط دائم ، لم يلحقه يوما عجز المشيب ولا وهن الكبر ؛ ولا يزال راحة
المكدود ، ومتعة النفس ، وسلوة العاشق ، وحيرة العالم ، وأنس الفيلسوف ، وبسمة
الفوانى ، ودمعة المتصوف .

شيئان أشعر معهما — دائماً — بضعة الإنسان وحقارته ، ويملاانى بالعجب
من قلة عقله فى نزاعه وحيله ومراوغته ، وذله واستعلائه ، وشغله الدائم بما
لا طائل تحته : مطالعة السماء ونجومها بالليل ، ومطالعة البحر وأمواجه
وعظمته بالنهار .

ما الإنسان الوضيع أمام هذا البحر الجليل ، وما دنياه كلها بما يعتورها من
همٍّ وقلق ، وغمٍّ ونكد ، ونزاع وخصام ، وما شئت من أشكال وألوان إلا
كموجة واحدة من أمواج هذا البحر تجرى لمستقر لها ، فاذا وصلت إلى الشاطئ

تلاشت کأن لم تكن ، وظل البحر فى جماله وجلاله لم ينقصه شىء .

قطع على غزالى فى البحر صوت جدل يقرب منى شيئاً فشيئاً حتى يكون
بجانبي .

رجلان كهلان مثقفان كما يظهر من حديثهما ، سلما وإن لم أعرفهما ، لأن
المصيفين إذا قلوا عدوا أنفسهم جميعاً أسرة واحدة . وجلسا على مائدة بجوارى
على البحر يتمان حوارهما .

لم أفهم بادى الأمر كلامهما ، لأننى لم أعرف « عالم الحديث » كما يعبر
الإفرنج ، ثم بدأت أفهم ، فقد انتقلا إلى موضوع جديد ، إذ سأل أحدهما الآخر :
(١) — أستطيع أن تخبرنى بحق لماذا أنت عائش ؟

سؤال بهرنى ، ولو سألته ما عرفت له جوابا .

(ب) — أصدّقك أنى عائش لأسرتى ، فلهم أسعى وأكد ، ومن أجلهم
أتحمل عناء الوظيفة وملق الرؤساء ومخالفة الضمير ، وعناء « الدرجة » ؛ أصيّف
تبعاً لهم ، وأشتى تبعاً لهم ، وأحب ما يحبون وأكره ما يكرهون ؛ وأجتهّد أن
أرقيهم إلى أقصى ما أستطيع جسماً وعقلاً وخلقا ، وبذلك كانت أسرتى محور
أغراضى وأساس اتجاهاى ، وشاغلة ذهنى ، ومالئة فكرى .

(١) — إنك بهذا لم تخرج عن أن تكون « أنانيا » من شكل آخر ، كالذى
يعيش لنفسه ، ويجعل غرضه شخصه ، فأنت تجعل غرضك أسرتك لنفسك ،
تُعنى بها لأنها ملك لك ، كما تعنى بيتك الذى تملكه ومزرعتك التى تستغلها ؛
فأنت تربي أطفالك لأنك فى أعماق نفسك ترى أن تربيته لهم دين عليهم فى
مستقبل حياتهم ، يوم يأخذ الكبير منك مأخذه ، فتحتاج إلى معوتهم مادياً
أو معنوياً ، ويحملون عبئك بعد ما حملت عبئهم .

(ب) - ما أظن هذا صحيحاً ، فليست هذه أنانية مطلقاً ، فأنا أرقى الأمة عن طريق ترقيتي أسرتي ؛ أليست الأمة مجموعة من الأسر ، فإذا غنى كل رب أسرة عنايتي كان لنا من ذلك أمة راقية في أبنائها وبناتها وحياتها الاجتماعية والاقتصادية ؟ ! وأمل في تربيته أن أجعل أبنائي خيراً مني ، وبناتي خيراً من أمهن ، بل أمل أكثر من هذا أن أجعل من أبنائي قادة في بعض نواحي الحياة الاجتماعية ؛ وماذا تفعل الأمة الراقية أكثر مما أفعل ، فهي ترقى أسرتها لترقى أمتها ، فإن عددت هذا أنانية فهي أنانية راقية جداً تتحد بالغيرية .

(١) - إن كان كذلك فلم تعنى بأولادك ولا تعنى بأولاد غيرك ، وقد يكون فيهم من هم أنجب من أولادك ، وأحسن استعداداً ، وأقوى خلقاً ، وأكثر قابلية لأن يكونوا قادة ؟ أليس هذا برهان الأنانية ؟ !

(ب) - غريب هذا ، أتريد أن تجردني من أنايتي ، ولو جردت منها ما كنت « أنا » « أنا » ، وليس هناك مذهب من مذاهب الأخلاق يريد أن يمحوا الأنانية بتاتا ، وكل ما يدعو إليه أرقاها أن يؤلف بينها وبين الغيرية ؛ فلو عنيت بأبناء غيري وأهملت أبنائي لما كانت هناك حرارة البواغث الغريزية التي تدعونا بطبعها للعناية بأبنائنا ، فلوربى غيري أبنائي وربيته أبناء غيري لنفس الجميع .

(١) - ولكن هب كل هذا صحيحاً ، أيصح أن تكون عنايتك بأسرتك كل غرضك في الحياة ؟ إن تركيز فحك كله في أسرتك يحرملك من الاستمتاع بأفق أوسع ومثل أعلى ، إن هذا التركيز ضار بأسرتك نفسها ، فكثرة العناية بها والإفراط في الشعور بالمسئولية عنها يعود الأسرة كلها رمية حملها عليك : فلا الأم تشاركك في حمل العبء ، ولا الأبناء يتعودون الشعور بالمسئولية ، لأنهم يجدون كل شيء محمولا عليك ، فينشأون مدللين غير صالحين لأنفسهم

ولا للحياة — ألا تعرف فلانا وأسرته ؟ كان يوقظ أولاده في الصباح ويشرف على إفطارهم ، ويرعاهم إذا لبسوا ، ويرسلهم مع الخدم إلى المدارس ، وإذا تأخر في عمله تحدث في « التليفون » عن عودتهم وصحتهم ، وإذا ارتفعت حرارة أحدهم ربح درجة دعا له أمهر الأطباء ، ودعته الشفقة أن يجيب لهم كل مطلب ، وإذا وجد أحد أبنائه ضعيفاً في مادة أتى له بالمدرسين الخاصين ، وحمل كل عبء عن كل ولد ، وحرّم نفسه من كل لذة ليمتعهم بكل لذة ، فإذا كانت النتيجة ؟ خرجوا مائعين لا يصلحون للحياة ، ناعمين لا يتحملون خشونة الحياة ، فقد بذلك نفسه ، وفقد أولاده ، وفقدتهم الأمة جميعاً — إن تركيز كل همّ الإنسان في الأسرة ضار بها كضرر التخلي عنها وعدم الشعور بمسئوليّتها . إن الأسرة تصلح أن تكون غرضاً من أغراض الحياة لا كل غرض ، وليست إجابتك — فيما أرى — تصلح لأن تكون إجابة عن سؤالى : لماذا أنت عائش ؟

(ب) — جاءنا مرة في امتحان الشهادة الابتدائية في اللغة العربية بيت ظريف وهو :

إنّ على سائلنا أن نسأله والعبد لا تعرفه أو تحمله

فقل لى أنت — إذن — لماذا أنت عائش ؟

(١) — لقد شغل هذا السؤال تفكيرى طويلا ، وقلبت الأمر على وجوهه ، وأجبت كل إجابة وناقشتها ؛ فقلت أولا — أعيش لنفسى ، فوجدتنى إذ ذاك كأخس حيوان ، ووجدتنى أعيش فى أضيق أفق ؛ ثم قلت : أعيش لأسرتى ، فكان من الاعتراض عليه ما رأيت ، ثم بحثت أن أعيش لوطنى ولدينى ، وأخيراً وطنت نفسى أن أجعل أملى أن أكون مصدراً للخير العام حيث كان ، فأكون كالشمس تلقى أشعتها على كل كائن ، فقير أو غنى ، مؤمن أو كافر ، مواطن أو غير مواطن . رأيت الباعث على العمل إن كان شخصياً — فى أى شكل من

أشكاله - يبعث على التفرق والخصومة ، ورأيت الباعث إن كان عالمياً عاماً التهم الخصومة وبعث على السلام - لقد حاولت أن أركز هذا الباعث في نفسى فنجحت أحياناً وفشلت أحياناً ، ولكنى دائماً أحلل أسباب الفشل وأحاول أن أتقياها ، وقد رأيتنى بذلك أتحرر شيئاً فشيئاً من الحقد والبغض ، والحسد والطمع ، ونحو ذلك ، مما يتعب الناس بلا فائدة ؛ بل رأيتنى عندما كنت أحياناً للباعث الشخصى كنت أخاف الموت خوفاً شديداً ، وأتألم أشد الألم للكوارث المالية أو النفسية ، فلما سموت بباعثى خف خوفاً من الموت ومن الكوارث ، وأحسست التحرر من هذه الآلام إلى حد بعيد ، وشعرت بجمود العاطفة نحو المسائل الشخصية ، وحرارتها نحو المسائل العامة - لقد أصبح يهمنى أولاد جارى ، ويهمنى الفلاحون فى مزرعتى ، لا لأنهم فى مزرعتى ، ولكن لأنهم هم الذين أستطيع نفعهم ؛ بل إنى لآلم من بؤس الفلاحين عامة ، وأود أن أستطيع نفعهم ، ولو كان بيدى ميزانية الدولة لجعلت ثلاثة أرباعها للقرى وربيعها للمدن ؛ ويسرنى نجاة مصر من كوارث الحرب بقدر ما يؤلنى كوارث الحرب لأى أمة ؛ وأحب أن يكون لى مال لأنفع به الناس ، وجاه لأستغله فى خيرهم ، وشهرة لأستخدمها فى منافعهم ؛ فإذا لم يكن من ذلك شىء فعلت ما أستطيع على قدر ما فى يدي .

(ب) - ولكن ألا ترى معى أن سعة الباعث تضعف من قوته ؟ فمثلك - إذاً - مثل من رمى زنبيل سكر فى النيل ، فلا هو احتفظ بسكره ولا هو أحلى النيل ! إنك إذا ركزت همتك فى أسرتك ، وفعل جارك مثل فعلك ، كان لنا من ذلك أسر راقية ؛ ولكن إن كلفت عشرة آباء العناية بعشر أسر من غير تخصيص ، لم تصل هذه الأسر العشر من الرقى إلى الحالة التى يعنى فيها كل عائل بأسرته وحدها .

(١) — مثلك صحيح ، ولكن علته غير صحيحة ، فحال الأسر هو كما ذكرت ، ولكن لا لسبب كمية الحب ، وضيق الباعث ؛ إن السبب في صحة مثلك هو أن حياة الأسر أساسها الخصوصية ، ولهذا كان لا بد أن تختص بيت ، وتعيش عيشة فيها معنى الستر ، ومعنى الملكية ، ومعنى الاستقلال ، فإذا انساحت عشر أسر تحت إشراف عشرة أرباب زالت كل هذه المعاني ، ولم تعد الأسرة أسرة . أما الحب وقدرة الإنسان عليه فليس كمية محدودة بحدود الأشياء المادية — هو ليس مثل كمية من السكر ، ولا كمية من المال ، لا تتسع إلا لشيء محدود — وازن بين أم لها ولدان وأم لها عشرة أولاد ، أظن أن الأم ذات العشرة تحب ابنها خمس حب ذات الاثنين فقط ؟ هذا ليس بصحيح . إن قلب الإنسان مصدر العجائب ، فهو إذا رُبي على الحب الواسع وسع كل شيء ؛ إنه إذا رُوح عليه اشتعل وأضاء ضوءاً قوياً تزول معه كل ظلمة . إنها التريبة الضيقة هي التي تمد حبنا في شخصنا أو أسرتنا أو بيتنا . فإذا هدمت هذه وحل محلها تربية واسعة الأفق أحببنا حباً لا حدود له . وإنك لتعجب إذ ترى الإنسان مع هذا الحب الواسع لم يفقد شيئاً من حبه الجزئى ، فهو يحب شخصه ، ويحب أسرته ، ويحب أمته ، ويحب دينه ؛ ولكن حبه الواسع يلوّن كل حب جزئى بلون خاص لطيف يتفق وسعة أفقه ، وامتداد نظره ، وفيضان حبه .

ونظر «ب» في ساعته ، وشكا برودة الجو ، ولم أدرأ كان هذا فراراً من أن يُغلب في الحوار ، أم صدقا في الشعور بالبرودة .
وسلماً وودعاً ، وقد استمتعت منهما بحديث طريف .
وودعت البحر حامداً له وحيه وضيئه .

التعاون الثقافي العربي

أمام الأمم العربية الآن مشا كل ثقافية معقدة ، قد لا يواجه مثلها غيرهم من الأمم ، فالأمم الغربية تواجه مشا كل ولكن ليست من جنس مشا كلنا ، وإن كانت تتصل بها . لقد حددت مسلكها في التعليم وأوضحت غايتها إلى حد ما ، ولكنها في طريقها المرسوم تجد بعض المشا كل : كالرغبة في تعميم التعليم غير الأولى ، ونشر الثقافة ، وتعديل المناهج وإصلاح بعض الخطط .

أما الأمم العربية فمشا كلها أعقد من ذلك ، لأنها إلى الآن لم ترسم خططها واضحة ، ولم تضع للتربية تعريفاً يتفق وأغراضها وآمالها ، ولذلك مزقت أساليب التربية المختلفة وحدتها ، هذا تعليم ديني بحت ، وهذا تعليم مدني بحت ، وهذا تعليم لخدمة فرنسا ، وهذا تعليم لخدمة إنجلترا ، وهذا تعليم لخدمة أمريكا ، وهذا تعليم لخدمة التبشير ونحو ذلك . وكل هذا لا يقيد بقيود قومية ، مما ليس له نظير في أية أمة حية ترعى مصالحها ولا تسمح بتمزيق وحدتها ، ونشأ عن ذلك اختلاف النزعات الأساسية بين الأمة العربية الواحدة ، فكيف بالأمم العربية مجتمعة ؛ كما نشأ عنه أيضاً اختلاف المنطق واختلاف التفكير ، هذا في منتهى الرجعية ، وهذا في منتهى الحرية ، وهذا في منتهى العصبية الدينية ، وهذا في منتهى العصبية اللادينية ، وهذا في منتهى العصبية لأمة أوربية ، وهذا في منتهى العصبية ضد كل نزعة أوربية ، حتى لسكأننا في برج بابل .

قد تجد شيئاً من هذه النزعات المختلفة في الأمم الأوربية ، ولكنك لا تجد هذه الحدة وهذا التناقض كما تجده في الأمم العربية بل في الأمة الواحدة العربية ؛ ويشبه الخلاف بيننا وبينهم الخلاف بيننا في الملابس والخلاف بينهم ،

فكلهم يلبسون على نمط أساسى واحد ، وإن اختلفوا فى قيمة ما يلبسون
لأى شكل ما يلبسون ، أما نحن فنختلف فى الأساس وفى الأشكال اختلافا
لا حد له .

إذن ، نحن فى أشد الحاجة إلى الإجابة عن هذين السؤالين :

(١) كيف نوحّد أسس التعليم ولا نسمح بهذه النزعات المتباينة الضارة ،
ولا نجيز الاختلاف إلا فى العرّض لا فى الجوهر ؟

(٢) ما تعريف التربية الذى يجب أن ينشده العرب ، ما الجملة التى تركز
فيها كل أغراض الأمم العربية فى التربية والتى يجعلها رجال التربية نُصب أعينهم
لا ينحرفون عنها يَمَنّة ولا يسرة ؟

هذه إحدى المشاكل التى تواجه العرب .

والمشكلة الثانية — أن العرب يختلفون عن الغرب فى شىء جوهرى ، وهو
أن الأمم الأوروبية والأمريكية حددت نوع مدنيّتها وثقافتها : عمدت إلى الثقافة
اليونانية والرومانية وغيرهما فغرّبلتها ، واتخذت خيرها ، وامتصت عصارتها ، وبنّت
عليها حضارتها وثقافتها ، وخلصت من ذلك كله ، ورسمت لمدنيّتها منهجاً تسير
عليه فى كل شأن من شئون الحياة ومنها الثقافة .

أما العرب فلم يوقفوا آخر ، هم بين ثروة قديمة من الثقافة العربية ، فيها
الخير والشر ، والغث والسمين ، وحبّات الدر وحبّات الحصى ، وثقافة غربية فيها
الضار والنافع كذلك ولا غنى لنا عنها ، تحكّمت بطبيعتها وكيميائها وما تنتج من
آلات وصناعات ، فإن كان على الأوربيين عبء واحد ، فعلى الأمم العربية عبئان
ماذا نأخذ من تراثنا القديم وماذا ندع ؟ ماذا نأخذ من الغرب وماذا ندع ؟
إن لنا ديناً ولنا لغة ولنا أدباً لا بد أن نستمدّه من وحي آبائنا ؛ وإن للغرب علوماً

وفنوننا وصناعات لا بد أن نستمد منها لنجاري الزمن .

كيف نوفق بين المدينتين ، ونمزج بين الحضارتين ، ونكون لنا شخصية ممتازة لا هي كل الشرق القديم ولا هي كل الغرب الحديث ؟ كيف ننق قديمنا ونأخذ زبدته ونفرغ منه ، وكيف نحدد ما ينفعنا من الجديد ونرسم خريطته ، وننتهي من ذلك ، ولا يكون علينا إلا ملء الخانات الفارغة منه ؟

ثم مشكلة ثالثة :

قد خلقت لنا المدنية الحديثة علومًا لا عهد لنا بها ، وفي هذه العلوم مصطلحات فرعية لا تحصى ، في الطبيعة والكيمياء والفلك والاجتماع والنفس والعمارة والصيدلة ، وخلقت لنا ألفاً وألوف الأدوات والصناعات والعقاقير ومركباتها ونحو ذلك ، ولا غنى للعرب عن استعمالها ، فكيف تتفق على تعريبها وتوحيد مصطلحاتها ، والاتفاق على الألفاظ الصالحة لها ، فليس يليق أن تنفرد كل أمة عربية بوضع مصطلحاتها ما دامت اللغة العربية ملكاً لجميع الأمم العربية وقدراً مشتركاً للتفاهم بينهم ؟ ما وسائل التعريب ؟ ما قواعد التعريب ؟ كيف ينظم التعريب ؟ كيف يبذل الجهد للفراغ من كل المصطلحات الأوربية حتى نقف مع الأوربيين على قدم المساواة ، وننتهي من الماضي ، ولا نواجه في الحاضر إلا ما اخترع حديثاً واكتشف حديثاً .

ثم مشكلة رابعة :

لكل أمة من الأمم الحية دائرة معارفها ، بل دوائر معارفها ، تكتب بلغتها وتسائر العلم في مراحلها ، ويعاد طبعها بين حين وآخر ؛ ويزاد في الطبعة الجديدة ما وصل إليه العلم الحديث بين الطبعتين ؛ وكل أمة تعنى في دائرة معارفها بنوعين : القدر المشترك بين جميع الأمم ، والعناية الخاصة بموضوعاتها الخاصة من جغرافيتها وتاريخها وأعلامها ؛ هذا ما عملته إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها .

فماذا فعلت الأمم العربية في هذا السبيل ؟ دائرة معارف البستاني لم تكل
وأكل عليها الدهر وشرب ، وتقدم العلم وفاتها حتى أصبحت في عداد التاريخ ،
ثم لم تجد من يكملها ويقدمها مع الزمن ، ويطبعها طبعة جديدة تتفق والنهضة
العربية يكون فيها خير التراث العربي وخير التراث الغربي ؟
مشكلة خامسة :

إذا وحدت الأمم العربية تعريف تربيته ورسمت خطتها في التعليم ، فلا بد
من الفصل بين مسألتين : قدر أساسى مشترك تتساوى فيه الأمم العربية من
حيث المناهج والخطط والغرض ؛ وقدر خاص غير مشترك تحافظ فيه كل أمة
عربية على شخصيتها ، تتوسع في جغرافية بلادها وتاريخ رجالها ، وتسير كل
أمة في المستوى الذى يناسب استعدادها ومقدرتها المالية .
فما هو هذا القدر المشترك ، وما هو هذا القدر الخاص وكيف يحدّد
وكيف يرسم ؟

هذه فى نظرى أهم المشاكل التى تواجه العرب من الناحية الثقافية ، وهذه
هى الأسئلة التى يجب أن تطرح ويجاب عنها .
فكيف يكون ذلك ؟
لهذا جملة وسائل :

(١) أن يكون هناك مكتب للتعاون الثقافى تختار كل حكومة عربية من
يمثلها فيه ، وهؤلاء يتبادلون الرأى فى هذه المشاكل وأمثالها ، ويضعون الأسس
اللازمة للسير عليها ، وهذا هو ما بدى به فعلا حسبما أعلم ، ولا ينقصه إلا التعميم
واشتراك الأمم العربية كلها فيه ، والنشاط فى عمله .
ولكن هذا وحده — فى نظرى — لا يكفى ؛ فالممثلون الرسميون عادة

يُضطرون إلى تقدير اعتبارات سياسية قد تحدّ من نشاطهم وتلوّن بحوثهم وتفكيرهم ومن أجل هذا ينبغي أن تكون بجانب هذه الهيئة الرسمية هيئة أخرى غير رسمية ، فيؤلفون جمعيات تعاونية تبحث الموضوعات بحثاً حراً طليقاً مجرداً عن الاعتبارات السياسية ، وهذه — فضلاً — عن خدمتها للفكرة تفيد فائدة كبرى الهيئة الرسمية ، وهذه الجمعيات يختار أعضاؤها ممن عرفوا بالإخلاص والجد وعدم الاستهواء السياسي والغيرة على مصلحة الأمم العربية الثقافية ، وتتعاون هذه الجمعيات في غرضها ، وتعمل في وضوح النهار ، ولا يكون لها غرض إلا خدمة الثقافة ومعالجة المشاكل التي أسلفنا الإشارة إليها .

وهذه الجمعيات تعقد مؤتمرات كل سنة على مثال المؤتمر الطبي ، كل سنة في قطر من الأقطار العربية ، سنة في القاهرة ، سنة في دمشق ، سنة في بغداد ، سنة في مكة وهكذا .

ويكون لكل جمعية سكرتيريتها تحدد أغراض الاجتماع وموضوعات البحث ، ويتعاون أولو الخير والبر على إمدادها بالمال اللازم لها ؛ ويكون لهذه الجمعيات مجلات ؛ فمجلة لنشر أعمال المؤتمر وأخباره ، واختيار لجانه الفرعية ومبلغ نشاط الأعضاء واللجان في نواحيها الثقافية المختلفة ؛ ومجلة تكون على نمط « المختار من ريدرز ديجست » تعنى بملخصة خير المقالات التي تنشر في الصحف والمجلات العربية بل والإسلامية من غير العربية ، فمثل هذه المجلة تقرب من أفكار الشرق ، وتؤلف بين ثقافته ، وترقى تفكيره ، وفي هذا خدمة للوحدة العربية الثقافية وهكذا .

ثم بجانب هذا وذالك ضروب أخرى من التعاون الثقافي لا بد منها ، مثال ذلك تبادل كبار الأساتذة والعلماء والأدباء في الأقطار العربية المختلفة ، فأساتذة الشام في مصر والعراق ، وأساتذة العراق في مصر والشام ، وأساتذة مصر

في الشام والعراق ، وهكذا في الإجازات المدرسية ، وفي المسامحات الصيفية ، فهذا يخلق جواً علمياً بديعاً وتعاوناً ثقافياً جليلاً .

ثم انتهز الفرص العلمية والأدبية لذلك ، فمهرجان لذكرى أبي العلاء في الشام تلقى فيه البحوث الأدبية من أساتذة الأقطار العربية ، ومهرجان للإمام الشافعي في مصر تلقى فيه البحوث التشريعية والقانونية ، ومهرجان للخليل بن أحمد في العراق تبحث فيه البحوث اللغوية ، ولعمر بن الخطاب في المدينة ، ولأبي الطيب المتنبي في حلب ، وللامام الأوزاعي في بيروت ، وهكذا لا ينفصُّ مهرجان حتى يعد مهرجان آخر ، وفي هذه المهرجانات تتلاقى الأفكار وتتوالد الآراء ، وسيكون من نتيجة ذلك حتماً التفكير في الإصلاح من جميع نواحيه اللغوي والأدبي والنحوي والتشريعي ونحو ذلك .

إذا تم ذلك كله — وهو ما أرجو أن يكون بعد الحرب مباشرة — فنحن أمام نهضة عربية وثابة ، وإصلاح عربي شامل ، ووضع أسس لبناء العرب في هيكل الثقافة ، وبذلك يساهمون في بناء صرح الثقافة العالمية مع البانين ، ويشيدون مع المشيدين .

والله ولي التوفيق^(١) .

(١) عند إعادة طبع هذا الجزء كان بعض هذه المقترحات قد حقق بواسطة الإدارة

الثقافية للجامعة العربية .

الشيخ رفاعة الطهطاوى

مؤسس النهضة العلمية الحديثة

١

حقا إن « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، هذه ألوف الطلبة فى المدارس ، وهذه ألوف المجاورين فى الأزهر ، من منهم سيكون النابغة العظيم ، والزعيم الكبير ، والمصلح الخطير ؟ لا ندرى ، كلهم يتعلمون ، وأكثرهم يحدّون ، ولكن الحكم بالنبوغ والقيادة والزعامة عسير على المتنبئين . تقيس بمقاييس الامتحان ثم يظهر خلل حكمك ، فقد يكون أول ناجح فى الامتحان أول خائب فى الحياة ؛ وتقيس بمقاييس الذكاء ، فتحكم بأن هذا أذكى من امتحنت ، ثم يحبو هذا الذكاء شيئا فشيئا ، حتى ينعدم أو يكاد ، أو يظل الذكاء حادا ومع ذلك فلا نبوغ ؛ وتحكم بالحمول على طالب ، ثم يتطور فيكون قائدا أو زعيما ، إنما عملنا أن نؤرخ النابغ بعد أن ينبغ ، ونعلل نبوغه بأسرته أو أساتذته أو بيئته أو نحو ذلك من أسباب ؛ ولكن كم من أسرة خير من أسرته لم تنجب ، وكم من أساتذة خير من أساتذته لم يخرجوا مثله ، وكم من بيئة أصلح من بيئته لم تنجح فى إعداد شبيه له ؛ وكم كلها مجموعة لم تُعدّ للحياة نابغة . فى بيتى شجرتا مانجو ؛ أما إحداها فقالوا احفر لها فحفرت ، وأت لها بتربة صالحة فأُتيت ، وطعّمها فطعّمت ، واختر لها الجهة المناسبة فاخترت ؛ وأخرى رميت بذرتها رميا وتركتها للمصادفة تركا ، ولم أعن بها أى عناية ؛ ثم خابت الأولى حيث نجحت الثانية — إنما تنجح القواعد العامة — فى التربية والاقتصاد والزراعة ونحو ذلك — فى جبهة

الأشياء وعاديتها ، أما النوابع فشواذ خرجوا عن القواعد ونذوا عن التعليل .
هذا « رفاة » من أسرة مثلها كثير ، وهو مجاور في الأزهر مثله كثير ،
وتهيأت له من الظروف متهيأ لكثير ، ولكن لم يجر على يد أحد من الخير لأمته
في ناحيته ماجرى على يده ، ما السر في ذلك ؟ علمه عند الله .

من أسرة في « طهطا » تعز بشرف نسبها للرسول ، ويعزها الناس لذلك ،
عُرف كثير من أفرادها بالعلم وتولى القضاء والإفتاء ، وديارهم منازل الحكام ومورد
القصاد ، والحكومة على نظام ذلك العهد تمدهم بالأراضي يستغلونها ولا يملكونها ،
و بالأرانب الكثيرة من القمح كل عام في نظير فتحهم بيوتهم للضيوف وذوى
الحاجة ؛ ولكن هذا العطاء لم يكن — كما نقول اليوم — حقا مكتسبا ، بل
منحة عارضة ، تتبع رغبة الوالى وشهوته ، فهو إذا شاء أطلقها ، وإذا شاء منعها
— وكان من سوء حظ « رفاة » أو من حسن حظه ، لا أدري — أن قبض
الوالى يده عما كان يعطى أهله ، فوقعوا فى الفقر واضطر أبوه أن ينزح من البلد ،
ومعه رفاة صبي صغير . ولكن ما لبث والده أن مات فقيراً ، فعاد الصبي إلى
طهطا ، ونزل فى أخواله ، وشاء الله أن يكون فى هؤلاء الأخوال من يعلمه ويعده
للأزهر ، فحفظ بعض المتون بعد أن حفظ القرآن ودرس شيئاً من الفقه والنحو ،
ثم أرسل إلى الأزهر .

درس فى الأزهر كما يدرس كل مجاور ، وعاش فيه كما يعيش المجاور الفقير ،
يقنع بالجزاية ويأتم أ كثر الأوقات بالقول على اختلاف أنواعه ومشتقاته ،
ولكنه مع هذا يعتز ببيته ونسبه .

شئ واحد ميّزه عن كثير من المجاورين ، هو اتصاله اتصالاً وثيقاً بالشيخ
حسن العطار ، وكان هذا رجلاً ممتازاً واسع النظر ، خبيراً بالدنيا على قلة الخيرين
بها من علماء الأزهر فى ذلك العصر ، ولم يعجبه طريقة الأزهريين فى الاختصار

على كتب النحو والفقه والتفسير والحديث ، فضم إلى ذلك نظره في كتب التاريخ والأدب ، وعنى عناية كبرى بالأدب الأندلسي يدرسه ويحاكيه ، ويأسف على انحطاط الأدب في عصره ، ويصف شعراء زمنه بأنهم « اتخذوا الشعر حرفة محترف ، وسلكوا فيه طريق معتسف ، فصرفوا أكثر أشعارهم في المدح ، لاستجلاب المنح ، حتى مدحوا أرباب الحرف لجمع الدراهم في الأسفاط ، وكان منهم من يصنع القطعة من الشعر في مدح شخص ثم يغيرها في آخر ، وهكذا حتى يمتدح بها كثيراً من الناس ، وهو لا يزيد على أن يغير الاسم والقفية ، وما أشبهه في ذلك إلا بمن يفرق أوراق الكدوية ، بين يدي صفوف المصلين يوم الجمعة في المساجد ، وهكذا كان حال الشاعر ، فلا يكاد أحد يتخذ وليمة ، أو ختانا أو عرساً ، أو يبنى بناء أو يُرزأ بموت محب إلا وبادره بشيء من الشعر ، قانعاً بالشئ النزر » .

أما الشيخ العطار فجريا على رأيه لم يحتفظ بشعره في المديح والمجاء مما قاله اضطراراً ، ورجا ألا يحفظ عنه إلا « مالطف من النسيب ، وعذب من التشبيب مما قد ولغت به أيام الشباب ، حيث غصن الشبية غض ، والزمن من الشوائب محض ، ولأعين الملاح سهام بالفؤاد راشقة ، وتثنى قدود تظل لها عين الأحبة راقمة » .

ذاك وقت قضيت فيه غرامى من شبابى في ستره بالظلام
ثم لما بدا الصباح لعينى من مشيبي ودعته بسلام «
وكان الشيخ حسن العطار قد أداه ظرفه ومعرفته بالدنيا أن اتصل بالفرنسيين حين دخولهم مصر ، ودرس لبعضهم اللغة العربية ، وأداه اختلاطه بهم أن يقف على كثير من معارفهم الواسعة فبهره ذلك منهم ، وتعجب مما « وصلت إليه تلك الأمة من المعارف والعلوم ، وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة »

ويقارن بين ذلك وحالة العلم في الأزهر . ويرثي لحال مصر ويتوقع حصول ثورة علمية فيقول : « لا بد أن تتغير حال بلادنا ويتجدد لها من المعارف ما ليس فيها »
ويزيد « العطار » سعة في عقله رحلته إلى الشام وإلى الآستانة ، وقد أقام بها مدة طويلة وسكن في « اسكودره » وتزوج بها ثم عاد إلى مصر .

هذا هو الشيخ العطار الذي صار فيما بعد شيخ الأزهر ، وهذا هو أستاذ الشيخ رفاعه الذي أثر فيه أثراً غير شائع عند الأزهريين إذ ذاك ، من ميل إلى الأدب وإطلاع على الكتب غير المتداولة ، وكان التلميذ المحبوب عند شيخه العطار في بيته وفي قراءته الخاصة وفي دروسه العامة .

وفي الحق أن الأزهر كان فيه نبع صغير متسلسل فيه التاريخ والأدب ، بجانب ذلك النبع الكبير الذي ليس فيه إلا علوم النحو والصرف والدين فقط ، وكان من هذا النبع الصغير الشيخ الجبرتي المؤرخ الكبير ، وتلميذه العطار ، وتلميذه رفاعه .

ظل رفاعه يتلقى دروسه في الأزهر حتى أتمها وتصدى للتدريس فيه ، ثم عين في منصب صغير هو واعظ للعسكر ، ثم حدثت الحادثة الكبرى التي غيرت مجرى حياته ورسمت طريق نبوغه ، ومكنته من أن يتولى زعامة النهضة ، وهي بعثته إلى باريس .

تولى مصر محمد علي باشا وأراد أن ينهض بمصر في جيشها حتى يساوى جيش تركيا ويفوقه ، ونهوض الجيش يحتاج إلى تعلم الفنون الحربية وإلى الهندسة وإلى الطب وإلى الصناعة ؛ وأراد أن ينهض بالإدارة في تنظيم مالية الدولة وإدارتها وضبط دخلها وخرجها ، ونهوض الإدارة يحتاج إلى رؤوس تضع النظام وأيد متعلمة تنفذه ؛ ونظر فرأى أن كل ناحية من نواحي الإصلاح تحتاج إلى العلم والعلماء والمتعلمين ، وأن ليس في البلاد من ذلك إلا الأزهر وملحقاته ،

فلم يكن إلا الكتاتيب في القرى والبلدان تُحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة على نمط عتيق ، وهذه الكتاتيب تُسلم إلى الأزهر ، وقد يكون في بعض المدن كالإسكندرية وطنطا معاهد هي صورة مصغرة من الأزهر ، والأزهر لا يعلم إلا الدين واللغة العربية على نمط القرون الوسطى ، وليس في البلاد كلها مدرسة تعلم الجغرافيا والتاريخ والرياضة والطب والهندسة والزراعة والطبيعة والكيمياء . . . المهندس هو المعمار الذي يتخرج من ممارسته للبناء ؛ والطبيب هو الذي قرأ شيئاً من تذكرة داود ، ومنهاج الدكان ، ومارس الصناعة مع المجريين ؛ والرياضي هو من حفظ (سورة القدان) ، وتعلم على الصراف أو نحو ذلك . وكل هذه أدوات لا تكفي لبناء نهضة ، فما الحل ؟

هناك حلول ثلاثة : (١) إصلاح الأزهر وهو مركز التعليم والتعلم في البلاد ، وتوسيع اختصاصه ، فتجعل الدراسة الدينية شعبة ، وبجانبها شعبة للرياضيات والطبيعات ، وشعبة للطب ، وشعبة للهندسة الخ . وقد يبدو أن هذا الحل هو الحل الطبيعي ، وفيه بقاء على مركز التعليم وإصلاحه وتوسيعه ، ولكن دون ذلك أهوال ؛ فالرأى العام الأزهرى لا يرضى عن هذا التغيير ، ويعده إفساداً للأزهر ، وإفساداً للدين ؛ والرأى العام الشعبى يتبعه ويؤيده ، فيحدث ذلك ثورة في البلاد لا حاجة إليها ، ثم إن هذا الطريق طويل ، فإذا أُعدَّت العدة لهذا التغيير ، وانتظرت النتيجة ، كان لا بد من مرور سنين ، والإصلاح يتطلب السرعة — آه — ما كان أنفع هذا الوجه لو اتسع صدر الأزهر وعقل الناس !

(٢) والطريقة الثانية أن نترك الأزهر وشأنه ، وننشئ مدارس مدنية من كتاتيب نظامية ومدارس ابتدائية وتجهيزية وخصوصية كالطب والهندسة ، ونقلد فيها المدارس الأوروبية ، ولا يكون لهذه المدارس أية صلة بالأزهر إلا بالمدرسين الذين يؤخذون منه لتعليم الدين واللغة العربية ، ونستعين بالأوروبيين من فرنسيين

وإيطاليين وإنجليز ، نأتى بهم ، ونضع فى يدهم قيادة الحركة العلمية والصناعية ، ونجعلهم يمرّنون المصريين حتى ينهضوا بالعبء . ولكن عيب هذه الطريقة أن كثيراً ممن نستورددهم من هؤلاء الأوربيين قد لا يخلصون فى عملهم ، وقد ينظرون إلى مصلحة أممهم لا مصلحة من يعلمونهم ، وقد يضيفون إلى تعليمهم قيامهم بوظيفة التجسس لأممهم ؛ ثم المصريون المتعلمون على يدهم لن يبلغوا مبلغهم ، فكما طالت السلسلة بعدت عن الأصل .

(٣) وثالث الوجوه أن ننشئ المدارس التى ذكرنا ، ونأتى بأوربيين يعلمون ، ولكن نجعل هذا ضرورة تتخلص منها فى أقرب وقت ، فنبعث البعث لأوربا فى مختلف العلوم والفنون ، فيتلقونها من مصادرهما ؛ فإذا عادوا حلوا بالتدريج محل الأوربيين ، وبذلك نكسب السرعة ونكسب الإصلاح وتتقى خطر تغلغل الأجانب .

وعلى هذا رأى الأخير استقر رأى ، فأرسلت أول بعثة هامة سنة ١٨٢٦ إلى فرنسا ؛ وهم أربعون طالباً ، بعضهم لدراسة الإدارة المدنية ، وبعضهم لدراسة الإدارة الحربية ، ومنهم لدراسة العلوم السياسية ، ومنهم لقوة المياه والعلوم الميكانيكية ، والهندسة والمدفعية ، وصب المعادن ، وصنع الأسلحة والكيميا والطب ، والتاريخ الطبيعى ، والمعادن .

واختير معهم عضو محافظ ، يذكّرهم دائماً بالماضى ، ويصدهم عن الاندفاع فى تيار المدنية ، فيكون إماماً لهم فى الصلاة ، ومظهراً من مظاهر التقاليد القديمة ، فكان ذلك هو « الشيخ رفاعة » رشحه لهذا أستاذه العطار .

وهل فكروا حين عيّنه أن يكون عضواً أصيلاً يُعَدّ لشيء ، أو مجرد إمام تابع للرحلة يسدّ خانة من خاناتها ؟ الظاهر أنهم أرادوه أولاً إماماً للبعثة ، وهذا عمله الأساسى ، فإن تعلم وجاء بشيء فلا بأس وليكن الترجمة ،

ولكن أراد الله أن يكون الإمام في الصلاة للبعثة إماماً للحركة العلمية في مصر .
في عصر يوم الجمعة ٨ من شعبان سنة ١٢٤١ — ١٨ من مارس سنة ١٨٢٦ ،
كان شاب ملتحم معمم سنه خمس وعشرون ، ويقدره من رآه بأربعين ، لأن
حياته وحياة أمثاله لم تعرف الشباب ، يظهر عليه الخشوع الديني ، والتواضع
وطيبة القلب وخفة الروح ، يسافر مع أعضاء البعثة من مصر إلى الإسكندرية ،
ولا تظن أنهم اتخذوا قطار الاكسبريس فوصلوها بعد ثلاث ساعات ، ولكنهم
أخذوا زوارق صغيرة كل جماعة منهم في زورق ، وسارت بهم في النيل أربعة
أيام بلياليها حتى وصلوا إلى الإسكندرية ، إذ لم تكن مصر عرفت
« الوابور » بعد .

٢

ركب (الشيخ) البحر من الإسكندرية ، وقد خاف من البحر خوفين :
خوفاً من ركوبه وقد سمع كثيراً عن البحر وأهواله ، وحفظ في الأزهر :
لا أركب البحر أخشى علىّ منه المعاطب
طين أنا ، وهو ماء والطين في الماء ذائب

وقرأ في بعض الكتب قول الشاعر :

فيشتت الأفكار ما قاسى الورى من هول هذا البحر عند ركوبه
وسمع قول العامة في البحر : « داخله مفقود وخارجة مولود » ، ولكنه
استبشر خيراً بأن بدء الرحلة كان عصر يوم الجمعة ، وهو يوم مبارك ، وظل يقرأ :
« وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها » ، وقرأ بعد ذلك حزب البحر
واعتمد على الله واطمأن ، وذكر قول الشاعر :

لما ركبنا ببحرٍ وكاد منّ خاف يتلف

على الكريم اعتمدنا حاشاه أن يتخلف
والخوف الثانى من دُوار البحر ، وقد سمع عنه كثيراً ، ولكن شيخه العطار
— وقد ركب البحر مراراً — كان قد أوصاه بفائدة مجربة ، وهى أن يتجرع
عند نزوله البحر جرعات كبيرة من مائه الملح ، ففعل .

أول ما لفت نظر « الشيخ » هذا المركب الفرنساوى ، وطار خياله فقارن
بين السفينة التى ركبها من القاهرة إلى الإسكندرية ، وهذه السفينة الفرنساوية ؛
أما الأولى فسفينة قدرة ، ولكنه لم يدرك قذارتها إلا لما ركب الثانية ، كان يجلس
فيها على الألواح ، وكان يأكل حيث يجلس ، وينام حيث يأكل ، ومن حين
لآخر يشعل « النوتى » حطباً فيملأ الجو دخاناً ، ويوقد ناره يطبخ فيها عدسه ،
فى ماعون قد اسودَّ خارجه وداخله ، وإذا تم طهيته تحلَّق هو وصحبه حوله وغاصوا
بأيديهم فيه ، ثم لعقوا أصابعهم بألسنتهم وحمدوا الله ؛ وكانت موسيقى المركب
لاتنقطع ، فصياح لجمع شراع ، وصياح لنشر شراع ، وصياح لتحويل الدفة ،
وصياح للمرور من « هويس » ، وأوامر ونواه لاتنتهى ، وشتائم وسباب كذلك
لا ينتهى ؛ والمركب غنى غنى مفرطاً بالحشرات والزواحف من كل لون وشكل ،
تعين العابد على إيمانه فى سهره ، وطول تهجده ، وكثرة استغاثته بالله .

هذا مركب النيل فى مصر ، وأما مركب البحر فى الإسكندرية فأمره
عجب ، يقول « الشيخ » : « إن أهل المركب — من الفرنساوية — كانوا
يحافظون على نظيفتها وإذهاب الوسخ ما أمكن ، حتى إنهم يغسلون مقعدها كل
يوم من الأيام ، ويكنسونها فى صف النوم كل نحو يومين ، وينفضون الفراش
وغيره ، ويشمون رائحة الهواء ، ويزيلون أوحامها » . و « الشيخ » يعجب
من هذا كل العجب ، ويشير مشكلة من أصعب المشاكل ، وهى « أن النظافة

من الإيمان » ، والفرنساوية نصارى ، « ليس عندهم من الإيمان مثقال ذرة » ، وإخوانهم النصارى من قبط مصر أهل وخم ووسخ ، فما بال هؤلاء فرنساوية النصارى نظفاء ، وما بال المؤمنين المسلمين غير نظفاء ؟ هذه أولى المشاكل .

وقد ظل « الشيخ » متأثراً بهذه النظرة طول رحلته ، يعجب من نظافة فرنساوية في مراكبهم وفي بيوتهم وفي ملابسهم وفي شوارعهم ، ويزداد عجباً إذا بلغه أن أهل فرنسا — مع هذا — ليسوا أنظف أهل أوربا ، وأن « أهل الفلمنك (هولنده) أنظف من فرنساوية إذ تجد غالب حاراتهم مبلطة بالحجر الأبيض المتعهد بالتنظيف ، وبيوتهم محملة من خارجها أيضاً ، وشبابيكمم القزاز تغسل دائماً ، بل وحيطانهم الخارجية » .

ويحز في نفسه أن المصريين ليسوا بذاك في النظافة ، ويزعم « أن أهل مصر في قديم الزمان كانوا أعظم أهل الدنيا نظافة ، ولكن لم يقلدهم ذرايرهم » . وما أظن ذلك ، فالوساخة في مصر داء قديم ، وهم — مع الأسف — من أقل الأمم عناية بالنظافة ، في ما كلهم وملابسهم ومساكنهم وشوارعهم ، ولم تبدل الحكومات المتعاقبة أى مجهود جدى في حملهم على النظافة حتى تصبح عادة ، ومحل المقارنة لا يزال الآن كما كان منذ مائة عام في عهد « الشيخ رفاعة » ولا يغرناكم مائة بيت من الطبقة الأرستقراطية في المدن يعيشون في جو نظيف ، فالحكم إنما يجب أن ينظر فيه لسائر الشعب ؛ وحتى هؤلاء الأرستقراطيون لا يستطيعون أن يعيشوا نظفاء إذا كان من حولهم غير نظيف ، فهم مضطرون لمعاملة خدم يخدمونهم ، وباعة يبيعون لهم ، وركوب ترام أو قطارات يسافرون فيها وهكذا . وكما لا يستطيع بيت أن يعيش نظيفاً في حارة قذرة ، كذلك لا تستطيع طبقة مهما احتاطت أن تعيش عيشة نظيفة نظافة تامة في جو قذر . إن الفقر المنتشر والبؤس الشائع يدفعان الأمة إلى إهمال النظافة ، ولكن أهم من

ذلك عدم تدخل أولى الأمر في نظافة الشعب ، وتعويده أن يقوم النظافة قيمتها الحققة ؛ فمن نعم الله أن تكاليف النظافة رخيصة إذا وجدت نفوساً تأنف القذر .

مما يُعجب حقاً حساسية « الشيخ رفاعه » بالنظافة ، وتقويمه لها قيمتها الحققة ، والتفاته الشديد الدائم إلى هذه الناحية — ولو خصصت الأمة نصف ميزانيتها أو أكثر لتأسيس الحياة الاجتماعية في مصر على أساس النظافة لعقلت .

هذا « الشيخ رفاعه » في السفينة الفرنسية « بعمته وجبته وقفطانه » ، يتوضأ ويصلي إماماً ببعض الطلبة المصريين ، ويستظرف الشبان الفرنسيون هذا المنظر ، فيجتمعون لمشاهدته ؛ ويرون « الشيخ رفاعه » قسيساً يصلي بالمسلمين ويؤمهم ، فيحترمونه احترام قسيسهم ، ويمنحونه قدراً من إجلالهم ، ويخصونه بمزيد عنايتهم .

ويزيدهم استظرافاً له أنهم يرونه عاكفاً على دراسة اللغة الفرنسية ، بيده « أجرومية » فرنسية يقرأها كما يقرأ كتاب الأجرومية في النحو العربي ، ويحفظ ويمعن في الحفظ ، وينطق ببعض كلمات تستخرج ضحك الفرنسيين من أعماق صدورهم ، وأصعب شيء على « الشيخ » حرف U الفرنسية فهي ثقيلة النطق على لسانه ، فلا هي بالواو التي يعرفها ، ولا هي بالياء التي يألها ، ولكنها وسط عجيب بين الواو والياء ، يستصعبها فيتجمع لها قبل النطق بها ، وإذا وقع نظره عليها من بعيد وهو يقرأ أدرك علامة الخطر . ولقد أذكرني ذلك حكاية ظريفة ، فقد كنت أبادل مع سيدة إنجليزية جميلة تعلم الإنجليزية والعربية ، وكان لها عينان تشعان الثقة والإخلاص والأمانة ، وكان يصعب عليها النطق بالعين ،

فكانت تقول : « إن عينكم هذه تقتلنى » ، فأقول فى نفسى : « وعينكم أيضاً تقتلنى » .

سارت السفينة بالشيخ أربعة أيام ، والبحر هادئ والجو جميل ، وطمع الشيخ أن تكون رحلته كلها من هذا القبيل ، ولكن ما هو إلا أن عصفت الرياح ، واضطربت السفينة ، وأخذتها أمواج كالجبال تعلو إلى أعلى القمة وتهبط فى لحظة إلى أسفل القاع ، ولعبت نفوس الركاب لعب الأمواج ، فثارت ثورتها وهاجت هياجها . قال الشيخ : « فلأزم أكثرنا الأرض ، وتوسل جميعنا بالشفيع يوم العرض » .

بعد مرور خمسة عشر يوماً ، والبحر يهدأ ويهيج ، والسفينة تسير وتلعب ، والشيخ يصلى ويقرأ الأجرومية الفرنسية ، وقفت السفينة على جزيرة صقلية (سيسليا) ، ففرحوا بمنظر الأرض الباسم بعد منظر البحر العابس ، وتذكر الشيخ قول الشاعر :

أَنْلُ قَدَمَيَّ ظَهَرَ الْأَرْضِ إِنِّى رَأَيْتِ الْأَرْضَ أَثْبَتَ مِنْكَ ظَهراً
ولكن أهل صقلية لم ينبلوه ظهر الأرض ، ولم يمكنوه من النزول ، إذ كانوا لا يسمحون بدخول البلد إلا بعد الحجر الصحى خوف الوباء ، وإنما كانوا يسمحون بالتعامل بالبيع والشراء ، على شرط أن النقود التى يأخذها البائعون تغمس فى إناء مملوء بالخل ، حتى لا تنتقل العدوى :

وظلت السفينة خمسة أيام تزود حاجتها من ماء وفاكهة وخضر .
لقد كان « الشيخ رفاعه » ظريفاً حقاً ، أتدرى ماذا أعجبه من كل ماحوله ؟
صوت النواقيس فى الكنائس ورناتها الموسيقية ، وكانت الأيام أيام عيد ، والنواقيس تدق فيدق لها قلب الشيخ . لو غيره سمعها من رجال الدين المتزمّنين لاستعاذ بالله

من صوتها وحوقل ، وسمع منها صوتاً من أصوات الكفر يقبض صدره ويُعتم نفسه ، ولكن شيخنا رحب الصدر ، يتعشق الجمال حيث كان في غفة ودين .
ففي إحدى هذه الليالي الخمس دعا صديقاً من أصدقائه من أعضاء البعثة ، ممن يعرف فيه الظرف والأدب ، واقترح عليه أن يشتركا في إنشاء مقامة كمقامة البديع والحري ، ولكن ليس موضوعها التكدى ونصب الحيلة لاقتناص مال ، وإنما موضوعها ثلاثة أشياء ، الأول حوار حول أن « الطبيعة السليمة تميل إلى استحسان الذات الجميلة مع العفاف » ، والثاني « سكر الحب من عيني محبوبه » ، والثالث « تأثر النفوس ، بضرب الناقوس » إذا كان من يضربه ظريفاً . هكذا صبا الشيخ وظرف ، وأخذ ينشئ الشعر في مقامته في هذه المعاني ، فقال في المعنى الأول :

أصبو إلى كل ذي جمال ولست من صبوتى أخافُ
وليس بي في الهوى ارتياب وإنما شيمتى العفاف

وقال في المعنى الثانى :

قد قلت لما بدا والكاس في يده وجوهر الخمر فيها شبه خديه
حسبى نראה طرفى في محاسنه ونشوتى من معانى سحر عينيه

وفى المعنى الثالث يقول :

مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له : مَنْ علم الظبى ضرباً بالنواقيس
وقلت للنفس أى الضرب يؤلكنى ضرب النواقيس أم ضرب النوى - قيسى
ثلاثة وثلاثون يوماً قضاها « الشيخ رفاة » وصحبه في البحر بين الإسكندرية ومرسيليا ، منها خمسة أيام وقوفاً في صقلية ، ويوم في نابلى ، فكم نجح الإنسان أثناء قرن واحد في السرعة ولما يقنع !

رؤيتك أمةً جديدةً فتح عين لك جديدة ، فالحكم على المسائل الاجتماعية يعتمد أكثر ما يعتمد على المقارنة ، ولا مقارنة إذا اقتصر الإنسان على النظر إلى أمته وشئونها ، فنشأته فيها واعتياده من صغره رؤية مظاهرها يضعف قوة النقد عنده ، ويعوقه عن إدراك مزاياها وعيوبها ، فإذا هو رأى أمة أو أمة غير أمته ازاداد علماً ، وازداد قوة على النقد ، وكان أقرب إلى صحة الحكم .

ومن أنفع هذا الباب النظرات الأولى للراحل ، فهي تحصر وجوه الخلاف قبل أن يألّفها ويعتادها ، وتكون مادة صالحة له إذا هو قيدها وتعمّق في دراستها . فكم من الطريف أن نصغى إلى الأوربي الذي يزور مصر لأول مرة ويحدثنا عن أثرها في نفسه ، وكذلك من الطريف أن نسمع مصرياً قحّاراً رأى أوروبا للمرة الأولى وتحدّث عما لفت نظره وأثار عواطفه .

فإذا رأينا الشيخ رفاعه الذي نشأ في صميم الصعيد وشب في صميم القاهرة ، وتعلم في صميم الأزهر يتحدث عن الباريسيين والباريسيات كان بلا شك حديثاً عجيباً .

ما الذي أعجبه في فرنسا وما الذي كرهه ، وما الذي ود أن ينقل من ذلك إلى مصر ، وما الذي حمد الله أن لم ينقل ، ما الذي أحسه عند المقارنة بين مصر وفرنسا ووجوه ضعف مصر وقوتها ؟ أصبح ذهنه مشغولاً دائماً بكلمات خمس : مصر ، العرب ، الإسلام ، فرنسا ، النصرانية ، يستخدمها في كل نظراته وأحكامه .

أعجبه من الباريسيين ذكاؤهم ودقة فهمهم ، وسعة اطلاعهم وميلهم الشديد لمعرفة ما جهلوا ، وقلة الأमीين بينهم ، ورغبتهم في الابتكار « فكل صاحب

فن يحب أن يتتبع في فنه شيئاً لم يسبق إليه ، أو يكمل ما ابتدعه غيره « ثم حب الاستطلاع ، « فهم يحبون الرحلة يستطلعون فيها الناس والبلاد ، ويحبون الغرباء ليستمعوا منهم أحوال بلادهم وعوائد أهلهم » ؛ ثم حب التجديد ، « فهم يكرهون الاستمرار على حال واحد في الملبس ، وفي الملائم ، وفي التفكير ، وفي السياسة » . وأعجب ما أعجبه منهم حريتهم في تفكيرهم ، والتصريح بأرائهم في حكومتهم ، والجهربا يعتقدون في الدين والعلم والسياسة ، كما أعجبه جداً المنشآت العامة لنفع الفقراء والمرضى من مستشفيات وملاجئ .

وهذه صفات رآها فتمناها لبلادنا ، ولكن أين له الحرية التي يتمتع بها أهل باريس لينقد قومه وحكومته ، ويقول في صراحة ما يمتنى ؟ إنما هو يلوح ويلمّح .

وعجب جداً من خفتهم وطيشهم ، وشدة انفعالهم ، فسرعان ما ينتقلون من فرح إلى حزن ، ومن حزن إلى فرح ، وقد تربى هو تربية وقار وحشمة ، ورأى شيوخه في الأزهر جادين دائماً ، يمشون متثدين وعليهم سيما الرزانة ، ويجلسون كأن على رؤوسهم الطير ، ويتحركون بحساب ، ويخطون الخطوة بحساب ، فها هذه الخفة في الحركة عند الباريسيين ، وكيف يجري هذا الرجل صاحب المقام الرفيع والمركز الاجتماعي الخطير في الشارع كالأطفال ، ليدرك موعداً أو يلحق عربة ؟ وكيف يُفِرطون — حتى رجالهم وعجائزهم — في اللهو واللعب ، ويصرفون أموالهم في حظوظ نفوسهم ، ويسرفون في ذلك على أنفسهم غاية السرف ؟ إنهم لخلق عجيب ، ولكنهم مع ذلك أهل جد لا يملّون العمل ، سواء في ذلك غنيهم وفقيرهم .

لم تعجب الشيخ ماديتهم ، فهم بخلاء يحبون المال حباً جماً ، فأين هذا من كرم العرب ! وأين هذا من كرم « الصعايدة » ؟ ومن مادية الفرنسيين مواساتهم

بأقوالهم وأفعالهم لا بأموالهم ، وهم لا يهبنون ولا يُعبرون إلا إذا وثقوا بالكفاة ،
ثم هم يحكمون العقل حيث يحكم الدين ، فهم أسوأ حالا من المعتزلة في قولهم
بالتحسين والتقبيح العقليين ، وهم لا يؤمنون بالمعجزات ولا خوارق العادات ،
ويؤمنون بالسببية والمسببية إلى أقصى حد ؛ فالأمة ترقى بالعدل وتضعف بالظلم ،
وللعمران أسباب تنتجها لا محالة ، وللخراب أسباب تنتجها لا محالة ، ويعتقدون
— والعياذ بالله — أن عقول حكمائهم أعظم من عقول أنبيائهم ، وأكثرهم
لا يؤمن بقضاء ولا قدر — لا . لا . هذا كله لا يعجبني .

وشئ آخر لم يعجبه أبداً ، وهو أحوال النساء الباريسيات . . . والرجال
عندهم عبيد النساء ، فأين هذا من الشرق الجميل حيث النساء عبيد الرجال
(على أيامه) ، وهؤلاء النساء هفواتهن كثيرة ، وقلة عفاهن واضحة ، وغيره الرجال
عندهم ضعيفة ، وخاصة في الطبقات العليا والسفلى ، وقد جُرب في بلاد فرنسا
أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات إلى الرتبة الوسطى من الناس ،
دون نساء الأعيان والرعاع ، فنساء هاتين المرتبتين تقع عليهن الشبهة « الخ ، فأين
هذا مما عندنا في الصعيد ، حيث الغيرة عند الرجل تبلغ حد الجنون ، وويل لمن
سُمع عنها قالة سوء أو حامت حولها شبهة .

ولكن — والحق يقال — في الباريسييين فضيلة ، وهي عدم تغزلهم في
المذكر ، « فمن محاسن لسانهم وأشعارهم أنها تأبى تغزل الجنس في الجنس ،
فلا يحسن في اللغة الفرنسية قول الرجل عشقت غلاما ، فإن هذا يكون من
الكلام المنبوذ ، ولذلك إذا ترجم أحدهم كتاباً من كتبنا يقلب الكلام إلى
وجه آخر ، فيقول في ترجمة تلك الجملة عشقت غلاماً أو ذاتا ليتخلص من ذلك ،
فإنهم يرون هذا من فساد الأخلاق ، والحق معهم ، وذلك أن أحد الجنسين له في
غير جنسه خاصة من الخواص يميل بها إليه ، كخاصة المغناطيس في جذب

الحديد — مثلاً — وكخاصة الكهرباء في جذب الأشياء ، ونحو ذلك ، فإذا اتحد الجنس انعدمت الخاصة ، وخرج عن الحالة الطبيعية » .

هذه بعض نظرات « الشيخ » إلى باريس أول ما نظر ، وظلت هذه النظرات ثابتة عنده ، لم تتغير إلا قليلاً ، بل كانت الأيام تزيد قوتها ؛ ولقد أراد يوماً أن يستوثق من آرائه هذه فيعرضها ويسمع نقدها ، فعرضها على اثنين من أصدقائه الفرنسيين ، فأما أحدهما فنقدها بأن الشيخ نظر إلى بعض المسائل متأثراً بأوهام المسلمين ، ولعله يشير إلى نقد الشيخ رفاة لعقيدة الفرنسيين في القضاء والقدر ، وإنكار المعجزات ، كما نقد نظرتهم إلى النساء الفرنسيات ، وتعميمه الحكم على نساء فرنسا كلها بما شاهده من بعض نساء باريس ، وأما الثاني فكان ظريفاً رقيقاً ، وقال : لا يهمني ما حكمت ولكن يهمني ما اعتقدت ، فما دمت تكتب ما تعتقد فلا ضرر ، وإنما الضرر أن تشايح غيرك ، ويحملك الحياء والحجل على أن تكتب أو تقول ما لا تعتقد .

فكرتان تعارضتا في ذهن محمد علي باشا ورجاله ، ولكل فكرة مزاياها وعيوبها : أمن الخير أن يسكن هؤلاء الطلبة المبعوثون في بيت واحد وعليهم مشرفون ، أو يفرقوا في « البانسيونات » الفرنسية ؟ مزية الفكرة الأولى أنها أحفظ للطلبة من العبث ، وأنها أحرى أن تجعل الطلبة محافظين على عاداتهم المصرية ، فإذا رجعوا إلى بلادهم لم يكونوا قد بعدوا عنها كثيراً فيفيدونها بعلمهم ، ويندمجون فيها بسلوكهم ، وعيوبها أن الطلبة المصريين متى اجتمعوا تكلموا بالعربية ، فلم يتقدموا في الفرنسية ، وضعف علمهم بأحوال الفرنسيين وشؤونهم ، مما قد يكون فيه فائدة لأمتهم . ومزية الفكرة الثانية طلاقه ألسنتهم وكثرة استفادتهم وتجارهم ، وعيوبها تعرضهم لخطر التهلكة ، والانغماس في

الشهوات ، وتطبعهم بطابع الفرنسيين ، وبعدهم بذلك عن أهلهم ، وتقليد الفرنسيين في أحاديث السياسة والطعن في الحكومات ، مما يسبب مشاكل لمصر في المستقبل .

حار بين الفكرتين ، فاختار الأولى أولاً ، فنزل المبعوثون أول الأمر بيتاً سمي « بيت الأفندية » ، لا يخرجون منه ليلاً ولا نهاراً إلا يوم الأحد . وإذا خرجوا فبإذن من الضابط للبواب ، ويأتى المعلمون الفرنسيون إلى البيت ليعلموا الطلبة ، كل طائفة متماثلة تدرس معاً ، وتنفق عليهم الأموال عن سعة حتى كان يعدم الفرنسيون من الأغنياء .

ثم لما تجلت عيوب هذه الطريقة وأحسوا عدم تقدم الطلبة في اللغة والعلم لجئوا إلى الطريقة الثانية ، فوزع الطلبة على « البانسيونات » وفرقوا على المدارس كلٌّ وما يناسبه ، وأطلق لهم شيء من الحرية ولكن في نظام دقيق ؛ فيخرجون يوم الأحد ، ويوم الخميس بعد الدروس ، وبعض الأيام بعد العشاء ، ولكن لا بد أن يعودوا إلى مساكنهم قبل الساعة التاسعة في الصيف ، والثامنة في الشتاء ؛ وفي كل شهر يمتحنون ويكتب تقرير عن كل طالب ، ومقدار ما حصله ومدى تقدمه ، ويكافأ من ظهرت نجابته بهدية من الكتب أو بعض الأدوات المدرسية ؛ وهم ممنوعون منعاً باتاً أن يدوروا في الأزقة — وإذا عصى أحدٌ هذه الأوامر حبس وعذب ، وإذا أتى بأفعال غير لائقة أو شهد المعلمون أنه لا يرجى تقدمه أعيد — حالاً — إلى مصر ، والكل في ذلك سواء لا يستثنى أحد .

ومحمد علي باشا بنفسه يطلع على التقارير الواردة ، ويتصرف فيها بما يرى ، ويرسل دائماً إلى الطلبة يشجع الجدد وينذر الكسول ، ويراقب كل صغير وكبير . وفي آخر كل عام تأتى التقارير الوافية عن كل طالب ، ويُمَرَّن كلٌّ

أثناء تعلّمه على التأليف أو الترجمة ، ويرسل ذلك لمصر للاطلاع عليه .

وضعت برامج مختلفة لتعليم كل طالب حسب دراسته الأولى ، والغرض الذى من أجله أرسل ، وكان البرنامج الذى وضع للشيخ رفاة شاقاً غريباً ، لأنه أُعدّ للترجمة من الفرنسية إلى العربية ، وعليه أن يُعدّ لترجمة الكتب فى العلوم المختلفة ، فى الجغرافيا والتاريخ والطب والهندسة والتعاليم العسكرية ، وهو لا يستطيع الترجمة فى علم من العلوم إلا إذا ثقف فيه ، فيجب أن يثقف هذه الثقافات المختلفة ليستطيع التعريب فيها ، لذلك كان برنامجه الذى ألزم به ما يأتى :

يجب أن يتعلم الفرنسية ، نحوها وصرفها وإملاءها قراءة وكتابة ، وقد استمر فى ذلك ثلاث سنين ، وفى أثناء تلك السنوات يقرأ كتباً معينة فى فلسفة اليونان والتاريخ العام .

وعين له كتاب فى الحساب يقرؤه ويعرف مصطلحاته وكذلك فى الهندسة ، واختير له كتاب واسع فى الجغرافيا التاريخية والطبيعية والرياضية والسياسية ، قرأه على أستاذ فرنسى .

ويتمرّن فى كل ذلك على الترجمة من الفرنسية إلى العربية .

ويقرأ كتاباً فى المنطق الفرنسى ، وكتاباً فى المعادن ، وكتباً مختلفة فى الأدب الفرنسى ، فيقرأ لفولتير ، وراسين ، وروسو .

ويقرأ فى السياسة ، والحقوق الطبيعية ، وروح الشرائع لمتسكيو .

ويقرأ على الأستاذ كتاباً فى علم الطبيعة وكتاباً فى فن العسكرية .

ويقرأ المجلات العلمية والجرائد السياسية اليومية .

وهكذا كُلف كثيراً ، وقرأ هو لنفسه كثيراً ، وشغف بالكتب السياسية

والاجتماعية يقرأ منها كثيراً ، إذ رآها تفتح أمامه أبواباً واسعة .
وكان مسيو جومار مدير البعثة يحبه ويعطف عليه ، لما رأى من جده ونبوغه
فأعانه وشجعه وسهل له مصاعبه .

ثم استفاد فائدة أخرى كان لها أثر كبير في حياته ، ذلك أنه صادف في
باريس أيام وجوده بها علمين من أعلام الاستشراق ، الأستاذ سلفسترده سامي
والأستاذ كوزين ده برسيفال ؛ فأما الأول فمدير مدرسة اللغات الشرقية ،
واسع الاطلاع في اللغة العربية والفارسية ، نشر كتباً عربية كثيرة ، وألف
شرح مقامات الحريري المتداول بين أيدينا ، والمطبوع في مصر مراراً ، وألف
في النحو العربي على طريقة جديدة ، وألف كتاب « الأنيس المفيد » للطلاب
المستفيد « المطبوع في مصر من غير ذكر لمؤلفه الخ ؛ وكذلك الأستاذ كوزين
نشر كثيراً ، وترجم من العربية « صقلية تحت حكم المسلمين » الخ . وكلاهما
كان بحاجة ، صادقهما الشيخ رفاعة واستفاد منهما منهج المستشرقين في البحث ،
واستفادا منه بعض معارفه في اللغة العربية ، فلما عاد إلى مصر قلدهما في بعض
شؤونهما كما سيأتي

كان عليه أن يتم هذا البرنامج كله في خمس سنوات ، وما كان يستطيع
ذلك ، لولا همته وصدق عزمه واتكاؤه على نفسه ، فقد أفرط في المطالعة بالليل
حتى ضعفت عينه اليسرى ، واحتاج إلى تطييبها ، ونصحها الطبيب ألا يطالع
فأبى ؛ وصرف أكثر مرتبه الخاص في شراء الكتب التي أغرم بها ، وفي
الاستعانة بمعلمين فرنسيين غير الذين رتبّتهم له الدولة .

فإذا ملّ القراءة والدرس ، استجم بنوع من الدراسة آخر لا يقل عن القراءة
أهمية ، وهو دراسة الحالة الاجتماعية في فرنسا ، ومدى تقدمها وأسباب نهضتها ،
ما قوانينها ، ما عاداتها ، ما تجارتها ، ما وسائل اعتناء أهلها بصحتهم ، كيف

يعطفون على مرضاهم ؟ ما حالاتهم الاقتصادية ؟ ما علومهم وفنونهم ونظام التدريس عندهم ؟ ما هي المؤسسات العلمية غير المدارس ، كالمكتبات والأكاديميات حتى الملاهى والتمثيل وصلالات الرقص بجميع أنواعها — كل هذا درسه يامعان ، وقيده بالكتابة ، واختزنه في ذهنه ، وأجاله في عقله على أساس ما يمكن أن يصنع من ذلك في مصر .

وهو في كل ذلك محتفظ بدينه ، محتفظ « بعمته وقطفانه » يهرول بهما في شوارع باريس على كثرة ما لقي في ذلك من عناء ، فكلما مشى لفت الأنظار إليه بغرابة شكله وطرافة زيّه ؛ ولا ينسى يوماً حكاية ظريفة وقعت له فتصرف فيها تصرفاً ظريفاً مثلها ، إذ كان يسير ليلة في زقاق في باريس ، فمرّ بجانة لعبت الخمر بمن فيها من رجال ونساء ، وصادف مرور الشيخ خروجهم وهم يصيحون « الشراب الشراب » ، ولاحت التفاتة من أحدهم فرأى الشيخ يسير في « جيبته وقطفانه » « فصاح به يا تركى يا تركى ، وقبض على ثيابه ، فحذبه الشيخ رفاعة بلطف وساقه إلى « بار » كان بالقرب منه ، ودخل به وقال لصاحب البار : « من فضلك أعطني بهذا كأساً » .

صاحب البار : ليس بيع الرجال في بلادنا ، إنما ذلك في بلادكم .
الشيخ رفاعة : وهل هذا رجل ؟ وهل من يفعل بنفسه ذلك آدمى ؟
وضحك الجميع وانصرف الشيخ .

في آخر السنوات الخمس عقد للشيخ الامتحان النهائي ، حضره جمهرة من الأساتذة الفرنسيين ، ومعهم مسيو جومار ؛ وتقدم لهم الشيخ رفاعة ومعه اثنا عشر كتاباً أو رسالة ترجها من الفرنسية إلى العربية أثناء إقامته ، ففحصها

المتحنون ؛ ثم قدمت له كتب عربية طلب منه أن يقرأ صفحاتها ويترجمها إلى الفرنسية شفاها وعلى البديهة ؛ وأحضرت كتب مترجمة من العربية إلى الفرنسية فأعطى الفرنسيون الكتب الفرنسية والشيخ رفاعة الكتاب العربي وطُلب إليه أن يقرأها في نفسه وينطق بترجمتها بالفرنسية ، وقد أعجبوا بتفوقه ، ولكن أخذوا عليه أن نطقه الفرنسي لم يصقل الصقل الكافي ، وأنه في الترجمة أحيانا يعبر عن الجملة الواحدة الفرنسية بجمل كثيرة عربية ، وربما ترجم الكلمة بجملة فرارا من المصطلحات ، وربما غير مجازاً فرنسياً بمجاز آخر عربي ، وأنه يراعى روح المعنى أكثر مما يراعى حرفية اللفظ ، ونصحوه أن يراعى ذلك في المستقبل ، وأعلنوا نجاحه في اغتباط وفرح ، وكتبوا تقريراً مفصلاً لمحمد على باشا يثنون عليه ، ويدينون مدى نجاحه في كل ما عهد إليه ، إلا الرسم ، فقد تصلبت أصابعه ولم يرزق الخفة في يده ، ويتنبأون له بمستقبل باهر في خدمة أمته بما يؤلف ويترجم .

إلى هنا كان الشيخ قد أتم مرحلة الاستعداد ، وفارق باريس إلى مصر ليحمل عبئه ويؤدي رسالته ، وفي صدره هوى حبيبتيه مصر وباريس فيقول :
لئن طلقت باريساً ثلاثاً فما هذا لغير وصال مصر
فكل منهما عندي عروس ولكن مصرٌ ليست بنت كفر

٤

شتان بين الشيخ راحلا إلى باريس والشيخ عائداً من باريس ، كان معصوب العينين ، فعاد مفتوح العينين ؛ كان يرى أن مصر أم الدنيا . فإذا هو يراها ذيل الدنيا . ولكن يجب العمل لتكون رأسها ، كانت دنياه هي الأزهر وحيّ الأزهر ، فإذا دنياه الدنيا كلها في حاضرها وغابرها ومستقبلها ، بما شاهد وبما قرأ من جغرافيا وتاريخ وسياسة واجتماع ؛ كانت غايته أن يكون عالماً ، ومعنى العالم في نظره أن يتقن النحو والبلاغة والأصول ، فإن تظرف فحفظ شيء من الشعر ؛ وكان مثله الأعلى الشيخ الفضالي والشيخ القويسني ، وأن يجلس على مقعد بجوار عمود من أعمدة الأزهر وحوله الطلبة الكثيرون يشرح لهم أغمض الجمل وأعقد الترا كيب ، فإذا انتهى أقبل عليه الطلبة يتخاطفون يده لتقبيلها ؛ فإذا هو يرى في فرنسا أن كلمة « العالم » المطلق لا مدلول لها ، إنما هناك عالم جغرافيا وعالم تاريخ وهكذا ، ويرى أن شيوخ الأزهر لم يعودوا مثله الأعلى ، فإن علم الأزهر نقطة من بحر العلم ، وطريقة تعليمهم نقطة سوداء في مناهج التعليم ، وليس مثله الأعلى أن يجلس بجوار عمود ؛ ولكن مثله الأعلى ورسائله الكبرى أن يغزو الجاهل والأمية في مصر كلها ، وأن يخلق فيها حركة تعليم تقلب أوضاعها وتنير أذهانها ، وتبصرها بالدنيا وتفهمها أين هي لنفسها وأين هي من الأمم الأخرى — وكان يرى الشيوخ يتملقون الولاة والأمراء تملقاً رخيصاً ليستدروا منهم كيس نقود أو خلة سنية ، فصار يرى أنه لا يستطيع أن يكف عن المدح ، وإلا فسد برنامجه ، فليمدح لمشروع جليل ، ولإنشاء مدرسة ، ولعمل خيرى ، ولرسم الطريق للأمراء ليتوجهوا بأعمالهم نحو الخير العام .

وكان قبل سفره يحس من نفسه الضعة إذا جالس والياً أو أميراً أو عظيماً ، وكان

يحس النقص إذا جلس في مجلس يُتكلّم فيه عن شئون الدنيا ، فارتفعت نفسه ، فمن فخرَ بلغة فهو يملك ناصية الفرنسية ، ومن فخرَ بعلم دنيوى فليس يمكن أن يباريه ، ومن فخرَ بمعرفة الدنيا وشئونها فأين هو منه وقد قرأ جغرافية العالم وسياسته ، وجالس أذكى الناس عقلا وأرقاهم مدنية ، وعاش في أوساط قد لا يبلغها كبير . وهكذا سمت نفسه وشعر بقوته في غير كبر ولا غرور ، يرتفع عن بنى قومه ولكن يأخذ بيدهم ، ويحس قوته فيصرفها في نفع أمته ، ويحذق فهم التيارات السياسية في مصر ، وعقلية الشعب وعقلية الولاة ، فيعرف كيف يتجه بسفينته .

خمس سنوات في فرنسا جعلت منه إنساناً آخر ، ولكن كم من مئات ومن ألوف قضوا أعواماً وأعواماً في إنجلترا وفرنسا وألمانيا وعادوا نكبة على أوطانهم ، ولم يفيدوها حتى بكف شرورهم عنها ، وصدق الأثر : « الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام » . ولو كان لنا في كل مجموعة من البعثة مبعوث مثل رفاعه لتغير وجه مصر

كان من العادات الظريفة التي اندثرت أن يجتمع الجُم الغفير من العلماء والأُمراء والأغنياء والتجار في ليلة من ليالى رمضان في بيت السادات في « بركة القيل » ، ويجلس الشريف الحسيب النسيب شيخ السادات مجلسه الفخم الوقور يمنح الرتب والألقاب لمن شاء من الزوار ، ولكن ليست رتبة « بك » ولا « باشا » ولا نحو ذلك ، إنما هي ألقاب وكُنَى يستمدّها من الوحي الصوفي والإلهام اللدني ، فهذا أبو الأنوار ، وهذا أبو الوفاء ، وهذا أبو البركات ، وهذا أبو الخير ؛ ففي ليلة من هذه الليالى الرمضانية كان من الزوار شيخنا الشيخ رفاعه ، فتفرس فيه شيخ السادات ، ونظر إليه بقلبه ، ثم قال له : « اذهب فأنت أبو العزم » وكذلك

كان ، وكانت كنية موققة ، فأبرز صفات « الشيخ رفاعه » عزمه .

عاد الشيخ رفاعه إلى مصر سنة ١٢٤٧ هـ ، وقد عرفه محمد علي باشا بما كتبه عنه مدير البعثة من تقارير ، وعرفه إبراهيم باشا حين قابله في الإسكندرية ، لأنه سمع به حين زيارته باريس ، ولأنه كان يعرف أسرته في طهطا ، وقد عرف ما نكبت به من انتزاع ما في يدها من أطيان ، وقطع ما يصرف لها من غلال ، فأراد أن يكفر عن ذلك ، فمنحه ٣٦ فداناً في الخانكة (الخانقاه) ، فكان ذلك مبدأ ثروته ونعمته — أرض لطيفة قريبة من القاهرة يستطيع الشيخ أن يديرها ويرفه عن نفسه فيها .

عينه محمد علي باشا مترجماً في مدرسة الطب ، وكانت بأبي زعبل ، وكان ناظرها كلوت بك ، وكانت محاولة أولية لمدرسة الطب أنشئت بجانب المستشفى هناك ، وكان يؤخذ تلاميذها من المكاتب ومن الأزهر ، لا يعرفون لغة ، ولا يعرفون إلا القراءة والكتابة وقليلاً من الحساب الأولى ، وكان المدرسون الذين يدرسون الطب إما فرنسيين أو إيطاليين ، فكيف يكون التفاهم بين الطلبة والمدرسين ؟ لا بد من مترجمين يعرفون العربية والفرنسية والإيطالية ، فيلقى الأساتذة الدروس بلغتهم والطلبة سكوت لا يفهمون شيئاً ، فيترجمه المترجمون إلى العربية ، ثم يشرح المترجمون للأساتذة ما ترجموا ليشق الأساتذة من صحة الترجمة ، ثم يمليه المترجمون على الطلبة بالعربية ، ثم يحفظه الطلبة ، ومن أظهر التقدم من الطلبة واستطاع أن يفهم من الأساتذة بعض الشيء جعل مشرفاً على الطلبة الضعاف مساعداً للأستاذ والمترجم .

وهؤلاء المترجمون أيضاً مشكلة أخرى ، فهم طائفة من السوريين أو الأرمن أو نحوهم مثل مسيو رفايل ومسيو عنحورى ، قد يجيدون اللغة الأجنبية ،

ولا يجيدون العربية ؛ فاقضى الأمر أن يؤتى ببعض علماء الأزهر لتصحيح ما يترجمه المترجمون ، وسبب وجود علماء الأزهر مشكلة ثالثة ، وهى أن التشريح حرام ، وهو يُعمل فى السر ، ويخشى أن يطلع عليه علماء الأزهر فيفضحوا المدرسة ويؤلبوا عليها رأى العام ، وليس لهذه المشكلة من علاج إلا أن يختار من الأزهر الشيوخ المرنون ، كالشيخ الدسوقي والشيخ الهراوى ، ويُرجون ألا ينفشوا السر .

هذا هو الوضع للمدرسة أيام عين بها « الشيخ رفاة » مترجماً ، فكان أول مترجم مصرى يجيد العربية والفرنسية وله إلمام بالطب ، وقد عين مرءوساً للمسيو عنحورى ، فلما رأى منه (مسيو عنحورى) هذه المقدرة تحلّى له عن مكانه . وعهد إلى الشيخ رفاة إلى جانب الترجمة أن يعلم بعض الطلبة الإعداديين اللغة الفرنسية والجغرافيا ، وصدر الأمر بأن يعطى مرتباً على ذلك ١٢٢٣ قرشاً فى الشهر ، مع إضافات ، كبذل انتقال ونحو ذلك . مرتب ضخم فى ذلك العصر ، فاثنا عشر جنيهاً كانت قدرتها الشرائية أكثر من ستين أو سبعين جنيهاً فى عصرنا ، حتى قبل أن يرخص ورق النقد .

ولهذا نرى الشيخ يتزوج بنت خاله الشيخ محمد الأنصارى ، ويتجبح فى المعيشة ، فيكون له بيت فى « المهمشة » بالقرب من شبرا ، وفيه حديقة لطيفة فيها أثر الذوق الفرنسى ، وفى البيت جوارٍ وعبيدٌ من ملك يمينه — فلم يكن أبطل الرق بعدُ — وفى ذلك أثر للذوق الشرقى .

عمل فى مدرسة الطب ما شاء الله أن يعمل ، وأحسن الطلبة روحاً جديداً فى المدرسة ، ورقياً فى لغتهم اقتربوا به من أساتذتهم ، وقرَّب إليه بعض خيار الطلبة يشجعهم ويمرّضهم ويُعدُّهم للبعثة ، وكان من هؤلاء محمد على باشا البقلى — جراح مصر الشهير — فكان يقبل يد الشيخ كلما رآه ، ويُعدُّ نفسه صنيعة من

صنائه ، فلولاه ما نبغ ، ولولاه ما كان مبعوثا ؛ بل أخذ الشيخ في هذه الفترة يضع الرسائل في الطب يساعد بها الطلبة ويراجع الكتب العربية القديمة من قانون ابن سينا وتذكرة داود لوضع المصطلحات الطبية .

ولكن لم يلبث بهذه المدرسة إلا نحو سنتين ، ثم صدر الأمر بنقله من مدرسة الطب بأبي زعبل إلى مدرسة « الطوبجية » بطره ، وكان ناظرها رجلا أسبانيا اسمه « ساكورا » بك ، واسمه في الأصل « الدون أنطونيو ده سيجويرا » عمره الشيخ رفاة إلى « ساكورا » ، وكان في الأصل ضابطا برتبة كولونيل في المدفعية ، عهد إليه تأسيس هذه المدرسة وتنظيمها لتخريج ضباط للجيش والبحرية ، يؤخذ طلبتها من المكاتب ، ويتعلمون بها الفنون العسكرية والحساب والجبر والهندسة ولغة أجنبية .

فعين الشيخ رفاة ليرجم الكتب العسكرية والرياضية ، بعد أن كان يترجم الكتب الطبية ، وطلب إليه أن يترجم الفن العسكري الذي يحدث الجراح ، بدل ما كان يترجم فن تضييد الجراح — فليكن — ها هو الشيخ يعكف على ترجمة كتاب في الهندسة يدرس في مدرسة « سانسير » بفرنسا ، وها هو يقلب أيضا الكتب القديمة في الهندسة يستخرج مصطلحاتها ، وها هي مطبعة بولاق تطبعها وتوزعها على طلبة مدرسة الطوبجية .

ولكن الشيخ لم يعجبه مسيو ساكورا بك ، ولم تحسن العلاقة بينهما . وتأتى سنة ١٢٥٠ هـ ، فيحدث في مصر طاعون شنيع ، وتكثر الموتى وتضطرب الأحوال في القاهرة ، ويغلو السعر حتى تكون كيلة القمح بتسعة قروش ، فيسافر الشيخ بلا إذن إلى بلده طهطا .

مكث في بلده ستين يوما ، هل استراح فيها وسكن إلى أهله وأهل بلده بعد غيبة طويلة ؟ هل فكر في الطاعون وكثرة الموتى ؟ هل صدّه عن العمل تضايقه

من مسيو ساكورا ؟ لا شيء من ذلك ، ها هو كتاب في الجغرافيا أعجب بقراءته لما كان في باريس ، وأعيدت منه طبعة جديدة أدخلت عليه تعديلات جديدة وهو كتاب ضخيم واسع مؤلفه « ملطبرون » Malte-Brun دنماركي الأصل ، نفي من بلاده فأقام في باريس ، فعكف على دراسة الجغرافيا طول حياته ، واعتصر منها مؤلفا في ستة أجزاء ضخام ، أقام في تأليفه تسعة عشر عاما ، وفيه أرقى المعلومات وأوسعها عن العالم (في عصره) لو ترجم إلى العربية لوسّع من آفاق أهل العربية وفتح عيونهم على العالم .

في هذه الستين يوما دأب على ترجمة الجزء الأول منه ، وعاد به في يده ، وقابل محمد علي باشا وقدمه إليه وشرح له قيمته ، فشكره ومنحه منحة ، وأنعم عليه بلقب صاغ ، إذ كانت كل الرتب عسكرية ، فأصبح « الصاغ رفاعة » ؛ وشكا له من عمله في مدرسة الطبوجية ومن مسيو ساكورا ، وقدم إليه مشروعا لمدرسة الألسن وصف فيه برنامجها وما يصح أن تؤديه لمصر من الخدمة إذا أسست على أساس صحيح ، وأنه هو أنفع لهذا العمل والإشراف عليه ، فكان ذلك . ونقل من مدرسة الطبوجية إلى مدرسة الألسن ، يؤسسها وينظمها ويتولى الإشراف عليها . وهنا أعطى القوسَ باريها وتجلت عظمتة ومواهبه فيها .

ما مدرسة الألسن التي خلقها الشيخ رفاعة ، وما الغرض منها ؟؟

لقد عرف الشيخ رفاعة في باريس مدرسة اللغات الشرقية ، أسست لدراسة لغات الاستشراق ، وكان يسميها في كتابته مدرسة الألسن ، لما ذاع في العربية من اللسان العربي واللسان العجمي ، ولما جرى على السنة العامة : « يتكلم بالسبعة ألسن » ولكن موقف مصر في اللغات غير موقف فرنسا ، فوجب أن تؤسس في مصر مدرسة للألسن تواجه مطالبها وتناسب موقعها .

لقد نجحت فكرة محمد علي باشا في البعثات ، وعاد أعضاؤها يتكلمون

الفرنسية ، ويحيدون ماتخصصوا له من المسائل الفنية ، ولكنهم لا يكفون للنهضة المصرية الواسعة النطاق . إن مصر محتاجة لمن ينقل لها خير ما وصل إليه العلم الحديث في كل فروع ، فلا بد من تكوين طائفة كبيرة من الشبان يحدقون العربية ولغة أخرى حية ، وخاصة الفرنسية ، وإلى ذلك يثقفون ثقافة فنية خاصة ، هذا في الرياضة ، وهذا في القانون ، وهذا في الجغرافيا والتاريخ ؛ حتى إذا عهد إليهم ترجمة كتاب كانوا مثقفين بعلمه ولغته ، وهؤلاء المتخرجون على هذا النحو يستطيعون أن يقوموا بترجمة الكتب في الفروع المختلفة ، ويصح أن يكونوا معلمين في المدارس التجهيزية والخصوصية ، ويصح أن يكونوا موظفين في مصالح الحكومة التي تحتاج إلى من يحيدون لغة إلى لغتهم الأصلية ، فيكونوا نواة لنهضة صحيحة — إننا بالبعثة ننقل المصريين إلى أوروبا ، وبهذه المدرسة ننقل علم أوروبا إلى مصر . الترجمة ، الترجمة ، هي أساس النهضة لمصر ، وهي مبعثها من مرقدتها ، والفتاحة لعيونها ، لقد تقدم العلم الإسلامي ، بعد وضع أساس النهضة بالترجمة في العصر العباسي ، فوجب أن تكون نهضتنا الحديثة مؤسسة على الترجمة الحديثة ، ولهذا لقبوا محمد علي بالأمون الثاني .

ثم في هذا العمل — إذا نجح — فائدة أخرى ، وهي إيجاد عدد كبير ممن يحدق اللغات الأجنبية ، فنستطيع بهم أن نستغنى عن كثير من الفرنج الذين يحتلون هذه المناصب ، كما نستريح من مشاكلهم .

فلنأخذ الطلبة من النابهين في المكاتب ، وندرس لهم خمس سنوات أوستا اللغات العربية والفرنسية والتركية ، ومبادئ الرياضيات ، والتاريخ والجغرافيا ، ولنختار لهذه الدراسة خير من غندنا من فرنسيين وترك وعلماء أزهري ، ولنخلص النية في تعليم هؤلاء الطلبة ، فعليهم تتوقف النهضة وهم معقد الأمل .

هذا هو مشروع مدرسة الألسن كما تصوره الشيخ رفاعة ، وكما صادق

عليه محمد علي باشا ، وصدر الأمر بإنشائها ، وأعدت عدتها ، وفتحت ، وتولى نظارتها « الشيخ رفاة » .

٥

من يظن أن « خارة شبت » كما يسميها العوام ، أو « فندق شبرد » كما يسميه المتعلمون اليوم هو الذي كان مدرسة الألسن ، حيث كان الشيخ رفاة ومساعدوه وتلاميذه يخمرون الخميرة الأولى للنهضة العلمية والأدبية ؟ ومن يظن وهو يمر الآن على هذا الفندق أن له تاريخاً طويلاً ، وأن قد تقلبت عليه أوضاع شتى فتداول عليه الجد والهزل ، واحتلته الأرستقراطية والديمقراطية ، وكان أحياناً حرماً آمناً لا يستطيع أن يقربه أحد ، ثم كان كبرج بابل يرطن فيه بالفرنسية والإنجليزية والعربية والتركية ، وتدوى في أرجائه اللغات دوى النحل ، ثم أصبح مثابة لكل أرستقراطي عابر . لقد كان بيتاً للأمير أحمد بك الدفتردار زوج الأميرة نازلى هانم كريمة محمد علي باشا ، ثم مدرسة للألسن ، ثم جعله محمد علي فندقاً للإنجليز ، ثم صار فندقاً لمن يشاء ، وهكذا الأماكن « تشقى كما تشقى الرجال وتسعد » ، فهذا البهو الفسيح كان يخطر فيه الشيخ رفاة وحوله الطلبة يعرضون عليه مشاكلهم اللغوية ، وأحياناً يخطب فيهم فيجلجل صوته ، ثم كان يجلجل فيه صوت الجاز بند ، يرقص على نغماته مهفهفو الشبان ، مع الغيد الحسان .

سافر الشيخ إلى الأقاليم يفتش في المكاتب عن نجباء التلاميذ يختار منهم من يصلح ليكونوا تلاميذ لمدرسة الألسن ، وكانت قد انتشرت هذه المكاتب في الأرياف ، وأسست على نظام جديد ، فيه شيء من الثقافة المدنية كالحساب

وما إليه ، وسميت « مكاتب الأرياف الأميرية » وبلغ عدد طلبتها خمسة عشر ألفاً ، اختار « الشيخ » منهم خمسين ، ولكن لوحظ أن أكثر من اختارهم من الصعيد ، فهل كان هذا « محسوبة » من الشيخ وعصبية لأهل بلده وإقليمه ؟ قد يكون ذلك ، فالمحسوبة داء قديم ، وكما يصح أن يفسر هذا التفسير السيئ يصح أن يفسر تفسيراً آخر نبيلاً ، وهو أن إقبال الناس على تعليم أبنائهم كان ضعيفاً ، وكثير ممن تعلموا في ذلك العصر تعلموا بالإكراه ، وكان من يؤخذ ليتعلم يودّع بالصياح والعويل ، كما يودع من قبل في الجنديّة اليوم ، وقد يقبل الناس أن يتعلم أبنائهم في مكاتب بلادهم ، أما أن يسافروا إلى مصر بعيدن عن أنظارهم ولا يعرفون عاقبة أمرهم ، فهذا ما لا يقبلون ؛ والشيخ رفاعة صعيدى له في قومه جاه ، وله في بلده وما حوله حسن سمعة ، فالناس يطمئنون أن يسلموا أولادهم له ، وليس له من هذه الوجهة في الوجه البحرى ما له في الوجه القبلى ، ففعل هذا علة كثرة الصعايدة في الدفعة الأولى من تلاميذ مدرسة الألسن ، حتى إذا أطمأن الناس إلى هذه المدرسة رأينا التلاميذ من الأقاليم المختلفة لا فرق بين صعيديّهم وبحريّهم .

خمسون تلميذا « داخلين » في مدرسة الألسن يأكلون ويشربون ويلبسون وينامون ويتعلمون على حساب الدولة ، ومعهم ثلاثة مدرسين فرنسيين ، ومدرسون من علماء الأزهر لتدريس اللغة العربية ، ومدرسون للمواد الأخرى وعلى رأسهم الشيخ رفاعة .

ليس من السهل إنشاء مدرسة كهذه ، فهي تسبب مشاكل لا تنتهى : طلبة من الأرياف « بعبلهم » لم يروا إلا زرعهم وضرعهم ويتهم المتواضع الذى تنام فيه الجاموس والبقر بجوارهم ، وفيهم المتزوج وله أولاد ، وفيهم من لم يبلغ الحلم ، يدخلون فجأة هذا القصر المنيف ، ويراد منهم أن يعيشوا عيشة نظامية

نظيفة ويجلسون أمام مسيو « بنير » يتعلمون منه الفرنسية ! يالها من معجزة !
والشيخ على الفرغلى الأنصارى يخلع حذاءه ويشمر ويتوضأ ، ويخلع جبته
ويفرشها على الأرض ويصلى الظهر في حجرة واحدة مع مسيو « ديزون » .

وأحمد عبيد الطحطاوى الطالب فى المدرسة يبصق على أرض الحجرة
المصنوعة من « الباركيه » — عقليات مختلفة فى الطلبة ، وعقلية متباينة فى
الأساتذة ، ويطلب من كل هذه العناصر المتناقضة أن تكون وحدة .

لا بأس ، فالشيخ رفاعة قادر على كل ذلك ، وقد مر بهذه الأدوار كلها
وعرف عقلياتها ، فهو مستطيع مواجهتها ومعالجتها ، هو ملتقى العقليات المختلفة
والتقاليد الاجتماعية المتباينة .

غريب أمر الشيخ فى المدرسة — رزقه الله صحة جيدة لا تمل ، ورزقه قلة
النوم ، ورزقه الطبع الفرح المرح الذى يستعذب النكتة ويضحك لها من
أعماق قلبه ويشارك فى صنعها ، بكل ذلك يملأ جو المدرسة ، هو أب رحيم لكل
الطلبة ، وأخ كريم لكل الأساتذة . هو حركة دائمة لا تتقيد بميعاد ولا جرس ،
يحلو له أحياناً أن يعقد درساً بعد العشاء أو فى ثلث الليل الأخير فيفعل والطلبة
فى إقبال على التحصيل ، والأساتذة فى إقبال على الدرس .

فإذا نال الطلبة قسطاً لا بأس به من الفرنسية والعربية مرههم على الترجمة
ولكن لا يمرهم بموضوعات تكتب فى كراساتهم ثم تطرح ، بل فى كتب
نافعة يترجمون منها ما استطاعوا ، فإذا وقفوا فى فهم جملة أو لم يستطيعوا ترجمتها
رجعوا إلى الشيخ فساعدهم ، ثم عرضوا ما ترجموا على أستاذ اللغة العربية
يصحح لغتهم ، وخاصة الشيخ محمد قطرة العدوى ، فقد كان ساعده الأيمن فى
هذه المدرسة بفضل ما منح من قدرة على التدريس بلغة سهلة ، وعبارة فصيحة
وقدرته الفائقة على تصحيح عبارات الطلبة فيما يترجمون . فإذا أتموا الكتاب

أو الكتب روجعت ثم قدمت إلى المطبعة لتطبع ، فتكون أثراً خالداً .
فأنت يا أبا السعود أفندى ترجم لنا هذا الكتاب وسمه « نظم الآلى فى السلوك ، فيمن حكم فرنسا من الملوك » ؛ وأنت يا خليفة أفندى محمود ترجم لنا « إتحاف ملوك الزمان فى تاريخ شارل كان » ، فإذا فرغت منه فترجم « المشرق فى المنطق » وأنت يا محمد أفندى مصطفى البياع ترجم لنا « مطالع الشمس فى وقائع كرلوس » ملك السويد ؛ وأنت يا أحمد أفندى عبيد ترجم لنا « الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر » وهكذا .

واسمعوا ما يقوله هذا الأخير فى كتابه ، لأنه يدل على منهج العمل : كنت تحت إرشاد مدير مدرسة الألسن ، المؤيد برعاية الملك المبدى ، السيد رفاعة أفندى ، فأجاد تربيتى كغيرى ، حتى حسن حالى وسيرى ، وتعلمت بإرشاده اللغتين الفرنسية والعربية ... فبعد أن رأى فى التعليم حسن حالى ، واجتهادى فى نيل المعالى بين أمثالى ؛ اقتضى رأيه المؤيد وحزمه المعضد ، أن أترجم كتاباً من كتب التاريخ ، فاختار ملكاً من ملوك الإفرنج تعلو همته على المرنج ، وهو تاريخ بطرس الأكبر ، الذى فضله أشهر من أن يذكر ، لمؤلفه الشهير المسمى فولتير ، الذى يعد بين أكابرهم أعظم حجة ، وإن كان عن الأديان بعيد المحجة ، فجاء التعريب بحمد الله على أحسن حال ، وأنتم منوال ، وقد شرعت فى نقله من الفرنسية إلى العربية ، مع إعانتته لى فى حل مشكلاته ، وما عسر على من غوامضه ومعضلاته ... وقد صرفت فى ترجمته على صعوبته الهمة ، وسهرت فى مطالعته وفهمه الليالى المدهمة ... مع ما يضاف إلى ذلك من كون هذا التاريخ معدوداً من التواريخ السياسية المشحونة بالوقائع والحوادث البوليائية ، ومؤلفه من كبار المتفلسفين من العيسوية ، ومن عظماء فصحاء الدولة الفرنسية ، ولا أقول مع ذلك إنه خلى من الخلل ، أو عرّى من الخطل ، فإن ذلك ليس

في طاقة الإنسان ، الجامع في اشتقاقه حروف النسيان .

وبعد سنوات تخرجت هذه الدفعة الأولى ، فشهدت مصر منها نموذجاً لم تشهده من قبل ، شباب متعلم لغة عربية ولغة أجنبية ، ومثقف ثقافة أدبية — جغرافية وتاريخية . وكل ذلك تعلمه في مصر لا في أوروبا ، ولذلك تلقفتهم المصالح المختلفة التي تحتاج إلى هذا النمط من الموظفين ، فكنت ترى — فيما بعد — هؤلاء المتخرجين في الدفعة الأولى ، يشغلون مناصب هامة مختلفة ، هذا عبد الله أفندي أبو السعود أكبر رجال الترجمة في مصر ، ومدرس التاريخ العام بدار العلوم . وهذا محمد أفندي عبد الرازق كاتب سر الحضرة الخديوية ، وهذا شحاتة عيسى أفندي قد تخصص بعد في العلوم الرياضية والحربية ، وكان ناظر مدرسة أركان حرب ، وهذا أحمد عبيد أفندي وكيل مجلس التجار بالمحروسة ، وهذا حسن فهمي أفندي وكيل السكك الحديدية بالأقطار الصعيدية ، وهذا السيد عثمان الدويني القاضي ، وهذا مصطفى رضوان مدرس اللغة الفرنسية بمدرسة الطب ، الخ الخ ، ولو رأيتهم يوم دخلوا المدرسة بجلايبهم وسداجتهم ورأيتهم يوم تخرجوا بعد سنوات قلائل ، لأخذ منك العجب كل مأخذ ، وهتفت بحياة « الشيخ رفاعه » .

وقد استفاد هو نفسه من هذه التجربة الأولى ، فأخذ يصلح الأخطاء ويوسع الاختصاص وينوع العمل .

فألحقت بمدرسة الألسن مدرسة تجهيزية تعد الطلبة للدخول بها بدل أبناء المكاتب ، وأدخلت اللغة الإنجليزية ضمن اللغات التي تدرس فيها ، وتوسع في قبول الطلبة حتى بلغ من فيها مائة وخمسين طالباً ، وأنشئت بالمدرسة فروع مختلفة ، مدرسة فقه وشريعة إسلامية يدرس بها القانون الفرنسي والفقه الإسلامي ، ومدرسة محاسبة ومدرسة إدارة أجنبية ، وكل هذه المدارس

يسوسها ويديرها الشيخ رفاعه ، ويحل فيها المصريين أساتذة محل الأوروبيين .
 سبع عشرة سنة يعمل في هذه المدارس كالتحفة لا يملّ ، فأمر إدارية ،
 وقيام بترجمة كتب ، وإشراف على ما يترجمه غيره ، وفي كل حين يُضم إليه عمل
 آخر جديد ، فيعهد إليه الإشراف على جريدة الوقائع المصرية ، والكتبخانة
 الإفرنجية ، ومخزن عموم المدارس ، ويفتش على المدارس ، ويشرف على الامتحانات
 العامة في آخر السنة ، ويحبر الخطب تخطب فيها ، حتى كوّن جيلاً جديداً هو
 — من غير شك — أثر مجهوده ونتيجة إخلاصه ، وتغير وجه مصر من الناحية
 العلمية والأدبية ، فجملة ما ألفه وترجمه هو وتلاميذه بين مطبوع وغير مطبوع ،
 نحو ألفي كتاب ، هي خيرة نهضتنا ، وعماد ثقافتنا . يدين له رجال الأدب بما كوّن
 لهم من أمثال إبراهيم بك مرزوق الناظم النثر المشهور ، ومحمد عثمان جلال ، صاحب
 العيون اليواظظ ومترجم قصص Lafontتين ؛ وقبول ووردجنة الخ ، وصالح مجدى ؛
 ويدين له رجال القانون بما أخرج لهم من أمثال قدرى باشا مقنن الشريعة
 الإسلامية بكتبه الأحوال الشخصية ، وقانون العدل والإنصاف ، ومرشد الحيران ؛
 ويدين له الرياضيون بأمثال محمد بك الشيمى وتأليفه فى الحساب والهندسة ،
 إلى ما لا يحصى من رجال الفكر فى كل فرع من فروع العلم .

زهت له الدنيا ، فهو ناجح فى عمله ، والولة مقبلون عليه مقدرون لجهده ،
 والمنح تتوالى عليه ، فكلما تقدم تلاميذه ومنحوا ألقاباً لم يرض أولو الأمر
 إلا أن يمنحوه ألقاباً أعلى منهم ، حتى تقدم مرة بجزء آخر من ترجمة كتاب ملطبرون
 إلى محمد على باشا فمنحه رتبة ميرالاي ورفع مرتبه إلى ١٣٠٠٠ قرش صاغ فى
 الشهر ، ومنحه ٢٥٠ فداناً فى بلده طهطا إحساناً بإحسان .

ولكن الدنيا لا تدوم على حال ، والعيش — أبداً — حلو ومر ، « والدهر

ذو غلظة حيناً وذولين « ؛ فهذا عباس باشا الأول يأتى فيقف حركة التعليم ويبطل المصانع والمعامل ، رغبة — فيما زعم — فى الاقتصاد ، ولم يبق للتعليم إلا مدارس قليلة جداً ، وكان فيما ألقى مدرسة الألسن والشيخ رفاة ، وإذا كان الشيخ أكبر منبع للتعليم ، كان أحق الناس بالقت ، وإذا كان أحبَّ شىء إلى الشيخ العلم والتعليم ، فأبغض الناس إليه من يلغى العلم والتعليم . وجاء رجال السوء الذين يزينون للرؤساء كل ما يهْوَوْنَ ، ويخترعون المنطق لكل ما يرغبون ، فإذا قالوا أسود ، أتوا إليهم بألف دليل على أنه أسود ، وإذا قالوا أبيض ، أتوا إليهم بألف دليل على أنه أبيض ، وإذا قالوا أسود أبيض لم يعدموا ألف دليل آخر على أنه أسود أبيض . كالذى يروى أن طاهياً سأل سيده يوماً :

ماذا نطبخ اليوم ؟

السيد — والله لا أدرى ، أنطبخ باذنجانا ؟

الطاهى — الله — نعم ما ذكرت ، إنه لذيذ الطعم ، مفيد للجسم .

السيد — ولكنه يتعب معدتى :

الطاهى — صدقت ، ما أثقله ، وما أعسر هضمه ، وما أقل فائدته .

السيد — يا رجل ! إنك من لحظة تمدحه وتقر بفائدته ؟

الطاهى — اسمع يا سيدى — أنا خادمك أو خادم الباذنجان ؟

كذلك شم هؤلاء رغبة الوالى فى إقفال المدارس ، فاستطاعوا أن يجدوا ألف دليل على ضرر العلم وضرر التعليم ، وطعنوا فى الشيخ رفاة بأنه قليل الفائدة ، عقيم الطريقة .

فإذا الأمر يصدر بنفيه إلى الخرطوم تحت ستار إنشاء مدرسة ابتدائية هناك وتعيينه ناظرها ومعه طائفة من المغضوب عليهم ولا الضالين . ولم يكن الأمر أمر اختيار كما هو شأننا اليوم ، نقبل الوظيفة أو نرفضها ، إنما الأمر أمر جزم

يقبل الوظيفة ، أو ينفي إلى أسوأ من الخرطوم بلا وظيفة .

الشيخ في الخرطوم بعد باريس ، ولم تكن الخرطوم كما نعهد اليوم ، نظافة شوارع ، وجمال مساكن ، ومدنية وأبهة ، إنما كانت مدينة صغيرة لا عناية فيها بالصحة ، ولا وسائل متوفرة للعيش ، وهو ناظر مدرسة ابتدائية في السودان بعد أن كان ناظر التعليم كله في مصر ، وكل يوم يتخطف الموت أحد معاونيه ، حتى لم يبق إلا نصفهم أو أقل ، والشيخ يستغيث ولا مغيث ، فيشفى غليله في قصائد الاستغاثة ، يستغيث أولاً بالأمرء ، فإذا فشل استغاث بالأولياء والأنبياء ، ها هو يستغيث — أولاً — بحسن باشا كتحدا مصر بقصيدة في ستة وثمانين بيتاً ، يصف فيها الوشاة فيقول :

مهازيل الفضائل خادعوني وهل في حربهم يكبو جوادى ؟
وزخرف قولهم إذ موهوه على تزييفه نادى المنادى
قياس مدارسى — قالوا — عقيم بمصر ، فما النتيجة من بعادى ؟
ويعجب كيف يقوم لمصر بمثل هذه الأعمال ثم يجازى مثل هذا الجزاء .
على عدد التواتر مُعْرَبَاتِي تفي بفتون سلم أو جهاد
ومُطَبَّرُونُ يشهد وهو عدل ومننسكو يقرُّ بلا تِمَادِي
ومُعْتَرَفُو قَرَّاحِ فَرَاتِ درسى قد اقترحوا سقاية كل صَادِي
ولاح لسان باريس كشمس بقاهرة المعز على عِمَادِي

رحلت بصفقة المغبون عنها وفضلى فى سواها فى المِزَادِ
وما السودان قط مقام مثلى ولا سلمى فيه ولا سَعَادِي
ويحز فى نفسه فرقة أولاده :

وقد فارقتُ أطفالاً صغاراً بطهطا دون عَوْدِي واعتيادِي

أفكر فيهمو سرّاً وجهراً ولا سَمَرى يطيب ولا رقادى
أريد وصالهم والدهر يأبى مواصلى ويطمع فى عنادى
وكان الشيخ ما كراً حقاً ، فقد وضع القصيدة على وزن وقافية :
لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى
فلما لم يُجِدْه ذلك أخذ يُحْمَس قصيدة لسيدى عبد الرحيم البرعى فى مدح
النبي مطالعها :

خلّ الغرام لصبٍّ دمعهُ دمه حيران توجِدْهُ الذكري وتُقدمه
يقول فيها :

« رفاعَةٌ » يشتكى من عصبية سَخِرَتْ
لما رأتُ أبحر العرفان قد زخرت
فارفع ظلامه نفس عدلك ادخرت
وهاك جوهر أياتٍ بك افتخرت
جاءت إليك بخط الذنب ترقه

أربع سنوات فى السودان كانت عليه كِسْنى يوسف ، ومع هذا يترجم
فيها قصة « تلياك » ، ويعلم فى مدرسته بعض أبناء السودان وأبناء الموظفين من
المصريين ، وكانت مدرسته نواة لما أنشئ بعد من مدارس ، ولم ينقذه من
نكبته إلا موت عباس وتولى سعيد .

يعود الشيخ رفاة من السودان إلى مصر في أول عهد سعيد باشا ، ولكن لا تعود مدرسة الألسن — فسعيد لم يُعِد نهضة التعليم كما كانت في عهد محمد علي وإبراهيم ، وإن توسّع بعض الشيء عما كان عليه في عهد عباس الأول — وإنما يعود ناظراً ثانياً أو بعبارة أخرى وكيلاً لمدرسة حرية كانت بالحوض المرصود ، وكان ناظرها سيف باشا أو سليمان باشا الفرنساوى — مؤسس الجيش المصرى ومنظمه ، وقائد الجيوش في حروب محمد علي وإبراهيم ، وصاحب التمثال في الميدان المسمى باسمه — وكان جباراً عنيداً ، وقف أمام نابليون وهو ضابط قتال : هل أنت سيف الذى حدثونى عن غطرسته ؟ فأجاب : إذا كان هذا كل ما تريد أن تقوله لى عدت إلى فرقتى ، ثم أعطى ظهره له ورجع إلى مكانه ، فرقاه نابليون لجرأته ؛ وهو الذى عمل الأعمال الحرية العظيمة في مصر ، من تمرين المماليك ثم تمرين المصريين حتى حذقوا الحرب وتفوقوا على الجيش العثمانى ؛ هذا هو الناظر الأول الذى عين ناظره الثانى الشيخ رفاة فأعجب لهذا الوضع الذى لا مبرر له إلا أن الشيخ رفاة « ميرالاي » .

ومع هذا فقد وسّع « الشيخ » نفوذه العلمى . فوضع مشروع مدرسة بالقلعة تدرس فيها الفنون الحرية والمدنية وأقره عليها سعيد باشا ، فاختار لها المدرسين ، وراعى فى كل ذلك ما يشوق الأهلى للإقبال عليها وإدخال أبنائهم فيها ؛ ثم امتد نفوذه فأعيد قلم الترجمة ، وهو أشبه شيء بمدرسة الألسن ، وجعل مشرفاً عليه ؛ وأحيلت عليه نظارة مدرسة المحاسبة والهندسة الملكية والمعمارية ؛ وأحبه سعيد باشا وقرّبه جداً إليه ، واستمد الشيخ منه نفوذه يوجهه فى التعليم ونشره .

وهنا ذكر الشيخ عهده بالمستشرق ده ساسى ، والمستشرق كوزن ، وما يقوم به المستشرقون من أعمال قيّمة في خدمة اللغة العربية بنشرهم أمهات الكتب ، فوضع مشروعا للعناية بتصحيح الكتب القديمة القيمة ، وطبعها بمطبعة بولاق ، وعرضه على سعيد باشا فأجازه ؛ وجرد الشيخ محمد قطة العدوى ، والشيخ إبراهيم الدسوقي ، والشيخ نصر الهورينى وغيرهم ، واشترك معهم فى اختيار الكتب التى تطبع والقيام على تصحيحها وطبعها ؛ فطبع بإرشاده تفسير الفخر الرازى ، ومعاهد التنصيص ، وخزانة الأدب ، ومقامات الحريري ، وغير ذلك من الكتب الدينية والأدبية والتاريخية ، فكان هذا دعامة أخرى من دعائم النهضة : تأسيس الكتب بعد تأسيس الرجال ؛ وأعانته على ذلك معرفته الواسعة بالكتب العربية وغرامه باقتنائها ، وإنشاؤه لنفسه مكتبة واسعة غنية بالمواد .

لم تكن كل الأمور ميسرة كما نراها اليوم ، بل كان الطريق لكل عمل وعراً محفوفاً بالمصاعب ، وإنشاء مدرسة أو إلغاؤها منوطان بالوالى نفسه ، فلا بد من قصائد مديح ودعوات صالحات وملق أنيق ، تُقدّم للوالى فى لفائف من حرير لينشئ مدرسة ، ولا بد فى أول الكتاب وآخره من ثناء مستطاب ، ودعاء للأبجال ، وتزلف لمدير المطبعة ونجله ليتم طبع الكتاب ، ولا بد ولا بد فى كل شئ من كل شئ ؛ والشيخ ماهر فى كل ذلك ، يعرف من أين تؤكل الكتف ، ويأتى البيوت من أبوابها ، فيسهّل عسيرها ويحلّ عقدتها .

ومسائل العلم نفسها عسيرة كمسائل الولاة والأمراء ، فالعلم الحديث قد تقدم ، والعلم العربى قد وقف منذ سبعة قرون ، وهو إذا أراد ترجمة كتاب حديث اصطدم بالمصطلحات : ماذا منها عرفه القدماء وماذا منها لم يعرفوه ، وماذا يضع

من الكلمات لما لم يُعرف ، هل يضع الكلمات الأجنبية كما هي بعد صقلها صقلا عربيا ، أو يبحث لها عن لفظ عربي ؟

لقد حيرَه ذلك منذ كان في باريس وعند ما عُهد إليه ترجمة كتاب في « الفولكلور » أو عادات الشعوب ، سماه « قلائد المفاخر ، في غريب عوائد الأوائل والأواخر » ، يتمرّن فيه على الترجمة ، فاصطدم بأسماء البلاد الإفريقية والرجال والأشياء ، وكان هو لم يعرفها فيرجع إلى المعاجم التي تشرحها ، فبم يترجمها ؟

لقد اهتدى إلى فكرة لطيفة ، هي أن يجعل للكتاب ملحقا يضمّنه كل الأسماء الإفريقية التي وردت في الكتاب ويرتبها على حسب حروف المعجم ، ويضع لها اسما مأخوذاً من اللفظ الإفريقي ، ويصقله صقلا عربيا : فللبرازيل « إبرزيلة » بسكون الموحدة وكسر الراء بعدها مشاة تحتية فزاي مكسورة فلام فتاء تأنيث ، ثم يأخذ في شرحها وتاريخها ؟ وأوميروس أو هوميروس ، ويضبط الكلمة ويعرّف به ؛ وكذلك البارومتر ، والسبكتاكل ويقال له التياترو اسم للعبة ببلاد الفرنج يلعب فيها تقليد سائر ما يقع ، ويأخذ في شرحها في نحو صفحة ، وهكذا .

ويود أن كل مترجم كتاب يجرّد هذه المصطلحات ويعربها كما فعل ، ويجمعها في أول الكتاب أو آخره حتى يكون للغة العربية بعد ذلك معجم جامع لكل المصطلحات الإفريقية ، وأسماء البلاد والأشخاص والأشياء ؛ وهذا نص كلامه العجيب : « وقد شرحنا الكلمات الغريبة التي توجد في هذا الكتاب وعربّاها بأسهل ما يمكن التلفظ به ، حتى يمكن أن تصير على مدى الأيام دخيلة في لغتنا كغيرها من الألفاظ المعربة عن الفارسية واليونانية ؛ ولو صنع نظير ذلك في كل كتاب ترجم في دولة أفندينا ولي النعم الأكرم

لا تتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتبة على حروف الهجاء ، ونظمها فى قاموس
مشمتم على سائر غريب الألفاظ المستحدثة التى ليس لها مرادف أو مقابل فى
لغة العرب ، فإن هذا مما يفيد التسهيل على الطلاب ، وبه تحصل الإعانة على
فهم كل علم أو كتاب .

أمنية تمنها ، وخطة أملاها منذ ١١٦ سنة ، لو سرنا عليها لحللنا أكثر
مشاكل التعريب التى نعانيها اليوم .

وظل يكافح فى هذا الباب كفاح الأبطال فقد عهد إليه منذ عودته
بأعمال مختلفة تتصل بعلوم مختلفة ، فأخذ فى كل منها يواجه مشكلة مصطلحاتها ،
ويضع ما ندين له ببعضها اليوم — يترجم فى الهندسة ويضع بعض مصطلحاتها ،
وكذلك فى الطب ، والجغرافيا ، والتاريخ ؛ ويترجم القانون المدنى الفرنساوى
ويضع مصطلحاته ، وهكذا .

بلغ « الشيخ » أوجه فى عهد إسماعيل لما عادت الحركة العلمية قوية نشيطة ؛
بلغ أوجه المالى ، فقد منحه إسماعيل ٢٥٠ فداناً أخرى ، فبلغ مجموع ما منحه
٧٣٦ فداناً ، واشترى هو ٩٠٠ فداناً أخرى ، فكان ما يملكه ١٦٣٦ فداناً ،
غير العقارات العديدة فى القاهرة وطهطا ؛ فقد كان فى عهد يكافأ فيه الرجل النافع
بما يوسع رزقه ، ويوفر جهده لعمله ؛ ومع ذلك فهذا الباب أنه مقوماته ، فقد
ذهب الشيخ رفاعة وأصبحت أطيانه الموقوفة مصدراً لنزاع لا ينتهى ، ولم يخلده
إلا بمجوده العلمى وآثاره الباقية

ويبلغ أوجه العلمى ، فهو عضو من أعضاء « قومسيون المدارس » ، يضع
برامجها ، ويشرف على التعليم والامتحان فيها ، ويقول فيه على باشا مبارك :
« كانت مجامع الامتحان لا تزهر إلا به » ، وهو ينشئ أول مجلة مصرية هى

« مجلة روضة المدارس » ، يلتف حوله في تحريرها أدباء مصر وعلمائها .
ويرى أن ليست هناك كتب للمدارس تصلح لمواجهة النهضة الجديدة
والعقلية الحديثة ؛ فالكتب الأزهرية لا تناسب الطلبة ، والكتب الأدبية القديمة
مملوءة بالغث والسمين ، والدنيا كلها تؤسس تعليمها على النعرة الوطنية ، والتعريف
بمزايا الوطن وتاريخه ، وتستنهض هم الناشئين لخدمته ، ولا شيء من ذلك في
الكتب العربية .

إذن فليقم هو بكل هذه المهمات .
يؤلف كتاباً في النحو على نمط جديد ، محتدياً فيه حذو الفرنسيين في
تسهيل أجروميتهم ، ويسميه « التحفة المكتبية » في القواعد والأحكام
والأصول النحوية بطريقة مرضية ، ويضع بعض القواعد في شكل جداول
يسهل حفظها .

ويضع لمطالعة المدارس كتاب « مباحج الألباب المصرية في مناهج الآداب
العصرية » ، وهو أول كتاب عربي ينزع إلى الناحية الوطنية ، فيذكر معنى
الوطن ، ومصر ومزاياها ؛ وتشغل ذهنه المنافع العامة فيخصص لها أكثر
الكتاب ، فيذكر كيف تؤدّى في البلاد المتقدمة ، ونبدأ بما قام به بعض رجال
المسلمين في سبيل المنفعة العامة ، وواجب الأغنياء ، وكيف يربي الأولاد ، وفصولاً
في الاقتصاد المصري : من منابع الثروة وتقسيم الأعمال إلى منتجة للأموال وغير
منتجة ؛ ويعود إلى المنافع العامة ويقسمها ويبين تاريخها في الأمم وتاريخ مصر
إزاءها إلى عهد محمد علي ، ويذكر الإصلاحات التي عملها ، ثم يذكر الآمال التي
يأملها في المنافع العامة في المستقبل .

ثم خاتمة فيما يجب للوطن الشريف على أبنائه من الأمور المستحسنة .

وهو — في كل ذلك — يجمع بين ثقافته الإسلامية وثقافته الفرنسية .

وينزع إسماعيل إلى تعليم البنات ، وتنشأ أول مدرسة لهن في مصر ، ولا يرضى عن ذلك الرأى العام المصرى المتدين ، فيقف الشيخ رفاعة في كتبه يجذب تعليم البنات ، ويردُّ حُجج المعارضين ، فيقول : « ينبغى صرف المهمة في تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرة الأزواج ، فتتعلّم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلاً ، ويجعلهن بالمعارف أهلاً ، ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأى ، فيعظمُن في قلوبهم ... وليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأعمال والأشغال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها ... وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل ، وقلوبهن بالأهواء ، وافتعال الأقاويل ؛ فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ؛ وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال ، فهي مذمة عظيمة في حق النساء ، فإن المرأة التي لا عمل لها تقضى الزمن خائضة في حديث جيرانها ، وفيما يأكلون ويشربون ، ويلبسون ويفرشون وفيما عندهم وعندها ، وهكذا . وأما القول بأنه لا ينبغى تعليم النساء الكتابة ، وأنها مكروهة في حقهن ارتكاناً على بعض الآثار ، فينبغى ألا يكون ذلك على عمومه ؛ ولا نظر إلى من قال إن من طبعهن المكر والدهاء والمداهنة ، فتعليم القراءة والكتابة ربما حملهن على الوسائل الغير المرضية ... مثل هذه الأقوال لا تفيد أن جميع النساء على هذه الصفات المذمومة ، وكمن نهى وردت به الآثار كمقاربة السلاطين والتحذير من الغنى ، وقد حُمِل كل ذلك على ما يعقبه شر وضرر محقق ؛ وتعليم البنات لا يتحقق ضرره ، وكيف ذلك وقد كان من أزواجه صلى الله عليه وسلم من يكتب ويقرأ ، كحفصة وعائشة : الخ الخ .

أست ترى معى أن هذه نظرة صادقة ، ودعوة جريئة كانت قبل « قاسم

أمين « بنيف وثلاثين عاماً؟ ! وقد ملأ « الشيخ » هذا الفراغ بتأليف كتاب للمطالعة يصح أن يوضع في يد الفتى والفتاة ، سماه « المرشد الأمين للبنات والبنين » .

وقد يكون شعر « الشيخ » ضعيفاً أشبه ما يكون بشعر الفقهاء ، وقد لا يبلغ في نثره مبلغاً عالياً ، فكثيراً ما يتعثّر في السجع المتصنع ، ويشد أنواع البديع شداً ؛ وينبو ذوقه أحياناً في كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » في تعرضه لموضوعات لا يصح أن توضع في يد البنات ، كفصله في « البكارة والثيوبة » ونحو ذلك ولكن من العدل إذا قسناه أن نقيسه بزمنه ، وبمن قبله لا بمن بعده — فقد نشأ في زمن يُعدّ فيه « من فك الخط » كاتباً ، وعالم الأزهر الذي يقرأ « المطول » و « الأطول » في البلاغة لا يحسن أن يكتب خطاباً لأُمَّه أو أبيه .

على أن قيمة « الشيخ » الكبرى ليست في أسلوبه ، أو شاعريته أو تأثيرته ، إنما هي في أنه نشر العلم في أوساط فسيحة ، وأسس نهضة علمية متوثبة ، وفتح للمتعلمين آفاقاً واسعة لم يكن لهم بها عهد ، وذوّقهم معنى العلم الصحيح ، وشوّقهم للاستزادة منه ، وبصّروهم بعيوبهم ، وأبان المناهج لتكميل نقصهم ؛ وليس ذلك بقليل على رجل .

أربعة وأربعون عاماً تقريباً منذ عاد من باريس وهو في هذا العمل الدائب والحركة التي لا تنقطع في التعليم والتأليف والترجمة والنشر ، حتى أوفى على الخامسة والسبعين ، وقد دهمه الدهر الذي لا يرحم ، فلقع بالشيب رأسه ، وأحنى قوسه .

وفي ليلة فاجأه مرض « البروستاتا » أو التهاب المثانة فعولج حتى شفى ، ثم

عاوده واشتد عليه ؛ وفي أول ربيع الثاني سنة ١٩٢٠ ، ٢٩ مايو سنة ١٨٧٣ حصر بوله ، تسم دمه ، أسلم خالقه روحه — سرى البرق بنعيه — اهتزت مصر لموته ، احتشد لتشييع جنازته الألوف المؤلفة من رجال المعارف والأسماء والنبلاء وتلاميذ المدارس . ازدحمت الشوارع بالناس يردون بعض جميله : يذكروه الأزهريون على أنه ابنهم ، والمتعلمون المدينون على أنه أبوهم ، والجالية الفرنسية على أنه أخوهم ، والمصريون كلهم على أنه مؤسس نهضتهم ؛ وكلهم يتوجع لفقده ، ويشيد بذكوره . وسار المشهد من منزله بالمهمشا ، حتى إذا قارب المدينة كان ينتظره شيخ الأزهر وعلماءه وطلبته ، فاشترکوا في تشييع جنازته ، ووضع النعش في القبلة الجديدة ، ولا يكون ذلك إلا لعظيم ، وأخذ الأفاضل في رثائه بالقصائد والخطب ، ثم حمل إلى « بستان العلماء » ، حيث طويت صحيفته ، وبقيت آثاره خالدة تعظم وتزايد وتتوالد — رحمه الله ، فقد صنع لأمته كثيراً .

تقدير الجمال

عجب بعض الناس إذ ذكرت أن الشيخ رفاعه الطهطاوى — الرجل الأزهرى الصالح تغزل فى صوت النواقيس حينما رست سفينته على « ناپولى » ؛ وعجب صديقى الدكتور إذ سمع منى لأول مرة إعجابى بجمال عيون سيدة كانت تعلمنى ، ونقدنى بعض إخوانى أن أذكر مثل هذا فى بيئة أكثر فيها الخلعاء من ذكر الجمال وصور الجمال ، حتى استهتر الشباب وانغمسوا فى اللهو ، وأفرطوا فى التهتك . قالوا — فالواجب يقضى أن نصدهم عن هذا التيار ، ولا نجاريهم فى هذا الميدان ، ولا يأتى ذكر الجمال على لساننا ، فإنهم إذا اتجهوا للجمال لم يقفوا عند حد ، وجرفهم التيار حتى يغرقهم . ورأى أنه يجب ألا يفتح هذا الباب ؛ وكأن الفضيلة عنده أن يكون الإنسان حجراً لا يأنس بجمال ، ولا ينفر من قبح ، وكأن من يقدره يرتكب جريمة يجب أن يتستر منها . وفى رأى أن شرور العالم كلها تنشأ من سوء تقدير الجمال لا من حسن تقديره ، والذين يستهترون ويفرطون فى اللهو إنما أتاهم ذلك من قصر نظر إلى الجمال ، لا من سعة نظر فيه ، ومن انحطاط فى فهمه ، لا من سمو فى إدراكه — ومن الخطأ أن نعد الجمال من كاليات الحياة فإنه من ضرورياتها ، وأن نعدّه متعة من متع ساعات الكسل والفراغ ، فإنه لا بد أن يملأ حياتنا ؛ ومن قصر النظر أن نقصره على أنواع من الزينة ، وعلى ضروب من الأشكال ، وعلى أنماط من المظاهر ، فمداه أوسع من أن يحده حد ، وهو أعمق من أن يكتفى فيه بالسطح ، وهو أقوم من أن يكون ملهى فى لحظات من الحياة .

ما الدنيا إذا فقدت الجمال ، وفقدنا شعورنا بالجمال !؟ إنها — إذن — لا تستحق الحياة فيها ساعة ، فما يقومها ويجعلها تستحق البقاء إلا أن كل شيء فيها مُزج قصدُ النفع منه بقصد التجميل : « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ، والخليل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون » .

لولا الجمال والشعور به لبقيت الكهوف والمغارات هي مساكن الإنسان الآن كما كانت مساكن الإنسان الأول ، ففيها كل الغناء في أنها تقى الحر والبرد ، وتسد الحاجة ، وما طورها هذا التطور البديع إلا القصد إلى التجميل ، وعن هذا نشأ فن المعمار وهندسة البناء والمدن ، ولولا الجمال لكانت البيوت حجارة مرصوصة في غير نظام ولا ترتيب ، ولا فرق بين أعظم المدن وأحقر بيوت الفلاحين إلا الجمال والشعور به والقصد إليه .

ولولا الجمال ما كانت الحقائق والبساتين ، ولا كان حب الأشجار والأزهار ، ولا كان هناك فرق بين رائحة البنزين ورائحة الياسمين ، فما فرَّق بينهما إلا الشعور بالجمال ؛ بل ولا كان فرق بين لون الجراد والقنفذ ، ولون الطاووس والقراش ، ولا نعدمت تماماً مملكة الألوان بما فيها من زينة وإبداع .

ولولا الجمال لاختفى كل فن ، فلا أدب ولا تصوير ، ولا نقش ولا موسيقى ، ولا اختفى كل أسماء الفنانين ، ولما كان أبو نواس والمتنبى ، والجاحظ والحريري ، وشكسبير وموليير وجوته ، ولا إسحاق الموصلي وبيتهوفن ، ولا رفائيل ، إلا أسماء ميتة لدلولات ميتة ، ولكانت أصوات سوق النحاسين كموسيقى أشهر الموسيقيين ، ولكانت أصوات البوم والغربان كأصوات البلبل والكروان ؛ ولا كانت كتب إلا كتباً في التجارة والحياة العملية ؛ بل وما كان الإنسان

إلا آلة حقيرة ، يعمل وينتج ويستهلك كآلة النسيج أو آلة الطباعة ، على شرط ألا يكون في نتائجها أثر من آثار الزينة والجمال .

ولولا الشعور بالجمال ما كان في كل ما حولنا من مناظر طبيعية جمال : فشروق الشمس وغروبها ، وبريق النجوم ولعانها ، والبحار وأمواجها ، والسماء وزرقتها ، لا قيمة لها في نظر فاقد الشعور بالجمال ، كما لا قيمة لها في نظر العميان .

دقق النظر فيما شئت من مأكلك ومشربك وملبسك ومسكنك ، ترأى الاحتفاء فيها بالجمال أضعاف الاحتفاء فيها بالمنفعة ، ولولا ذلك لقنع من مأكله ببرشامة ، ومن ملبسه بما يقيه الحر والبرد من أى صنف ولون ، وعلى أى وضع ، وهكذا .

فإن أنت انتقلت من الحسيات إلى المعنويات ، رأيت جمالاً سامياً ، وحسناً فائقاً ، فللعدل جماله ، وللحق جماله ، وللتضحية جماله ، وللشجاعة جماله ؛ ولو أنت قدرت كل ذلك بميزان المنفعة وحدها لضاع منها أكبر قيمتها ، وكنت كمن يقدر الوردة الجميلة بثمرها ، والشجرة الجميلة بغلتها .

إن تقدم الإنسانية في المدنية والحضارة ، والدين والعلم ، والاختراع والخلق ، يدين للشعور بالجمال أكثر من أى شئ آخر ، فلولا ما تحرر الإنسان من سيطرة الطبيعة عليه ، ذلك أنه لما استيقظ في نفسه الشعور بالجمال نظر إلى العالم حوله نظرة عجب وإعجاب ، فكان هذا مفتاح بحثه ، ومفتاح علمه ، ومفتاح فك القيود التي قيدته بها الطبيعة ، بل ومفتاح تحرره من القيود الثقيلة التي قيدته بها النظام الاجتماعي من استبداد وظلم واعتساف . لقد تنبه شعور الإنسان بالجمال رويداً رويداً ، فرأى وجه الظلم قبيحاً فنفّر منه ، ووجه الرق ذمياً فاشمأز منه ، بقدر ما استجمل العدل والحرية والإخاء والمساواة ، فهانت عليه التضحية

في سبيل جمالها ؛ ولولا شعوره بهذا الجمال لكان هو والحيوان سواء . فلئن كانت السلطات المختلفة — دائماً — ننسج حبال الأغلال ، فالشعور بالجمال يعمل — دائماً — على نقض ما أبرمت ، وفك ما غلّت .

والفرق بين أمة راقية وأمة منحطة هو الشعور بالجمال ، هو ينظفها ، وهو يمدّها ، وهو ينظم مدنها ، وهو يرقّي عقلها ، وهو الذي يحقق العدل فيها ، وهو الذي يحسن العلاقة بين أفرادها ، وبين أفرادها وحكوماتها ؛ فامنحنى الشعور بالجمال تمنحنى كل شيء ، واحرمنيه أحرم كل شيء — ولو أنصف رجال التربية ملأوا برامج المدارس بما يربّي الشعور بالجمال ، كما ملأوه بما يربّي العقل — في زعمهم — ورحم الله مربّيتي الإنجليزية ، فقد كان أكبر همّها أن تزين حبرتها بالأزهار الجميلة والصور البديعة ، ومن حين لآخر تغير أوضاعها حتى تجدد ذوقها ؛ فإذا دخلت الحجرة ولم ألحظ ذلك التغير ، ولم أبدأ الحديث بتحبيذه أو نقده ، صرخت فيّ قائلة : « يجب أن يكون لك عين فنيّة ، وأذن موسيقية » .

قد يفسد الدين رجال الدين ، فيضطهدون العلماء ، ويعذبون الفلاسفة ، ويقىمون محاكم التفتيش ، ويشعلون نار الحروب الصليبية ، ويتعصبون تعصباً زريّاً ، ولا ينقذ الإنسانية من هذا كله إلا الشعور بالجمال ، يستقبح العصبية ، ويستجمل التسامح ، ويسمو بالدين عن السفاسف .

لقد تأسست الأديان — فيما تأسست — على شعور الإنسان بالجمال ، فالكنائس الفخمة البديعة بما فيها من فن ونقش وتصوير وموسيقى ، والكتب السماوية — بما فيها من شعرو فن — كانت عاملاً كبيراً من عوامل الاستجابة للدين . والإسلام — مع بعده عن التصاوير والتماثيل ومحاربه لها — استخدم الشعور بالجمال من واد آخر ، فقد لفت النظر إلى مناظر الطبيعة الجميلة على أنها آية من آيات قدرة الله وعظمته وجلاله وجماله : « ألم تر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء

كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت «
« والشمس وضحاها ، والقمر إذا تَلاها ، والنهار إذا جَلَّأها ، والليل إذا يغشاها ،
والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفسٍ وما سَوَّأها » « إِنَّ فِي خَلْقِ
السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وَالْفُلْكِ التي تجري في البحر بما ينفع
الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها
من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات
لقوم يعقلون » . الخ .

ومعجزة الإسلام الكبرى تتوقف على الشعور بجمال أسلوب القرآن ، وفنه
في أداء أغراضه وحسن تصويره لمعانيه ، وقصده مع هذا إلى جمال البساطة ؛ وم
للبساطة من جمال !

ولما تقدم المسلمون في الحضارة غَدَّوا شعورهم بالجمال من الناحية الدينية
أيضاً ، فجمَّلوا المساجد ، وأدخلوا الموسيقى في الأذان وقراءة القرآن .

ثم الصوفية من كل دين جعلوا أسمى أغراضهم القناء في الحب ، وهل
هناك حب إلا لجمال ؟ إذا رقى الشعور بالجمال في أمة ثارت على كل قبيح في مادة
أو معنى ، ولم تقنع إلا أن يحيط بها الجمال في نفسها وفي بيتها وفي قوانينها وفي
نظام حكومتها ، وفي كل شيء حولها .

وإذا سما الشعور بالجمال في إنسان أدرك أن الفضيلة فضيلة لجمالها ، لا لأى
صفة أخرى . فالجمال انسجام ، والقيح نَشاز ؛ جمال الأدب في انسجام لفظه مع
معناه ، وانسجام ذلك كله مع الكاتب والقارىء ؛ وجمال الموسيقى في انسجام
الأصوات ، وانسجام الأصوات مع النفس ، والشعور المرهف بالجمال يرى الفضيلة
إنما كانت فضيلة لجمالها ، وجمالها أنى من انسجامها مع المجتمع ، وسيرها معه
في طريق الرقى .

قد تصدر الفضيلة عن عرف وعادة ، فتكون عرضة للخطأ والفساد ، ككل عرف وعادة ؛ وقد تصدر عن عقل فيحسب العقل ما في العمل من خير وشر ، ولذة وألم ، ومنفعة ومضرة ، فيكون شأنها شأن كل أحكام العقل فاترة جامدة ، عرضة لأن يلعب بها المنطق الذي يستطيع أن يبرهن على الشيء ونقيضه ؛ إنما القيمة الحقة للفضيلة في أنها تصدر عن عشق وهيام ، ولا عشق ولا هيام إلا عن شعور بالجمال — أمثال هؤلاء هم الذين ضخوا بأموالهم وأنفسهم لعقيدتهم وفضيلتهم وحريتهم ، ولولا العشق ما كانت التضحية ، ولولا الجمال ما كان العشق .

أبعد هذا كله — يا أخى — تنكر على شعورى بالجمال ، وتنصحنى بستره ؟!

في الهواء الطلق

٥

كانت رحلتنا هذه المرة إلى « الأهرام » في ليلة اكتمل فيها البدر ، فصبغ العالم بلونه الزاهي الجميل ، وامتلاً الوادي بفيضان النيل ، فكان في ضوء القمر فضة مذابة ، وَرَقَّ النسيم وراقَّ الجو ، فكان كل ذلك متعة النفس ، وجلاء القلب . وكنا أربعة خامسنا عالماً ، قد تخصص في علم النفس ، ودرسه في مصر وفي أوروبا ، وفي المدارس النظرية والمدارس العملية ، وشغف به حتى شغله عن كل شيء ؛ قليل الكلام إلا إذا عرض شيء نفساني ، فهو يتدفق ويتدفق ؛ وإذا تحدثنا في شخصية من الشخصيات السياسية أو المالية أو العلمية ، أخذ يحللها نفسياً ، ويرجع مظاهرها إلى عناصرها الأولى ، كما نحل نحن عدداً حسابياً كبيراً إلى عوامله الأولية . وإذا روينّا حادثة اجتماعية حدثت ، أخذ يشرّحها وينظر في أعماقها ودقائقها ، كأن هذا العلم وضع على عينيه « مكروسكوباً » دقيقاً . قال له أحدنا : يا دكتور ، هل لك في هذا الجو الهادي الجميل أن نحللنا ، وتشرّح لنا نفوسنا ، وتسَلِّط علينا علمك ومكروسكوبك ، وتقرأ لنا نفوسنا كما يقرأ عالم الكف أ كفنا ، فهذا درس عملي لذيد ، وفرصة سانحة تكشف لنا كثيراً من نفوسنا ، وقد تفيدنا في أخلاقنا .

الدكتور — لاشك أن هذا عمل لذيد مفيد ، وحقيقة إنها لفرصة سانحة ، فقد كنتم أصدقائي منذ صباي ، واطلعت على نفوسكم وتصرفاتكم في المواقف المختلفة ، واختزنت منها الشيء الكثير في ذاكرتي ، مما يسهل لي الحكم عليكم ، ولكنني أخشى أن أغضبكم أو أغضب بعضكم ، فكشف النفس أمر لا يستحب

ككشف الجسم ، وقد يحسن أن يكون ذلك حديثاً منفرداً مع كل منكم ، حتى لا يطلع عليه الآخرون فيألم لذلك ؛ والناس جميعاً في كل مكان يودون أن يظهروا بمظهر الكمال ، وتعزية نفوسهم كشف لعوراتهم ، والناس في مصر أشد حساسية في ذلك ، فهم يكرهون النقد ، ويكرهون الناقد أكثر من غيرهم ، ولذلك ضعف النقد ، وركن الناقد إلى السلامة ، سواء في ذلك النقد السياسي والأدبي والاجتماعي . ولما عدت إلى مصر من أوربا أدركت هذا المعنى في وضوح ؛ فقد بدأت أنقد في مصر كما كنت أنقد في أوربا ، فصدمت صدمة قوية عنيفة جعلتني أتردد في النقد . ولا أدري سبب ما رأيت من تأخر النقد ، فقد كان النقد في مصر أقدر وأجراً منهم اليوم ، ولا يصح تعليل ذلك بالحرب وإعلان الأحكام العرفية ، فإن هذا إذا صدق في السياسة لم يصدق في الأدب والفن ، وحتى قبيل الحرب لم نكن في هذا الباب خيراً منا الآن .

(١) — كيف لا تدري السبب — يا دكتور — وأنت متخصص في علم النفس الفردي والاجتماعي ، ولا إشك أنك صادفت مثل هذه الأعراض وحللتها وشرحتها .

الدكتور — ليس الأمر أمام العالم بهذه السهولة ، فعالم النفوس من أعقد العوالم وأدقها ، وفي كثير من الأحيان كانت تُعرض علينا حالات فردية كنا نحار في تفسيرها — أنا ومن يعمل معي من أساتذتي وزملائي — ونذهب فيها كل مذهب ، وأخيراً نقرر عجزنا عن حلها . هذا في حالة نفيسة فردية ، فكيف في حالة اجتماعية ! ولكن — على العموم — يخيل إلي أن سبب ضعف النقد في مصر وغضب المنقودين يرجع إلى أن رقى الثقافة العامة في أوربا جعلتهم يدركون أن كل فرد له مزاياه وعيوبه ، فإذا كشف عيوب شخص فلا بأس ، فهذا أمر طبيعي ؛ ثم فشوا الروح الرياضية في الأمم جعلهم في ألبابهم يتلقون الضربات

في سماحة ، ويتلقون النقد في سماحة مثلها ؛ ثم إن معدل « مرگب النقص » في مصر أكبر منه في أوربا ، ولذلك كان النقد يزيد في المنقود هنا شعوراً بهذا النقص ، فيغضب ويتألم ، ألا ترى أن الرجل الواثق بنفسه لا يؤلمه النقد كما يؤلم من فقد الثقة بنفسه ، وهكذا ؟ !

(١) — لكن هذا يادكتور يصح أن يكون سبباً في ضعف النقد في مصر عنه في أوربا ، ولكن لا يعلل ضعف النقد في مصر عنه في مصر أيضاً منذ سنوات . الدكتور — هذا صحيح ، وفي ظني أن هذا يرجع إلى أسباب اجتماعية وتاريخية أكثر منه إلى أسباب نفسية ، وإن كانت هذه الأمور مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً كبيراً ، فغلبة الرجعية ، وعدم استجابة جمهور الأمة لدعاة التجديد ، وغير ذلك من أسباب ليس هنا موضعها ، كانت سبباً في ذلك .

(١) — قد خرجنا عن موضوعنا بعض الشيء ، فخلل نفوسنا ، ولك علينا عهد ألا نغضب ، وأنت من جانبك لا تتعمق في مشرطك ، ولا تبالغ في جرحك ، واستعمل الإيماء أحياناً ، والكناية أحياناً ؛ ففي ذلك كفاية .

(ح) — أما أنا فأنصحك أن تقول كل شيء عني في صراحة من غير تلميح ؛ فإن أنت مدحتني وهديت إلى محاسني ومزاياي كان علمك صحيحاً وكلامك صحيحاً ، وإن ذمتني ونقدتني كان علمك سخيلاً وكلامك سخيلاً ؛ وأنا راض في الحالين ، فالحكم عليك لا على .
(ضحك الجميع) .

الدكتور — وليكن ، ولكن اسمحوا لي أن أتكلم كلاماً عاماً بعض الأحيان ، وكل منكم يطبقه — إن شاء — على نفسه . ومن محاسن المصادفة أنكم الأربعة تمثلون أصناف الناس ونماذجهم الأصلية ؛ فأولاً — « اوب » من النموذج الذي يسميه علماء النفس Introversion ، ولا أدري كيف أسميه بالعربية

فمعناه الحرفي « تحويل الظاهر إلى الباطن » ، وهذا الصنف من الناس — عادة — من خصائصه أن يعيش في نفسه أكثر مما يعيش في خارجها ، يميل إلى الدرس والبحث ، فإذا غلب عليه هذا المزاج فهو أميل إلى الفلسفة والعكوف على أفلاطون وأرسطو وسبينوزا وأمثالهم ؛ ومن هذا الصنف أيضاً فريق المتصوفة الذين يغرقون في أنفسهم ويحللونها ويشرحون مقاماتهم وأحوالهم ، هم — عادة — خَجُولون في أوساطهم ، يكرهون المجتمعات والحفلات الصاخبة ، يشعرون شعوراً بالغاً بالألم التافه ، ولا يشعرون شعوراً عظيماً بالفرح العظيم ، يفضلون أن يجلسوا في حجراتهم يحلون مشكلة اجتماعية أو نظرية رياضية على شهود ألعاب رياضية أو حفلة موسيقية .

وأما « ح و د » فمن الصنف الآخر الذي يسميه علماء النفس أيضاً Extraversion ، ومعناه الحرفي « تحويل الباطن إلى الظاهر » ، وهذا الصنف من الناس — عادة — لا يستطيعون الصبر على الخلو إلى أنفسهم مدة طويلة ، ولا يستطيعون أن يصبروا على البحث العميق الطويل ، يحبون الناس واجتماعاتهم ، وقد يشتركون في عمل الحفلات والولائم والإعداد لها ، ويحبون الاشتراك في النوادي ، يلفتون الأنظار إليهم في تصرفاتهم ، ويحبون الظهور ، وأن يكتب اسمهم في الجرائد دائماً — يكرهون الفلسفة واسمها ، ويكرهون العزلة ؛ ويحبون من الروايات الكوميديا ويكرهون التراجيديا ، ويعجبهم من الموسيقى النغمات المرحية ولا تعجبهم النغمات الحزينة ، وهكذا .

ومنشأ ذلك خِلقة وطبيعة وظروف أكثر منها أى شيء آخر .

أتذكر يا فلان (١) أنك كنت ضعيفاً في صغرك ، لا تشترك مع الأطفال في لعبك ! أولاً تذكر يوم كنا في المدرسة الثانوية معا ، وكان إخواننا في الفصل يطلقون عليك لقب « مالك الحزين » ، وقد نما هذا الشعور عندك ، فطلقت

الجمعية ؛ واحتضنت الكتب ، وشعرت بمركب النقص عندك ، ففتحك الطبيعة « التعويض » ، وكان هذا التعويض أن تخلق من نفسك عالماً غير العالم الخارجى تسبح فيه ، ثم نمت عقليتك على حساب الملكات الأخرى ، وعلى حساب الاشتراك مع الأصحاب فى الألعاب والحفلات ، ففتوقت على زملائك فى العلم والعقل ، وضعفت عنهم فى المواهب الأخرى : فى الألعاب الرياضية ، فى الحفلات السارة ، فى الأعمال الاجتماعية ؛ ولترضى نفسك بهذا التعويض قومت الحياة العقلية أكبر من قيمتها ، كما قومت الأنواع الأخرى من الحياة أقل من قيمتها ، ولم تكثف بذلك ، بل سبحت فى عالم من الخيال الفلسفى ، وجعلت مثلك فى الحياة عزلة عن الحياة العملية إلى حياة فكرية مجردة تسخر فيها بحياة الناس العملية — حتى إننا لما دعوناك إلى هذه الرحلة معنا أتيت بضغط يشبه الإكراه . أليس كذلك ؟

وعلى العكس من ذلك أخونا (ح) ، فقد نشأ — كما أعرف وتعرفون — فى صحة جيدة ووسط مؤات ، ولما كان معنا فى المدرسة الثانوية كان رئيس فرقة الكرة ، وكنا إذا فكرنا فى حفلة فهو منظّمها ، وهو المهرّج فيها ، وكان لا يحتبس فى بيته للمذاكرة إلا عند الضرورة القصوى ؛ فلما أتم دراسته كان — كما ترون — رجلاً يعرف الدنيا ، ويلعب بالبيضة والحجر كما يقولون ، لا يعترف بالهزيمة إذا كانت ، يلعب بالحياة كما كان يلعب الكرة فى مدرسته ، إذا غلبت فرقته مرة ضحك ، واستعد أن يغلب فى المرة القادمة ؛ وبينما أخو « ا » يحضر درساً فى حجراته فى نظرية « الأوساط » عند أرسطو ، إذا بأخينا « ح » يطبّق نظرية « الأوساط » فى حفلة رقص .

(ضحك من الجميع) .

(١) — إذن فما رأيك في أخينا « و » ، وأخينا « ب » ، فقد نستيهما وصبيت كل كلامك على « ا » و « ح » .

الدكتور — الواقع أنى لم أنسهما ، ولكن بدأت بالكلام في « ا » و « ح » لأنهما نموذجان متقابلان يشرعان فكرتى في وضوح ، وباقي إخواننا ليسوا إلا صورة مكبرة أو مصغرة منهما ، أو ملوثة لونا آخر غير لونهما ، ولكن الأساس واحد .

فأخونا « و » عكس أخينا « ا » ، أخونا « ا » مصاب بمركب النقص ، وأخونا « و » مصاب « بمركب التسامى » ، وكلاهما عيب ، ومركب التسامى في نظر علماء النفس ليس إلا دخانا كثيفا يلف مركب النقص . فالصواب بمركب التسامى تظهر عليه أعراض معينة ، فهو يشعر بنقصه ، ولكنه يمنع الناس أن يدركوها كما يدركها هو ، ووسيلة ذلك الظهور بالتسامى والظهور بمظهر العظمة ، ألا ترى أن الكلب الكبير حقاً ، العظيم حقاً ، لا ينبع إلا عند الضرورة ، وأما الكلب الصغير الحقير فينبع ويقفز لأنفه الأشياء ، يعلن بذلك عن نفسه ، ويغضى شعوره بنقصه ؟! كذلك الرجل العظيم حقاً لا يفخر بعظمته ، لأنه يشعر أن أعماله كافية في التعبير عنه ؛ والمرأة الواثقة بجهاها لا تبالغ في حليها وزينتها كما تبالغ من شعرت في نفسها بشيء من العيب أو القبح ؛ والغنى الكبير العريق في الغنى لا يتظاهر بما يتظاهر به « المحدث في الغنى » ؛ وهكذا كل شاعر بنقص في ناحية من النواحي يحتاج إلى عمل إشارات كثيرة تجعل الناس يؤمنون به ولا يطلعون على عيبه ، شأنهم في ذلك شأن الطفل الصغير يشعر بالخوف فيأتى بإشارات وحركات يتظاهر فيها بشجاعته . ألا ترون أن صاحبنا يحاول أن يفرض رأيه علينا فرضاً ، ولا يسمح لأحد أن يقترح رأياً بجانبه ، ويريد أن يشعرنا دائماً بشخصه ، وهو الذى اقترح رحلتنا اليوم ونفذه . لا يحاسب نفسه

كثيراً على تصرفه ولا على من اجتاحتهم أثناء سيره ، يضحينا دائماً لطموحه ،
ويشك في قيمة الناس فيكتسحهم !؟

(٤) — « كلب في عينك » قليل الأدب ، لم يبق إلا أن تمثلي بالكلب ،
وما الكلب إلا أنت وعلمك الفارغ ، كلمات تحفظها وتطبقها على ما يصلح لها
وما لا يصلح ، وشقشقة ألفاظ من مركب النقص ومركب التسامي لا حقيقة
وراءها ؛ إن كنت متكلماً حقاً ، فحلل لنا نفسك و بين علاقتها بالكلب .

الدكتور — آسف كل الأسف ، وهذا ما كنت أخشاه من أول الأمر ،
ولكن ما كنت أتوقع أن يبلغ الأمر هذا المبلغ ، فما ذنب طيبب إذا عرض
عليه مريض فرأى عنده سرطاناً ، أيكون منصفاً إذا قال إنه ورم بسيط ،
ولكني نسيت أمراً تعلمته ، وهو أن الإنسان لا يسمح لطبيب النفس أن
يشرّحه ويعين مرضه كما يسمح لطبيب الجسم ، ولهذا سبب ليس محله الآن ،
وكل ما أقوله إني آسف ومعتذر .

(١) غلطتك يا دكتور ليس في التشخيص ، ولا في الشرح ، ولكن في أنك
قد فاتك التعبير الرقيق والتشبيه الفني ، فقد كان يمكنك التعبير عن هذا المعنى
تعبيراً أرق ؛ وأنت يا « د » ليس لك الحق في الغضب ، فقد تعاقدنا أول الأمر
على ألا نغضب ، والجو أماننا فسيح ، وفيضان النيل أماننا بالغ منتهاه ، فخذ
من الدكتور ما يعجبك ، وارم ما لا يعجبك في النيل أو في الهواء الطلق .

(الجميع) — وهو كذلك . فأكمل لنا « ب » ، وبذلك ينتهي الحديث في صفاء
الدكتور — أما أخونا « ب » ، فهذه الفرق في نفسه إلى النزعة الدينية ،
نشأ مرهف الحس في وسط كثير التدبُّن ، ولست أنسى والده وصلاحه وكثرة
صلاته وصيامه ، وامتلاءه عقيدة بحقارة الدنيا ونعيمها ، وكثرة ذكره للموت ،
وتطلعه لحياة أخرى فيها الكمال المطلق ؛ وفي هذا الوسط نشأ أخونا « ب » فما

شعوره القوى بالدين ، وضعف اعتماده على وسائل الدنيا ، فقوى اعتماده على الله . يعتقد أنه يَبْدَقُ في يد القَدَر . يرى أن النفس دائماً أَمَارَةٌ بالسوء ، فهو يتطلع إلى الاستمداد من قوى روحية أخرى تعينه على السلوك المستقيم ، فهو ينال ملاذ الحياة بحذر ، ويخاف من النعيم أن يجره إلى الإثم ، ومن الإثم أن يجره إلى النار ، فخي ضميره وشعوره من هذه الناحية حتى تسلط على كل أفعاله ! فمقياس العمل عنده دائماً الجنة والنار ، أضعف نفسه الخوفُ فهرب من أداء الواجبات الدنيوية ، وركز نظره إلى الحياة الأخرى يضع فيها آماله . ولا أريد أن أطيل حتى لا يغضب أيضاً .

فلعلكم ترون من هذا هذه الفرصة السعيدة التي جمعتنا ؟ وكان اجتماعنا أشبه باجتماع النماذج البشرية كاملة ، فمننا اثنان محكومان بعقلهما ، أحدهما محكوم بعقل منطقي فلسفي ، والآخر بعقل عملي ، ومننا اثنان محكومان بعواطفهما أحدهما محكوم بعواطف دينية ، والآخر بعواطف دنيوية .

ولكن أرجو أخيراً ألا يكون أخونا « ز » لا يزال غاضباً .

(ز) — لا ! هذه فورة وقتية وزالت .

الدكتور — لعلني أستطيع في فرصة أخرى أن أُحَدِّثُكَ وحدك عن سيكولوجية الغضب ، والأسباب التي تدعوك إليه .

(ز) — كلا ، لا أريد سيكولوجيتك ولا تحليلك ، فأنا أعرف بنفسى منك

(١) — ولكن يا دكتور ، هل هذه العناصر الأربعة أساسية غير قابلة

للتحول ، أو يمكن تحويل عنصر إلى عنصر ؟

الدكتور — أرى أنه لا يمكن ذلك ، فلا يمكن تحويل « ا » إلى « ز » .

ولا « ب » إلى « ح » ، ولو أمكن تحويل المعادن إلى ذهب . وكل ما في الأمر

أن هذه العناصر الأربعة ضرورية في الحياة ، نافعة للمجتمع ، ولكل غرض ،

وكل يتخذ لإدراك غرضه أدوات وآلات ووسائل . وما يصبو إليه الأخلاق والمصلح الاجتماعي ليس أن يحول الإنسان من عنصر إلى عنصر ، ولكن أن يُبقى على غرضه وعنصره ، ويحاول أن يجعله يتخذ من الوسائل ما يتفق وصالح المجتمع ؛ فقد يتخذ صاحب الغرض وسائل خسيسة ضارة بمجتمعه لتحقيق غرضه ، فيأتي المصلح ويهيئ الفرص للناس أن يتخذوا لغرضهم وسائل شريفة تفيد المجتمع . فغرض الشهرة — مثلاً — والقصد إلى التسامى ليس شراً في ذاته ، ولكن يتفق في هذا العنصر بعض العطاء جداً وبعض المجرمين جداً : الأول اتخذ وسائله في الشهرة الإتيان بأعمال تنفع أُمته ، والثاني اتخذ وسائله الإجرام ، وشتان ما بينهما وإن اتحد العنصر . والنبي الذي يُبعث ، والمصلح الذي ينبغ ، من أكبر الرجال الذين يعرفون نفسيات الأتباع ، فيعرفون كيف يرشدون كلاً إلى الناحية التي خلق عليها من غير أن يغيروا من تكوينهم الأساسي ، وعنصرهم الأولي .

(١) — ولكن يادكتور كيف تسنى لهذه العناصر المتباينة أن تتصادق ! فنحن كما حالتنا ماء ونار ، وحرارة وبرودة ، وعذوبة وملوحة ، ومع ذلك نحن أصدقاء متحابون لا يستغنى بعضنا عن بعض ، ونشعر كأنا عروة لا تنفصم ، ووحدة لا تتجزأ ؛ إذا غضب أحدها لا يلبث أن يصفو ، وكان مقتضى الظاهر أن تتخاصم وأن تتعادي ، لا أن نتصافى .

الدكتور — لهذا أيضاً سبب سيكولوجي عميق يرجع إلى أصول أبنائها علماء تحليل النفس ، فهل أنتم على استعداد للبقاء هنا إلى الصباح ؟ .

(١) — لا ، ولكن على أن تعدني أن نتقابل غداً وحدنا إذا عاق الآخرين عائق فتحدثني عن سر ذلك ! .

الدكتور — وهو كذلك .

وكانت الساعة قد بلغت الثانية صباحا ، وقد تسلطن القمر في عرشه ،
فركبنا سيارتنا وعدنا من حيث أتينا .

ولما عدت إلى بيتي أبيت إلا أن أقيد أهم ما كان ، حتى لا يطويه النسيان .

٦

تلاقينا كما تواعدنا ، وكنت والدكتور وحدنا ، فلم أشأ أن أشعب الحديث ،
واقترحت الموضوع اقتراما ، فقلت : حدثني — إذن — كيف تكون الصداقة
مع اختلاف الطبائع والأمزجة والثقافة ؛ وقديما قالوا : شبيه الشيء منجذب
إليه — وقالوا : حدثني من صديقك أحدثك من أنت ! ولذلك حيرني أمر
جمعيتنا بالأمس ؛ فقد رأينا فيها متدينًا ومن لا يأبه بدين ، ورجلا نظريا ورجلا
عمليا ، ورجلا يحكم بالعقل ، ورجلا يحكم بالعاطفة ، وعلما وغضوبا ، ومتفلسفا
ورجل مال ؛ فكيف اتفق هؤلاء أن يتصادقوا ، وأن تنعقد بينهم الألفة على
اختلاف منازعهم ومشاربهم ؟ .

الدكتور — لقد علمتنا التجارب أن الصداقة تفرخ تحت حرارة الإعجاب ،
فما لم يكن إعجاب لم تكن صداقة ؛ فأنت تعجب بصديقك من ناحية ما ، أو من
جملة نواح ، وهو كذلك . وهذا الإعجاب من شأنه توسيع النفس والشعور
باللذة فيما تعجب به ، فأنت تتغذى من صديقك بالنواحي التي أعجبت بها ،
وتتلذذ هذا الغذاء ، وتشعر أن نفسك اتسعت لتشرّب نفسه ، وهو يشعر هذا
الشعور نحوه ، وقد تضحى ببعض فوائده ومسرّاتك من أجله ، ولكن هذه
التضحية في الواقع ليست إلا تضحية لذة للذة أكبر منها ؛ فأنت تضحى
— مثلا — بشيء من راحتك أو مالك لصديقك لتنعم بلذة أكبر منها ، وهي
ما تتلذذه من مواضع الإعجاب ، أو ما تتلذذه من تضحية صديقك لك .

ثم هذا الإعجاب من جانب قد يكون مناقضاً للإعجاب من الجانب الآخر ،
فيكون أدعى إلى التصادق ؛ فإذا كنت حسن الحديث ، وكان صديقك حسن
الاستماع ، وأعجبت به لحسن استماعه ، وأعجب بك لحسن حديثك ، كان ذلك
سبباً من أسباب الصداقة ، إذ تلاقت فيكما الرغبتان ، قد شعرت أنت بمركب
النقص عندك في الرغبة الكلامية ، وأحس هو بمركب النقص في الرغبة
السكوتية ، فأعجب كل منكما بصاحبه لأنه يكمل نقصه . فليس صحيحاً دائماً
أن شبيه الشيء منجذب إليه ، بل قد يكون التناقض سبب الانجذاب ،
كالجذب السالبة والموجبة ؛ ومثل هذا في الحياة الواقعية كثير ، فكثيراً
ما يقع اختيار الزوج على زوجته لأنه غضوب وهي حليلة ، أو هو مسرف وهي
مقتصدة ، أو هو رزين وهي مرحة ، أو نحو ذلك أو عكس ذلك ثم يكون الزواج
موفقاً ، وسبب التوفيق هذا التناقض ؛ ولو كان الزوجان غضوبين أو مسرفين
أو رزينين ، لكانت عيشتهم لا تطاق ، فخير أن ينضم إلى النار ماء ، من أن
ينضم إلى النار نار ؛ ومن هذا ترى — يا أخى — أن عجبك من اختلاف
الأصدقاء في الطبع والمزاج يساوى عجبك من تصورك أن الصداقة تتطلب الاتحاد
في الميول دائماً .

فأساس الصداقة — كما ذكرت — الإعجاب ، وليس الاتحاد في موضوع
الإعجاب ؛ ومصدق ذلك أنك ترى بعض الناس تغلب عليهم عقيدة أن الناس
كلهم أشرار خائنون لا شرف لهم ، وأن ما يصدر عنهم مما يظن فيه الخير والمنفعة
العامة ليس إلا خداعاً يسترون به أنانيتهم وحبهم لأنفسهم ، أمثال هؤلاء
لا يستطيعون أن يصادقوا لأنهم فقدوا الإعجاب ، ففقدوا بفقد الصداقة .
وقد تتم الصداقة بين شخصين أو أكثر ، وتتكبد الصداقة بتأكد
الإعجاب ، فإذا فتر الإعجاب فترت الصداقة .

وليست الصداقة دائماً تكون مبنية على الإعجاب بالنبل والفضل والأخلاق الجميلة ؛ فقد تكون الصداقة صداقة شريرة مبنية على الإجرام أو على شرب الخمر ، أو تعاطى كيف من الكيوف ، وقد تكون صداقة نبيلة أساسها البطولة أو النبوغ أو الفضيلة ، وسواء كان هذا أو ذاك فالأساس هو الإعجاب ؛ فالمتصادقان على احتساء الخمر سبب صداقتهما إعجاب كل بمقدرة الآخر على السكر ، وتلذذه من أن يرى صاحبه عوناً له على بلوغ غايته ، ونحو ذلك .

ومما يساعد على الصداقة ويقويها الإيثار والتضحية ، ومما يضعفها الأثرة والأنانية ؛ فحب نفسه جداً لا يمكن أن يصادق ، وتعليل ذلك متصل بما سبق ، وهو أن الأناني جداً قلّ أن يرى خيراً إلا في شخصه ، بل هو يكره ويمقت مواضع العظمة من غيره لأنها تشعره بنقص نفسه . ولذلك تجد خير أنواع الصداقة ، عند من تعاونوا على نوع من أنواع الخدمة الاجتماعية ، لأن لهم غرضاً واسعاً خارجاً عن أشخاصهم ، وهو تحقيق نوع من الخير لمجتمعهم ؛ فكلما رأوا أن صاحباً لهم مصدر لهذا النفع زاد الإعجاب فتاً كدت الصداقة .

وسكت الدكتور قليلاً ، فقلت : إذا كان أساس الصداقة الإعجاب فقط ، وجب أن تتحقق الصداقة كلما وجد الإعجاب ، وهذا ليس بصحيح ، فكثيراً ما أعجب بإنسان ولا تكون صداقة ، فأنا أعجب بعدل عمر بن الخطاب ، وبطولة خالد بن الوليد ، وفصاحة عليّ ونحو ذلك ، ثم لا تكون هناك صداقة ؛ بل كثيراً ما يكون الإعجاب بين الأحياء ولا صداقة ، فقد أعجب بعقل كاتب إنجليزي أو فرنسي ، أو أسلوبه أو بطولته ، وقد أعجب بإجادة ممثل على المسرح ، أو بجمال غانية ، أو بصوت مغنٍّ أو مغنية ثم لا تكون هناك معرفة فضلاً عن صداقة . كم من الناس يعجبون بصوت (عبد الوهاب) أو (أم كلثوم) ، أو بكوكب من كواكب السينما ولا معرفة ولا صداقة ؛ وكم من المفكرين يعجبون « ببرناردشو » ، أو « ويلز » أو

« برتراندرسل » أو نحوهم من الأدباء والمفكرين ، وكلُّ ما بينهم هو صلة روحية لا أستطيع أن أسميها صداقة !

بل أستطيع أن أذهب إلى أبعد من ذلك ، فأرى أن الإعجاب قد يكون ومعه الكراهية والنفور لا الصداقة ، فقد أعجب بفصاحة خطيب أو بلاغة أديب ولكني أكرهه لثقل روحه ؛ وأعجب بقدرة عظيم لكفايته المالية وأكرهه لأنني أعلم أنه مُرْتَشٍ . والخلاصة أن الإعجاب وحده لا يكفي في تكوين الصداقة .

الدكتور — إن الجزء الأول من اعتراضك ، وهو الإعجاب بالأموات ، والإعجاب بالعظماء الأحياء عن بُعدٍ سهل الرد عليه ، وربما كان سبب اعتراضك عدم التفاتك إلى نقطة هامة فيما ذكرت ، وهو أن يكون الإعجاب متبادلاً من الجانبين ، فإنك إذا أعجبت بعمر أو خالد أو عليٍّ ، أو أعجبت بيرناردشو أو ويلز ، أو عبد الوهاب أو أم كلثوم ، فليس هناك إعجاب متبادل ، وإنما هو إعجاب من جانب واحد ؛ وبذلك لا تتم الصداقة .

وأما اعتراضك بأنه قد يكون الإعجاب مع الكراهية ، فهو صحيح ، ولكنه يؤيد رأيي ، لأن كراهة شخص من بعض النواحي مع الإعجاب به من نواح أخرى تضعف قوة الإعجاب ، فالكراهية والإعجاب متقابلان ، والإعجاب يدعو إلى التصادق ، ثم تلتهم الكراهية هذا الإعجاب فتقف حائلاً دون التصادق .

وأريد أن أزيد شيئاً أكمل به وجهة نظري ، وهو أن الصداقة إذا تأسست على الإعجاب فيجب أن تغدّى دائماً ، وإلا هزلت ثم ماتت ؛ غذاؤها اتصال الأصدقاء ليتجدد الإعجاب ، فإذا لم يتيسر فبادلة الكتب أو تبادل الأحاديث التليفونية أو نحو ذلك من أنواع الاتصال ، لأنه إذا لم يكن اتصال قدم الإعجاب وهزل حتى يُنسى ، فتنسى معه الصداقة — والحديث للمأثور : « تهادوا تحابوا » لا يزال

صحيح المعنى ، وليست قيمة الهدية بين الأصدقاء فى ثمنها ، وإنما فيما يحيط بها من معان ؛ فتقديم الهدية معناه أنى لا زلت أذكرك ، وأنى على استعداد للتضحية فى سبيلك ، وأنى أوثرك بما تحب ، إلى غير ذلك من معان نبيلة تؤكد الصداقة وتنمىها ، فالصداقة شجرة ورْدٍ لا بد من ريّها ، وإلا جفّت .

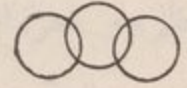
وقد قرأت فى هذا المعنى حكاية لطيفة حدثت وهى أن سيدة أوروبية متزوجة من غنى كبير اعتاد أن يهديها فى عيد ذكرى زواجهما وردة صفراء جميلة ، رمزاً إلى الحب والإعجاب ، فجاء عاماً من أعوامها وأهداها فى ذلك العيد صكاً بعشرين ألف جنيه ، فغضبت جداً ، وألمت جداً ، إذ لم يهد لها الوردة الصفراء ، لأنها رأت أن الوردة الصفراء — لا العشرين ألفاً — هى التى تغذى روحها ؛ فالمال عند غنى قد يُمنَح صدقة ، وقد يؤجر به على عمل ، وقد يقدم لمائدة ميسر ؛ ولكن الوردة الصفراء — رمز الحب — لا تعوّض ولا تقدّر بمال ، ولا تقدّم إلا من يُحب لمن يُحب ؛ وكيف يوزن الحب بالمال ، وهو إذا وضع فى كفة ووضعت الدنيا كلها فى الأخرى ما تأثرت الكفة الأولى ؟ !

قلت : لا يزال فى نفسى شىء مما ذكرت ، فقد تتوافر الشروط التى قلتها من إعجاب متبادل ، وكثرة اتصال ونحو ذلك ، ثم لا تكون صداقة .

الدكتور — أرجو أن تنتظرنى حتى أتم عرض رأيى ، فإذا سكتُ فإنما أفكر فى جمع ما يكمل فكرتى ، وقد يكون جواب اعتراضك فيما سأذكر ، فنستغنى عن الأخذ والرد ، لاسيما والموضوع عريض ، وتحديد الإلمام بكل أطرافه ليس أمراً هيناً ؛ فأشكال الصداقة متعددة ، وطباع الناس وأمزجتهم مختلفة ، وحصرها كلها تحت قاعدة عامة فى منتهى الصعوبة .

وما أريد أن أقوله الآن هو أنه يجب أن يُضاف إلى ما ذكرتُ أن يكون هناك تناغم بين المتصادقين ، وأن يكون هناك غرض واحد مشترك فى شأن من

معك في نواحي الإعجاب المتبادل ، والتناغم والاهتمام بغرضك ، كان صديقاً لك أيضاً — ولكن يحدث أن يكون شخصان متعاديان لعدم الإعجاب وعدم التناغم وعدم اتحاد الغرض ، ومع ذلك هما يلتقيان معك في نقطة فيها تبادل الإعجاب ، كـ ثلاث دوائر ، لا أدري اسمها في الهندسة ولكن أستطيع أن أرسمها لك هكذا



، فساوى المساوى مساو ، ولكن ليس شبيهه الشبيه شيئاً دائماً ؛ فقد يخالف رجل رجلاً في البياض والسواد ، والطول والقصر ، والعقلية الفلسفية والعملية ، ولكنهما يلتقيان معك في شيئين عندك لكل منهما شيء ، يلتقى الأول معك في حب الفن ، وهو ليس عند الآخر ؛ ويلتقى الآخر معك في نوع من الخدمة العامة لا يقوم بها الأول .

أوضح ما أقول ؟ .

قلت : نعم ! ولكن — يادكتور — ألا ترانا قد بعدنا بعض الشيء عن موضوعنا الأصلي ، وهو سؤالنا الأول : كيف تصادق هؤلاء المتخالفون !

الدكتور — بعد هذه القواعد العامة التي ذكرتها ، لم يبق إلا التطبيق على « ا » و « ب » و « و » و « ح » ، وهذا ليس بالعسير عليك ، فتولّه أنت بنفسك ، فقد أحسست التعب من طول تفكيرى في هذا الموضوع ، وعرض نظرياتى ، فتعال بعد ذلك نتحدث فيما لا يتعب الفكر .

قلت : أنا أحوج إلى هذا منك ؛ فأنت تتكلم في موضوعك بعد أن مرنت عليه .

وتحدثنا فيما لا يهم القارىء . ثم افترقنا وذهنى مأخوذ بهذا الحديث المثير للتفكير .

السوبرمان

أو

الإنسان الكامل

من قديم أولع الإنسان أن يتصور إنساناً أعلى ، إنساناً كاملاً ، إذ رأى الإنسان الذى يشاهده ويعامله إنساناً ناقصاً ، فصور صوراً مختلفة كَمَل بها نواحي النقص المختلفة ؛ فألهة اليونان صور للإنسان الكامل فى بعض نواحيه ، والجن يعملون أعمالاً يتشوق الإنسان أن يعملها ولكنه لا يستطيعها فيتصور الجن تعملها ، والسندباد البحرى يقوم برحلات تصعب على الإنسان العادى فيتخيّلها سهلة ميسرة لمثل السندباد .

ويأتى الزمان يبطل فى ناحية من نواحي العظمة ، فيفيض عليه الإنسان من خياله ما يكمل نقصه ؛ فعنّرة بطل شجاع ولكن البطولة الواقعية لا تشبع شهوة الإنسان ، ولا تحقق رغبته كلها فى إنسان كامل فى الشجاعة ، فيخلع عليه من خياله ما يكمل هذا النقص ، فهو يبني قبيلة بأسرها ويقف أمام الأعداء مهما كثر عددهم وتعددت أسلحتهم ؛ وكذلك فعل مع الأبطال فى النواحي المختلفة ، فكمّل نقص الفكاهة فى «جحا» ، والحكمة عند زرادشت وبوذا ، والكرم عند حاتم ، ولم يقنع بما فعله نابليون فى الواقع فنسب إليه أفعالا من نسج خياله ؛ وإذا قرأ أن بعض الناس عُمرّوا مائة سنة أو مائة وعشرين لم يكفه ذلك وغذى شهوته فى التعمير بنسبة العمر غير المعقول إلى بعض الأشخاص ، فمنهم من عُمر ثلاثمائة عام أو أكثر ، ولم يرضه طول الإنسان العادى فنسب لآدم وحواء

وعوج بن عنق طولا يبلغ مئات الأقدام حتى كان عوج بن عنق يشوى اللحم في الشمس من إفراطه في الطول وهكذا .

وكان شأنهم في المستقبل شأنهم في الماضي ، فلم يرضهم الحاضر كيفما كان ، ولم يرضهم الحاكم كيفما كان ، فهو مهما عدل لا بد أن يعتريه النقص الإنساني فيظلم ولو بعض الظلم ، فتصوّروا مدناً يسود فيها العدل التام ، وتخيّلوا لذلك ما يسمى باليوتوبيا أو المدينة الفاضلة ، وليس هذا موضوع كلامنا ، ولكنهم تخيلوا أيضاً إنساناً كاملاً يأتي فيحكم الأرض بالعدل الكامل كما يؤملون ، وعلى هذا نشأت فكرة المهدي المنتظر عند بعض المسلمين ، يأتي فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، وكان لها نظائر في الأمم الأخرى .

وهكذا وضع — في كل العصور — صورة لإنسان كامل ، إما من جميع نواحي الإنسان ، وإما من ناحية من نواحيه كالبطولة والحكمة والعدل والعفة . وقد وُصف السوبرمان أوصافاً مختلفة تبعا لاختلاف الواصفين وتصوّرهم له . وكان الشرق من أكثر الناس ذكراً وإيماناً بالسوبرمان في إيمانه بالأنبياء الذين هم صورة للإنسان الكامل ، اختارهم الله من بين خلقه ليكونوا صلة بينه وبينهم ، يبلغونهم أوامره ونواهيه ، وهؤلاء الأنبياء بحكم رقيهم وسموّهم يستطيعون أن يتلقوا عن الله ما لا يستطيعه سائر الخلق .

وكان للصوفية مجال كبير في السوبرمان ، فدار الإنسان الكامل على لسانهم ، وكان أول من استعمله « ابن العربي » ، وألف عبد الكريم الجيلاني كتاباً بهذا العنوان : « الإنسان الكامل » نحا فيه منحى الصوفية ؛ وخلاصة نظرهم أن الإنسان الكامل هو من يرقى بنفسه حتى يتصل بالله الذي خلق الإنسان على صورته ، يفنى فيه ، ويسلك في حياته الطريق الموصل إلى ذلك ، وهذا الطريق هو الذي سار فيه الأنبياء والأولياء والصالحون ، وهو إذا وصل

إلى هذه الغاية استطاع أن يدرك ما لا يدركه الناس ، ويعرف ما لا يعرفون ، ويتذوق ما لا يتذوقون ، ويتحرر من الحجاب الذى أسبلته عليه الحواس والشهوات ؛ ولهم فى ذلك كلام طويل .

وكان الأوربيون قد انغمسوا فى دراسة الحياة الواقعة ونسوا الإنسان الكامل حتى جاء نيتشه فألف كتابا فى السوبرمان كان له من القوة والأثر ما أحيا الفكرة فى أوربا من جديد ، حتى ظنوا الفكرة جديدة .

وكانت قد ذاعت فى الأفكار الأوربية نظرية النشوء والارتقاء وما يتبعها من الانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح ، فتأثرت النظرة إلى السوبرمان بذلك ، وتأثر نيتشه بها فيما كتب عنه .

لقد استنزل نيتشه « السوبرمان » من السماء إلى الأرض ، وجعله إنسانا يكون ويربى ويرقى إلى أن يصل إلى الغاية .

كان الإنسان الكامل فى نظر « نيتشه » على العكس منه فى نظر الصوفية ، هو فى نظر الصوفية روحانى إلهى سماوى ، وهو فى نظر « نيتشه » أرضى مادى ملحد .

قد اشتق « نيتشه » صورة الإنسان الكامل من القوة ، فالقوة عنده كل

شئ ، والإنسان الكامل أكبر فضائله الرجولة والشجاعة والإقدام ، لا التواضع

ولا الرحمة ولا تأنيب الضمير ؛ وأسمى ما فى الإنسان الكامل قوة إرادته وثبات

عاطفته ، فهو إذا أراد غامر وجاهد ولم يرحم ، وإذا نفذ ما أراد لم يندم ؛ إن

الإنسانية الكاملة تتجلى فى النشاط والقدرة والقوة فى كل أشكالها ، والإنسان

الكامل لا يحتقر الجسم بل لا بد أن ينميه ويقويه ، إذ لا روحا قوية فى جسم

ضعيف ؛ وفلسفة الإنسان فى الحياة نتيجة حالته الجسمية ونتيجة نوع ما كله ومشربه

وقوة هضمه . قوة الجسم وقوة العقل وقوة العاطفة هى مقومات الإنسان الكامل ،

ويجب أن يكون بين هذه القوى توازن تام ، فلا تطفئ إحداها ، بل تتوازن وتنسجم

ولا يكون ذلك حتى يكون هناك غرض يسعى إليه الإنسان الكامل ، فهذا الغرض هو الذى يشرح مقدار الاعتدال بين القوى الثلاث أو الطغيان .

لهذا وجب فى نظره أن يقضى على كل دعوة دينية أو فلسفية تدعو إلى الرأفة والرحمة والعطف على الفقراء والجرمين ، فالعاجز والمريض والجانى والضعيف والذليل والمتواضع كل هؤلاء رقع فى ثوب الأمة يجب أن يُعْمَلَ على إزالتها لينسجم الثوب .

ويجب أن تكون غاية الأمة العمل على إيجاد هذا الإنسان الكامل ، وأن تجعل نفسها جسراً يخطو عليه ، ولا تهتم بالأوساط والضعفاء بمقدار ما تهتم بالسادة ، فإذا رأينا من تظهر عليه مخايل القوة والإنسانية الكاملة تداخلنا فى زواجه ممن تظهر عليها أيضاً مخايل القوة ، حتى يكون النتائج قوياً كما فعل فى انتخاب الحيوان واستيلاده ، ثم يجب أن تتربى هذه الصفوة من الأناسى الكاملين فى مدرسة قاسية عنيفة ، يتحملون فيها الأعباء الثقالة ، ولا ينعمون فيها بالترف والرفاهية ، ويتعلمون فيها قوة الإرادة ، وكيف يطيعون إذا أمروا ، وكيف يطاعون إذا أمروا ويجب ألا يكون فى المدرسة تنسك ولا زهد ولا احتقار للجسد .

ولا بأس أن يضجى العدد من العامة إذا اقتضى الأمر إيجاد هذه الصفوة الممتازة ، فهم الذين سيخلقون الأمة بعد — ولهذا كانت دعوته دعوة أرستقراطية ، ودعوة سيادة طبقة لا دعوة مساواة فى الحقوق والواجبات ، فيجب أن تتعاون الأمة على إيجاد غايتها ، وغايتها هى الإنسان الكامل ، ولذلك مجدد الحرب لأنها وسيلة من وسائل وجود الإنسان الكامل ، وهى خير لأن الخير فى نظره ما يزيد الشعور بالقوة ، والذى يميز الإنسان الكامل حبه للمغامرة والجهاد ، ولا شئ تتجلى فيه هذه المظاهر كالحرب .

لقد كان « نيتشة » وهو يصف الإنسان الكامل يستملى صورته من الإسكندر

الأكبر ونابليون وأمثالهما ، ويستكمل ما فيهما من نواحي الضعف ، ولهذا أشاد بذكر نابليون في كتابه « هكذا قال زرادشت » أكثر من مرة فيقول : « ما أروع منظر نابليون وقد وهب الملايين أنفسهم له ، كي يتخذ منهم وسائل لأغراضه ، فإذا ما سقط منهم جندى تغنى باسم نابليون قبل أن يسلم الروح » ، ويقول في موضع آخر : « ولقد أنتجت الثورة الفرنسية « نابليون » على عبثها وفوضاها » .

ولكن هل هذه الصورة هي صورة الإنسان الكامل حقاً ؟ لقد يظهر أن تعاليم نيتشه سادت في ألمانيا ، واتخذتها إجيالا ، وصبغت التربية بصبغتها ، فوجدت الحرب كما مجدها نيتشه ، واتخذت ملايين البشر قنطرة للإنسان الكامل ، وآمنت بالقوة وجعلتها غرضاً ، فكانت هذه كلها مقدمة نتج عنها وعن أمثال هذه النزعات في الأمم الأخرى ما يعانیه العالم اليوم .

فهذا « السوبرمان » كما وصفه نيتشه ومن جرى على أثره لم يحقق

أنشودة الإنسانية .

عيب هذه النظرة أنها اشتقت صورة الإنسان الكامل من الواقع ، من نظرية النشوء والارتقاء ، من البحث في علوم الاجتماع ، وبنيت حكمها على أن الإنسان قد تم بناؤه على هذا الشكل ، وليس قابلاً للتشكل أشكالاً أخرى جديدة غير هذه الأشكال المألوفة ، مع أن نظرة إلى ماضى الإنسان وحاضره ترينا الفرق الكبير في تشكله ، وعلى هذا فسيختلف مستقبله اختلافاً كبيراً عن حاضره .

وعيب هذه النظرة أيضاً أنها اقتصرت على الجانب المادى والاجتماعى والاقتصادى فى الإنسان ، وعالجته كما يعالج العلماء الحجر والنبات والحيوان ، وتجاهلت أن فيه عنصراً آخر روحياً نامياً غير هذه العناصر المادية ؛ وكلما ارتقى

الإنسان أحسن أن له جانبين ، جانباً مادياً يشارك فيه الجماد والنبات والحيوان ، وجانباً آخر روحياً يحققه كلما رقى ، وسيتحقق في مستقبله أكثر من ماضيه ، ولهذا سيكون « الإنسان الكامل » في نظره غير الذى رسمه نيتشه .

٢

لم يوفق نيتشه في هذا التصوير ، وإن وفق في إثارة هذا الموضوع ، وفي ثورته على الأخلاق القديمة ، وتوجيه الأنظار إلى البحث في صفات الإنسان الكامل ، فإنه لابد أن يكون للناس مثل أعلى يَصْبُون إليه ، ويطمحون أن تكون نفوسهم قريباً منه ، والأديان كلها عُتيت بتصويره في أشخاص أنبيائها .

وكل من صور السوبرمان انتزعه من مخيلته ، ومنحه من الصفات ما يجب ، وجرّده مما يكره ، وكانوا يختلفون في تصويره بساطة وتركيباً ، ويختلفون كذلك في تصويره حسب ثقافتهم ورقى عقولهم ؛ فالناس في حالتهم الأولى تصوّروه مارداً عملاقاً طويل العمر ، وهى نظرة ظاهرة البطلان ؛ وآخرون ، وإن تقدموا بعض الشيء ، منحوه كل صفات المدح الإيجابية ونفوا عنه كل صفات الذم السلبية ، وهذا التصوير أيضاً لا يمكن أن يوافق الواقع ، فقد أثبت علم النفس أن ذلك غير ممكن ، وأن العبقريّة إنما تنمو في بعض الفضائل على حساب فضائل أخرى ، وليس يمكن أن تنمو الفضائل كلها إلى درجة العبقريّة في خطوط متوازية متساوية .

ثم إن صفات الإنسان الكامل يجب أن تنحصر في صفات الإنسان من حيث هو إنسان ، فالصفات التى يشاركه فيها غيره لا يصح أن تكون من خصائص الإنسان الكامل ؛ فالطول لا يصلح أن يكون ميزته ، فهما بلغ الإنسان لم يبلغ طول الجبال ؛ ولا طول العمر يصلح ، فهو مهما طال لا يبلغ

طول عمر الأحجار وبعض الأشجار ؛ والقوة الجسمية لا تصلح ، فهي مهما بلغت لا تبلغ قوة الأسد .

فصفات السوبرمان إنما يجب أن يبحث عنها في حياته النفسية الباطنة ، في ضميره ، في روحه ، في نحو ذلك مما لا يشاركه فيه غيره .

يرى الأستاذ « أوسبنسكي » أن من أول شروطه أن يكون روحياً لا مادياً ، وأن يكون فيه شيء من غموض التصوف ، وأن يكون متصلاً بنفسه بما وراء المادة ، فذلك يجعله ينظر إلى العالم المادى نظرة غنية خصبة ، فلا يصح أن يكون « السوبرمان » مجرد رجل أعمال كبير ، ولا فاتح عظيم ، ولا سياسى قدير ، ولا عالم متبحر ؛ بل يجب أن تكون فيه نفحة من الأولياء والقديسين ، وأن يكون ملهماً ، وأن يكون متصلاً بدائرة الخفى والغيب والجهول ، وأن يكون فيه ميزات غير مألوفة وغير عادية — وأن يكون بعيداً عما يقرره أصحاب نظرية النشوء والارتقاء من نظرهم إلى الإنسان على أنه فرد راق ، لا على أنه تاريخ متطور .

ويرى أن هذه النظرة الروحية حققة وجميلة ، وشرط أساسى للسوبرمان ، ولكن صد عنها الناس وصدفت عنها المدنية الحديثة والعلم الحديث ، لما شوهدت به من غفارت وخرافات ؛ ولكن هذا ليس عيباً فى الفكرة ، فالشر — دائماً — هو تحويل الشيء العظيم إلى شيء صغير حقير ، وليس هناك شر عظيم ، وليس الشر ولا الرذيلة إلا شيئاً عظيماً أفسده الناس بتخيلهم الباطل ، فخيالهم الباطل وتصورهم الفاسد هو الذى أفسد الدين العظيم ، والمدنية العظيمة ، والعلم العظيم ، ونشأ من هذا الخيال الفاسد دين فاسد ، ومدنية فاسدة ، وعلم فاسد .

ويقول : إن هذا الفساد يأتى على وجهين : إما من وضع الفاسد موضع الحق ، كوضع الحجر موضع الرغيف ، والحية موضع السمك ؛ وإما من تزوين

الباطل وزخرفته ، حتى يرى الناس جماله المزيف ويغترون به ، ويغريهم جماله به ،
فيظنونهم حقاً .

إن هذا الاتصال بالجهول صعبٌ تصوُّره وصعبٌ التعبير عنه ، إنما قارب
التعبير عنه الفن من شعر وموسيقى وتصوير ، كما قارب التعبير عنه الدين
والتصوف . وإذا كان من مقومات السوبرمان هذه النزعة الإلهامية أو التصوفية
أو ماشئت فسمها ، كان من الواضح ألا يكفي في تكوينه قوة العقل وقوة المنطق ،
بل يجب أن يضاف إلى عقله الواسع الكبير عواطفه الواسعة العظيمة الراقية ،
على شكل يصعب تصويره والتعبير عنه — ومن أجل هذا نراه ينزع إلى نوع
من الحياة غير العادية وغير المألوفة للإنسان العادى ، كما نقرأ في سيرة محمد
والمسيح ، وبوذا ، يشغل تفكيرهم وعواطفهم أشياء لا تشغل الناس ، ويسرون
ويألمون مما لا يأبه الناس له في العادة .

ومن أجل هذا يساء فهمه ويساء تقديره ، فيرمى تارة بالجنون ، لأن فيه
هذه النزعة المجهولة ، وبأنه ساحر أو مسحور ، ولا يستطيع أن يفهمه ولا يؤمن
به من قَصَرَ نظره على المادة ، ولو كان عالماً مادياً ، أو أخلاقياً مادياً ، أو عالم
نفس مادياً ، أو رجل أعمال لا يفهم من الحياة إلا المال والربح والخسارة أو نحو
ذلك ؛ ولا يؤمن به إيماناً حقاً إلا من آمن بهذه النزعة الروحية ، وكان لديه
استعداد لفهمها أو لديه أثارة منها .

ومن ناحية أخرى ، هذا السوبرمان بهذه النزعة الروحية عرضة لأن يقلد
تقليداً مزيفاً عن طريق الشعوذة ، كما قصَّ علينا من سحرة فرعون ، وكما روى
التاريخ من ادعاء مسيامة ، ونحوهم في التاريخ كثير في كل الأمم وفي كل الأديان .
والفرقة بين الصحيح والمزيف في هذا الباب من أعقد الأمور ، لأن

الزيفين يستغلون جهل الناس بالجهول فيكثرون من ادعائهم ، ويتقنون دعاويهم وتقليدهم .

هذا العنصر من الروحانية ومن الاتصال بالجهول ، أو كما يسميه المسلمون الاتصال بالغيب ، يجعل فهمنا للسوبرمان من أعقد الأمور وأصعبها ، كما أن ما ألحق بالفكرة من التزييف جعل الفلاسفة المحدثين من الغربيين يعتبرون هذه الأفكار ضرباً من السخف والتخريف ، ولكن ظهرت بوادر فلسفة تؤمن بها وتدرسها ، وترى ماورد في الأديان من المعجزات رموزاً لمعان نفسية .

ثم يجب ألا ننظر إلى السوبرمان على أنه فرد ترقى حتى صار إنساناً كاملاً ؛ إنما يجب أن ننظر إليه من حيث هو خلاصة للإنسانية ، ومظهر لوجوهها المختلفة ، هو كثرة الشجرة ، نتيجة لكل شيء فيها ، من جذورها وساقها وأغصانها وزهورها .

هو بطبيعة تكوينه وبطبيعة نزعاته ينظر إلى الأشياء على غير ما ينظر الناس ، قد أضيئت له الدنيا حين أظلمت أمام الناس ، كأنما منح عيناً جديدة لها خاصية في النظر جديدة ، أو كأنما عيناه قد منحتا من الخواص ما لم تمنحه عيون الناس .

قال بعض المفكرين : هب أن السوبرمان كما ذكرت ، وأنه خلاصة حياتنا ، فما قيمته لنا ، وما نفعنا به ، وما علاقتنا بوجوده ؟ إننا على هذا الأساس لسنا إلا أرضاً ينبت فيها زهره ، وطيناً يصاغ منه تمثاله ، وفقراء ننظر إلى قصره البديع ، وفي ظلام ننظر — عن بعد — إلى ضوءه المحيط به . نصرف حياتنا في جمع معلومات عن هذا العالم وشئونه ، ونرقي العلم في جميع نواحيه بعد الكد والعناء ، ثم يأتي السوبرمان ويقول : إن علمكم ليس إلا ضلالاً وتافهاً وقليل القيمة ،

وأنة ينظر إلى العالم فيرى حقيقته بعينه الجديدة وملكاته الخاصة ؛ ثم تأتون وتشايعونه على رأيه ! .

ولكن مع إقرارنا بصعوبة إدراكنا للسوبرمان وفهم حقيقته ، فليس يعيش منفصلاً عنا ، وعلاقتنا به علاقتنا بالشمس تسطع علينا ، وبالنور يضيء ظلامنا ، بشرط أن يكون لنا عيون تنتفع بضوئه ، وإذا عميت العيون فليس الذنب ذنب الضوء ، وهو ليس يحتقر العلم وصنوف المعارف ، بل يؤمن بها ويشجعها ، ولكنه يرى أن الجانب العلمى وحده — مهما صح واتسع — ليس يكفي لتفسير هذا العالم ، وأن العقل العلمى المنطقى — على أحسن حالاته — إنما يكفي فى وضع تصميم بيت وبنائه ، فى تحصيل الغذاء ونحوه ، فى معرفة أن اثنين واثنين أربعة ، ونحوها ومركباتها ، فى الأرض وجيولوجيتها وجغرافيتها ونحو ذلك ، فى المعلومات السطحية للظواهر الطبيعية والكيميائية ، فى كل ذلك يكون العقل المنطقى محققاً ومفيداً ، ولكن إذا تخطى هذه الدائرة المحدودة وأراد أن يحل المسائل الكبيرة من مشكلات هذا العالم : هل يسير العالم ويخبط فى سيره خبط عشواء ، أو هو سائر على نظام مرسوم ؟ هل هو وحدة مترابطة متناغمة ، أو هو مجموعة من الأشياء المختلفة غير المتناغمة وإن كانت متلاصقة ؟ ما الحياة ؟ هل هى عارض من عوارض المادة كإفراز المعدة ، أو هى شئ وراء المادة ؟ هل الإنسان حر الفكر مختار أو هو مجبور مقيد بإرادة فوقه ؟ ما حقيقة هذا الكون ؟ وهل للكون وجود أو هو من نسج حواسنا وعقلنا ؟ هذه الأسئلة ومئات أمثالها حيرت الإنسان قديماً وحديثاً ، وحاول أن يحلها بشتى الحلول فعجز ، وبالعقل المنطقى وحده ففشل ؛ فكان ذلك دليلاً على أن العقل المنطقى وحده لا يكفي فى فهم هذا الكون ، وكان لا بد أن يكون « السوبرمان » مسلحاً أيضاً بأكثر من سلاح المنطق ، ومزوداً بقوى للإدراك غير القوى العادية

المألوفة . إن الحجرة يمكن رؤيتها من أوضاع مختلفة وأشكال مختلفة يختلف معها مقدار فهمنا لها . فكذلك نظر الناس إلى الحياة ، بعضهم لا ينظر إليها إلا بحواسه ، وبعضهم يضيف إلى الحواس عقله المنطقي ، وبعضهم يضيف إلى ذلك كله ما منحه من قوة مدركة غير الحواس وغير المنطق ، هي قوة الإلهام أو ما شئت فسمها ، وهذا من أهم العناصر في « السوبرمان » .

عبرة الموت

(مهداة لروح المرحوم الأستاذ عبد العزيز البشرى عقب وفاته)

من قديم والإنسان أمام الموت مرتاع فزِع ، ومع أن الموت هو النتيجة الحتمية الطبيعية للحياة ، لم يتقدم الإنسان أى خطوة فى سبيل تهوين أمره وتلطيف وقعه ؛ ومع أنا إذا نظرنا إليه من الناحية الاجتماعية لا من الناحية الفردية وجدناه أمراً لا بد منه حياة الجيل الحاضر والجيل المستقبل ، إذ الأرض يستحيل البقاء عليها والعيش فيها ، إذا لم يكن الموت — مع كل ذلك — فهذا التفكير المعقول لم يخفف الشعور بهول الموت ، وعدّه المصيبة الكبرى .

أمامه تتهار كل القيم : فالمال والجاه والمنصب واللذائذ تتضاءل كلها أمامه ؛ فيستهونها واجدها ، ويستقل شأنها فاقدها .

وفى كل يوم عبر للموت ، فهو لا يرحم شاباً لشبابه ، ولا عظيماً لعظمته ، ولا أباً لحنوه ، ولا صحيحاً لصحته — سواء عنده كل شيء ؛ فلو نظرتُ إليه الأرستقراطية لا نقلبت شيوعية .

وكما كان الميت أعظم ، كانت العبرة به أعظم ؛ ومن أجل ذلك وقف الناس وقفة رائعة أمام موت الجبارة أمثال : الإسكندر ، ودارا ، وتيمورلنك ، ونيرون ، و نابليون ؛ إذ رأوا أن جبروتهم انهار أمام الموت كما ينهار السائل الفقير ، والمسكين الحقير ، فإذا الدنيا كلها ، والجبروت كله ، والعظمة كلها فقاقيع مسها الهواء فزالت ، وكأن الحياة لعبة فى الهواء ، أو كتابة على ماء .

وفى الأدب العربى قصة طريفة ، بعثت فجمعتها ، ورويت روايات مختلفة فاخترنا خيرها ؛ وهى أن الإسكندر لما مات اجتمع حول جثته جمع من الفلاسفة

من تلاميذ أرسطو ، فقال عظيمهم : ليقبل كل منكم قولاً يكون للخاصة معزياً ،
وللعامة واعظاً .

فقام أحدهم وضرب بيده على التابوت وقال :
أيها المنطيق ما أخرسك ، أيها العزيز ما أذكك ، أيها القانص كيف وقعت
موقع الصيد في الشرك ؟ من هذا الذي يقنصك ؟
وقام ثان فقال :

هذا القوى الذي أصبح اليوم ضعيفاً ، والعزيز الذي أصبح اليوم ذليلاً .
وقال ثالث :

قد كانت سيوفك لا تجف ، ونقمتك لا تؤمن ، ومدائنك لا ترام ،
وعطاياك لا تبرح ، وضيأوك لا يخبو ؛ فأصبح ضوؤك قد خمد ، ونقمتك لا تخشى ،
وعطاياك لا ترجى ، وسيوفك لا تنتضى ، ومدائنك لا تمنع .
وقال رابع :

هذا الذي كان للملوك قاهراً ، أصبح اليوم للسوقة مقهوراً .
وقال خامس :

قد كان صوتك مرهوباً ، وكان مُلكك غالباً ، فأصبح الصوت قد انقطع
والملك قد اتضع .
وقال سادس :

كنت كحلم نائم انقضى ، أو كظل غمام انجلى .
وقال سابع :

لئن كنت أمس لا يأمنك أحد ، لقد أصبحت اليوم وما يخافك أحد
وقال : ثامن :

هذه الدنيا الطويلة العريضة طويت في ذراعين .

وقال تاسع :

كفى العامة أسوة بموت الملوك ، وكفى الملوك عظة بموت العامة .

وقال عاشر :

قد حركنا الإسكندر بسكونه ، وأنطقنا بصمته .

وهذه القصة إن شك فيها المؤرخ ، لا يشك في قيمتها الأديب والمعتبر .

وفشت هذه القصة وهذه الأقوال في أوساط الفلاسفة من المسلمين ، فلما مات عضد الدولة البويهى ، وكان ما كان ، ضخامة ملك وعزة جاه ، وهو الذى لقب بشاهنشاه ؛ ولى الملكة وقد استولى الخراب عليها فعمرها ؛ وانبث فيها اللصوص والفسدون فأمنها ، ونظّم الخبزين ، فعنده أخبار العالم الإسلامى فى سرعة البرق ، ورتب الجواسيس حتى خاف الرجل امرأته والسيد خادمه ، وهو شديد لا يلين ، وقاس لا يرحم ، ما أكثر من قتل وشرّد لسبب يستوجب ولغير سبب ، حتى رووا عنه أنه أولع بجارية شغلته بجملها وحسن حديثها عن بعض شئون الملك ، فأغرقها حتى لا يعود لمثلها ، وزهت له الدنيا فاغتربها ، ووصف نفسه فى شعره بأنه — مالك الأملاك غالب القدر — وقصده المتنبي فرأى ملكا كبيرا ، ونعيا عظيما ، وقدرة قادرة ، وسطوة قاهرة ، فقال :

وقد رأيتُ الملوك قاطبة وسِرْتُ حتى رأيتُ مولاها

ومن منايهم براحتَه يأمرُها فيهم وينهاها

أبا شجاعٍ بفارسٍ عضد الدول ة فنا خسرو شهنشاهها

أسامياً لم تزده معرفة وإنما لذة ذكرناها

إلى أن يقول :

وإن له شرقها ومغربها ونفسه تستقل دنياها

تجمعت في فؤاده هم ملء فؤاد الزمان إحداها
وكان في ملكه كرممان وفارس وعمان والعراق والموصل وديار بكر وخران
ومنبج ، خضعت له وخافت منه واستكانت له ، وفزع منه الصغير والكبير .
ثم ماذا ؟ .

أصابه المرض وهو في السابعة والأربعين ، فأذل نفسه وأحقر شأنه ،
واستدعى له مهرة الأطباء فعجزوا عجزه وذلوا ذله ، فأخذ يقول الشعر ينعى نفسه :

قتلتُ صناديد الرجال فلم أدع عدوًّا ولم أهملْ على ظِنَّةٍ خَلَقَا
وأخليتُ دُورَ الملك من كل نازلٍ فشرَّدتهم غرباً وبدَّتهم شرقاً
فلما بلغتُ النجم عزاً ورفعة وصارت ركاب الخلق أجمع لي رفا
رماني الردى سهماً فأحمد جمرتي فيها أنذا في حجرتي عاطلاً مُلقًى

ثم جعل يقول : ما أغنى عنى ماله ، هلك عنى سلطانيه ، إلى أن مات .
استرعى هذا المنظر عقول الناس : بناء شامخ سقط في لحظة ، وقوة هائلة
تحطمت في لحظة ، واعتداد بالنفس ذهب مع الريح ، ووقف القدر ، يسخر من زعم
أنه غلاب القدر .

وإذ ذاك ذكر فلاسفة بغداد القصة التي رويت لهم عن موت الاسكندر ،
وما قاله تلاميذ أرسطو في العظة به .

وكان أبو سليمان المنطقي رأس الفلاسفة فيها ، وبيته ندوة كل من تفلسف ،
يسألونه فيما أبهم عليهم ، ويستفتونه في أعقد المسائل فيجيب إجابة تدل على
علم واسع وعقل ناضج .

فاجتمع عنده طائفة منهم يوم مات عضد الدولة ، فاقترح عليهم أن يقولوا
فيه كما قال تلاميذ أرسطو في الإسكندر .

وبدا أبو سليمان فقال : *يا ابن آدم* : أنت نقيض لما أنت عليه .
لقد وزن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها ، وأعطاهها فوق قيمتها ؛ وحسبك
أنه طلب الربح فيها فخرس روحه .

وقال ثان :
من استيقظ للدنيا فهذا نومه ، ومن حلم بها فهذا انتباهه .

وقال ثالث :
ما رأيت غافلاً في غفلته ، ولا عاقلاً في عقله مثله ؛ لقد كان ينقض جانباً
وهو يظن أنه مبرم ، ويفرم وهو يرى أنه غانم .

وقال رابع :
أما إنه لو كان معتبراً في حياته لما كان عبرة في مماته .

وقال خامس :
الصاعد في درجاتها إلى سفال ، والنازل من درجاتها إلى معال .

وقال سادس :
من جد للدنيا هزلت به ، ومن هزل راغباً عنها جدت له . انظر إليه كيف
انتهى أمره ، ووضع شأنه ، وإني لأظن أن فلاناً الفقير الزاهد الذي مات بالأمس
أعز ظهيراً من هذا الذي ترك الدنيا شاغرة ، ورحل عنها بلا زاد ولا راحلة .

وقال سابع :
إن ماءً أطفأ هذه النار لعظيم ، وإن ريحاً زعزعت هذا الركن لعصوف .

وقال ثامن :
كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتى نفذ فيك ، وهلا اتخذت دونه جنة
تقيك ؟ ماذا صنعت بأموالك والعبيد ، ورجالك والجنود . . . من أين أتيت
وكنت قوياً صارماً ؟ . . . إن فيك لعبرة للمعتبرين ، وآية للمستبصرين .

وعلق ظريف على الموقنين فقال : إن الفرق بين الكلامين كالفرق
بين الملّكين .

إن كان هذا فقيم غرور المغترّ ، وطمع الطامع ، وسطوة الظالم ، وطغيان
المستبد ، وخيلاء المعجب ؟

ورحم الله الحسن البصري إذ يقول : ما أ كثر المعتبر وأقلّ المعبر .

الابتكار

أصل « ابتكر » في اللغة معناها بادر إلى الشيء ، وابتكر الفاكهة أكل باكورتها ونحو ذلك — وهذا كل ما في كتب اللغة العربية قديمها وحديثها . ثم استعملها المحدثون في معنى الابتداع والخلق فقالوا : بحث « مبتكر » ، وفكرة « مبتكرة » يريدون أنها جديدة مبتدعة لم يسبق إليها .

أما المعاجم الإفرنجية فقديماً لم يذكر هذا المعنى للكلمة الإفرنجية المقابلة لكلمة الابتكار . وأما المعاجم الحديثة التي تجارى الزمان وتسائر الإنسان فقد أدخلتها وعرّفها وقالت في تعريفها : « هي القدرة على إدراك فكرة جديدة ، وإنتاج آراء أو مخترعات أو أعمال جديدة في الفن أو الأدب » .

وقفت عند هذا التعريف طويلاً بعد أن قلبت المعاجم العربية والإفرنجية ، وتنقل بي الخيال من فكرة إلى فكرة حتى كان من ذلك هذه المقالة .

قلت : إن الفرق بين الشرق والغرب في كل شيء كالفرق بين معاجمنا في كلمة « الابتكار » ومعاجمهم : معاجمنا جامدة واقفة ، ومعاجمهم سائرة متحركة ، معاجمنا مقلّدة ، يعرّف الأخير منها الشيء والكلمة كما عرّفها الأول ، رغم تقدم العلم والإنسان واللغة ، ومعاجمهم تتقدم بتقدم العلم والإنسان واللغة .

شأننا في العلوم كلها شأننا في اللغة ، تقليد تام ولا ابتكار . قلب قواعد النحو وأمثله تجدها هي هي عند سيبويه وابن مالك وابن عقيل ، واستعرض قواعد البلاغة وأمثلتها تجدها هي هي عند عبد القاهر والسكاكي وفي كتب المدارس ، فزيد أسد وزيد كالأسد ، ورأيت أسداً في الحمام ، وله لبد أظفاره لم تقلم ، وزيد كثير الرماد ، وجبان الكلب ، والدنيا قائمة قاعدة والمخترعات والحياة الجديدة

مستعدة لأن تمدنا بأمثلة جديدة واستعارات جديدة ، ونحن جامدون على القديم .
والفلسفة كان أكثرها عندنا تقليداً للفلسفة اليونانية ، وكان الفيلسوف من
يفهمها بله أن يبتكرها ، والتأليف العربي الواسع الضخم كان كثير منه عبارة
عن جمع متفرق لا خلق ما لم يكن .

وكنا نقلد القديم فلما غزتنا المدنية الغربية كان كل ما فعلنا أن حولنا
وجهتنا من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الأوربية ، ومن الأدب العربي إلى
الأدب الغربي ، وغاية فيلسوفنا أن يفهم ما كتبه الأوربيون ، وغاية أديبنا أن
يقلد ما ابتدعه الأوربي من نوع القصة وموضوعها وأسلوبها أو من موضوع
الشعر ونمطه ؛ وشأننا في المعاني والأفكار والآداب والفنون شأننا في
الختراعات وفي الصناعات والأدوات ، ننتظر « الأوتوموبيل » حتى يبتدع
فركبه ، و « الراديو » يخترع فنستخدمه ، والآلات الصناعية تبتكر عند غيرنا
فنسخها إلى بلادنا ونشحن معها من يعلمنا كيف نركبها ونستخدمها ، وإذا
فسدت بحثنا عن أوربي يصلحها — والفرق بين الراقى منا وغير الراقى ليس فرقا
في التقليد ، فكلاهما مقلد ، وإنما الفرق فيمن نقلده — فالفلاح غير الراقى يقلد قدماء
المصريين في أدوات حرثه وزرعته ، والمزارع المتعلم الراقى يقلد الأوربي في
أدواته وفنّه ، وكلاهما مقلد . والأديب المحافظ يقلد بديع الزمان والحريري ، والأديب
المجدد يقلد شكسبير أو فولتير أو نيّشه أو جوته ، وكلاهما مقلد ، فأين المبتكر ؟
سألني مستشرق مرة — وكان يزور مصر — هل أجد في مصر فيلسوفا له
فلسفة خاصة من أمثال برجسون وبرتراند رسل يدعو إلى مذهب في الفلسفة
جديد ، نبع من جوّه المصري وتفكيره المصري ، فقلت له — مع الأسف —
لا . وسألني سائح أمريكي هل في مصر مصلح ديني الآن يقوم بدعوة جديدة
لها أسسها ونظمها ، فقلت له — مع الأسف — لا . ولو سألني سائل عن فنّان

له طريقته المبتكرة التي لم يقلد فيها شريعاً قديماً ولا غريباً حديثاً لقلت له - مع الأسف - لا .

راعنى هذا التفكير ، وأفرغتني هذه النتيجة ، وتساءلت بعدها هل هذا التقليد وقلة الابتكار من طبيعة عقلنا أو من سوء تربيتنا ؟ .

لقد وصلت إلى الإجابة سريعاً ، فأمنت أنه ليس من طبيعة عقلنا ، ولا من أصل خلقتنا ، فنحن في إدراك الأمور وفهمها والحكم عليها لسنا أقل من غيرنا إن لم نفقههم ، والطالب الشرقى يتعلم مع الطالب الغربى فى مدرسة واحدة وجامعة واحدة فنراه يفهم كما يفهم الآخر وينقد كما ينقد ، ويحكم على الأشياء كما يحكم ، ويساويه أو يفوقه فى كل مظاهره العقلية ، وفى هذا ما يكفى للإقناع بأن المسألة ليست مسألة طبيعة العقل ، وإنما المسألة مسألة تاريخ مملوء بالأوزار والأثقال ، وتربية لا تبعث روح الإبداع ، وجو مسمم يخنق القدرة على الابتكار . فى تاريخنا القديم أحداث عظام خطيرة كان لها الأثر الكبير فى جمودنا حتى اليوم ، لا أستطيع الآن استقصاءها وإنما أذكر أمثلة منها ؛ فالناظر فى تاريخ المسلمين يعجب من الحركة العقلية المبتكرة فى القرون الثلاثة الأولى التى اخترعت فيها العلوم العربية والأفكار الحية ، من مثل الخليل بن أحمد ، ذى العقلية الجبارة فى اختراع النحو والعروض ووضع المعاجم ، ومن أمثال المعتزلة الذين بحثوا البحوث الجديدة وأثاروها ، وأبدوا رأيهم المستقل فيها ، كالنظام والجاحظ ، فهذا العصر يُعدّ الابتكار طابعه وخاصته . وأرى أن وقفة الخليفة المتوكل فى القضاء على المعتزلة ونصر المحدثين ، كان لها أسوأ الأثر فى مهاجمة الابتكار ونصرة التقليد ، ذلك أن منهج المعتزلة كان منهج التفكير الحر فى حدود أصول الدين ، وبحث المسائل كما يؤدى إليه العقل الطليق إلا من قيد الإيمان بالله ورسوله ، فاستطاعوا بذلك أن يبحثوا كل شئ فى العالم من إلهيات وطبيعيات ، ويختلفوا فى بحوثهم اختلافاً جريئاً

يخالف التلميذ شيخه ويجادله وقد يُفحّمه ، ومنهج المحدثين غير هذا المنهج تماماً هو منهج نقل وأمانة في النقل ، ووقوف عنده والمحافظة على الجملة ، بل على اللفظة ، بل على الحرف ، فإن انحرف في كلمة خرج على القداسة ، وهو أسلوب طبيعي معقول مقبول في حدود الحديث وحده ، ليس في ذلك غلط ، وإنما الغلط جاء من تعميم هذا المنهج وتطبيقه بشدة وقسوة على سائر العلوم ، فاضطهد الاعتزال ووضعت في يد المحدثين السلطة والقوة ، فأثروا بسلطانهم وقوتهم ومنهجهم على كل العلوم ، فانغمس أهلها في الرواية ، وعُودوا عادة النقل وتقديس الألفاظ والشيوخ ، والافتخار بكثرة ما يروى ، وطبعت العلوم كلها بطابع الحديث ، حتى التاريخ وحتى الأدب وحتى الفكاكة وحتى الفقه وحتى الشعر .

هذا المنهج كان معقولاً في الحديث ، وكان يجب أن يقصر على الحديث ، فتعميمه على كل العلوم كان سبباً في أن العقلية العربية والإسلامية وقعت في فخ التقليد ، وحرمت الابتكار إلا في القليل النادر ، فنحن لا نعد كثيراً من أمثال ابن خلدون المبتكر ، ولكن نعد كثيراً من أمثال السيوطي المقلد .

ونشأت الأجيال والأجيال على هذا المنهج ، وأصبح التخلص منه عسيراً يحتاج إلى قوات كبيرة وسنين طويلة . ومن أجل ذلك لما دعا دعائنا إلى الانتباه وعدم التقليد ، وقعنا في تقليد آخر هو التقليد الأوربي ، لأن ملكة التقليد لا تزال ساكنة في النفوس .

وسبب آخر تاريخي أيضاً ، وهو توالي الاستبداد والظلم على العالم الإسلامي من القرن الرابع الهجري إلا في فترات قصيرة ، فالعسف ومصادرة الأموال ، وكسب المال من طريق الملق والمدح ، وإشباع شهوة الحكام ، كل هذا هو ملخص تاريخ المسلمين ، وكل هذا يضعف الشخصية ، ويجعلها شخصية ذليلة مقلدة لا مبتكرة . والقارىء في التاريخ الأوربي يرى أن الأوربيين عند مرورهم

فى مثل هذا الطور من الحياة لم يبتدعوا ولم يبتكروا ، وجرى عليهم قانون التقليد كما جرى علينا ، وعظّموا أرسطو أكثر مما عظّمنا ، وقلّدوا فى الفلسفة وفى الصناعة وفى الفن كما قلّدنا ، إنما ظهر الابتكار يوم تحرروا ، فالحرية السياسية أنتجت الحرية الفكرية والاجتماعية والأدبية والصناعية — وكان ذلك قانوناً طبيعياً يسير عليه العالم دائماً .

هذه هى المسئولية التاريخية فى الموضوع . وبجانب ذلك مسئولية التربية ، فالتربية التى تقيس الطالب بمقدار ما حصله لا ما هضمه ، وبمقدار اطلاعه لا مقدار خلقه وابتداعه ، وبمقدار حفظه لا بمقدار نقده ، والتربية التى تقدس الكتاب ولا تقدس التجربة ، والمدرس الذى يحاسب الطالب على ما أملى ويؤاخذه على ما خلق ، والامتحان الذى يرتب الممتحنين حسب كثرة استذكارهم لا حسب كفايتهم ، كل هذه الضروب من التربية تنتج التقليد ، وتميت الابتكار ، تخلق قِرْدَةَ مهرة ، ولكن لا تخلق أناساً قادة ، تخرج نسخاً مطبوعة من كتب ، ولكن لا تخلق كتاباً خطياً مبتكراً ، هى آلة تصنع المتشابهات والأمثال لا صنع يد تخرج عديم المثال ؛ إن هذا النوع من التربية ينتج الطير ، ولكنه حبس فى قفص ، ومهما أتقنت فغايتها طير جميل فى قفص جميل .

إنما التربية الصحيحة هى التى تكون المبتكر ، وتكون القادة المبتدعين ، وتكون الشخصية الواسعة ، الشخصية الناقدة ، الشخصية الخالقة ، هى التى تحول « مركّب النقص » فى الناشئ إلى « التسامى » .

كثيراً ما تساءلت ماذا كان يكون أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وعلى وخالد وأمّثالهم من رجال الإسلام لو لم يكن محمد ؟ كانوا يكونون كنظرائهم فى الجاهلية ، إغارة وخمر وميسر وفخر بالنسب وبالكرم ، ثم لا شيء ، وإنما تربية

محمد لهم هي التي خلقت شخصياتهم وجعلتهم رجالا خالدين ، يتكرون وابتدعون ويواجهون الأحداث العظيمة بقلوب عظيمة وعقول مفتحة ، ويحلون ما يعرض من المشاكل حلولاً مبتكرة لا على مثال سابق ؛ وكذلك كان يكون شأننا لو وجدنا الربى الصالح الذى يستطيع خلق الشخصيات ، فالوالدات لا يزلن يلدن ، والطبيعة لا تزال تمنح كل أمة فى كل عصر عقولها الطبيعية الممتازة وفنانيها الممتازين والأيدى الممتازة ، ولكنها بذور صالحة لا تجد تربة ، ومادة خامة لا تجد من يصنعها ، بل تجد من يتلفها — إن العدة للجيش لا تكفى لنجاحه ونصره ، إنما ينصر إذا امتلأ عقيدة بقوته ، وأن الله معه ، وأن الملائكة تؤيده ، وأن الواجب يدفعه ، وأن الجنة تنتظره .

وسبب ثالث قد يضاف إلى الأسباب التاريخية وإلى التربية ، وهو المجتمع ، فقد يكون جواً خانقاً للابتكار ، وقد يكون جواً مشجعاً على الابتكار — يكون جواً خانقاً إذا سخر الناس فيه من الفكرة الجديدة وصاحبها ، وإذا صفقوا للمبتدع واستعاذوا بالله من المبتدع ، وإذا حاربوا كل من أتاها بما لا تهوى أنفسهم فحكموا تقاليدهم ولم يحكموا عقولهم ، وإذا كان مقياس التقدير هو الملق والخداع والنفاق لا الكفاية الممتازة ، فالمال ينهال على النوع الأول انهياراً ، والحرمان والاضطهاد ينصبان على الثانى انصباباً ؛ ويكون جواً مشجعاً إذا أعجب بمن يأتى بالفكرة الجديدة ، وإذا وجدت الفكرة عقولاً واسعة تتقبلها وتمنحها وتكافئ عليها .

لقد أقيمت فى أوربا أشهراً فأحسست — مع قصر المدة — بمعنيين واضحين : الأول أن الناس فى الأمة يحب بعضهم بعضاً أكثر مما يحب ، وقد دعانى هذا أن أكتب مرة مقالا « الشرق ينقصه الحب » . والمعنى الثانى أن الناس يحاولون أن يبحثوا فى كل شخص فى مجتمعهم عن صفته الممتازة أو موهبته الفائقة ليظهروها

ويشجعونها ويصفقوا لها ، ونحن نبحت عنها ولكن لنكبتها ونحمدها
بشتى الوسائل .

هذه — في نظري — هي الأسباب الهامة في غلبة التقليد عندنا وقلة
الابتكار .

وهذه الأسباب بنت حولنا سداً كسد ذى القرنين ، بعض أحجاره من
مخلفات تاريخنا ، وبعضها من مخلفات تراثنا ، وبعضها من مخلفات بيتنا ،
وما زالت تتراكم وتعلو حتى حصرت الفكر ، وحجبت عنا نور الشمس — وفي
تشخيص الداء الدواء ، وقبل الرّماء تُتملاً الكنائس .

سياحة في العالم

قرأت هذه الأيام كتاب الدكتور مشرفة « مطالعات علمية » ، ووقفت طويلاً عند مقال له عنوانه « سياحة في فضاء العالمين » ، وقد أعدَّ لهذه السياحة مركباً من أشعة النور يسير بسرعة الضوء ، فيقطع في الثانية ١٨٦٠٠٠ ميل ، وسيصرف نحو يوم في سياحته حول المجموعة الشمسية ، فيصل إلى الشمس في ثمان دقائق ، ويمر على المشتري والمريخ وزحل الخ ؛ فإذا جاوز المجموعة الشمسية إلى أقرب نجم من مجموعة أخرى قطع المسافة بينهما في أربع سنين ، وسيرى في هذا العالم مجموعات من السُّدُم ، كل سديم مؤلف من مئات آلاف الملايين من النجوم ، بينها مسافات تقدر بعشرات السنين الضوئية . وسيرى أن محيط الكون يقدر بنحو سبعة آلاف مليون سنة ضوئية ؛ أي أننا إذا أرسلنا شعاعاً من الضوء فإن هذا الشعاع يعود إلينا بعد سبعة آلاف مليون سنة ، بعد أن يكون قد طاف حول الكون كما يطوف السائح حول الأرض ، ويعود إلى حيث ابتداءً .

قرأت هذا فأريتني أملك خيراً من هذه المطيَّة ، وأسرع من هذا الضوء ، وهو خيالي وفكري الذي يستطيع أن يرحل إلى هذه العوالم في لحظة ، ويطوف حول الكون في لحظة . ومن أين لي بآلاف الملايين من السنين والعمر قصير والمدي طويل ؟ !

لقد ركبت خيالي وطفقت هذه العوالم في رحلة عجيبة حقاً ، وعدت بنتائج بهرتني : لقد رأيت في هذه الرحلة أن أرضنا التي ملأتنا صراخاً وصياحاً لا تساوي في هذه العوالم قطرة من البحار ، ولا ذرَّة من الرمال ؛ وإني على مسافة قصيرة

من رحلتى لم أثبتنيها فى خريطة الكون لضعف شأنها وحقارة أمرها ، فهى بما عليها من جبال وبحار وأنهار ونبات وحيوان وإنسان لا تساوى شيئاً ، وصدق الأثر : إن دنيانا عند الله لا تزن جناح بعوضة .

كان من غرور الإنسان أن اعتقد أنه أرقى مخلوق فى العالم ، وأن العالم كله مخلوق له ، وكان ذلك لأنه لم ينظر إلا إلى أرضه ونفسه ، وكان ينظر إلى النجوم كأنها حبات درر لامة ؛ فلما رحلت هذه الرحلة رأيت عوالم وعوالم لا يشعر أهلها بأن هناك شيئاً اسمه الأرض ، ولم يسمعوها بشيء اسمه الإنسان ، لأن الأرض أصغر من أن تذكر بجانب ضخامة عوالمهم ، والإنسان أحقر من أن تعرف حياته لضخامة حياتهم ! — لو كان خلق هذا العالم كله للإنسان لكان أقل ما يقال فيه إنه تبذير حتى من الناحية الاقتصادية ، كما سراف من يبنى قصرًا فخماً لليلة ، بل مدينة عظيمة لبعوضة — لقد ظن الإنسان بعقله القاصر أن العوالم الأخرى فارغة من الحياة ، ولا حياة إلا فى أرضه ، وعمل ذلك بأن بعض النجوم ملتهبة لا تصلح للحياة ، أو أنها لا تحوى العناصر الضرورية للحياة ، كأن الحياة قاصرة على نوع حياته ، ولا حياة إلا على نمطه — لقد رأيت فى رحلتى أن كل العوالم مأبجة بالحياة ، وأن كل عالم له حياة تناسبه ، ومحيط ينسجم معه ؛ ولكن رأيتها كلها تخضع لسنة النشوء والارتقاء ، فأنواع الحياة كلها تتدرج إلى العقل والحياة المفكرة ، وإن اختلف منطقتها . وقد رأيتها قطعت مرحلة منطقنا وتفكيرنا منذ ملايين من السنين ، لأن الأرض من أحدث المخلوقات ، فتفكيرها من أكثر أنواع التفكير سذاجة ؛ ولذلك لما عرضت عليهم نوع تفكيرنا ونظمنا الاجتماعية ، أمعنوا فى الضحك بأكثر مما نضحك من تصرفات حشرة ، وكانوا أكثر إمعاناً فى الضحك حين حدثهم بأخبار الحرب العالمية ، فقد ضحكوا أولاً من تسميتها العالمية ، وقالوا : ما أقبح جهلكم حين تنسبون ذلك

إلى العالم ، وما أسخفكم حين تحاربون لمطعم دنىء ، وما أحقكم حين لا تستطيعون أن تحلوا مشكلة صغيرة كهذه إلا بالقتل والتدمير والتخريب ، فتعالجون حل مشكلة بخلق مشاكل أعظم منها !! حقاً إنكم لبُدائيون ، وحين تصلون إلى ما وصلنا إليه نكون نحن قد وصلنا إلى السمو الأعلى ، فالنسبة في سيرنا لا تزال محفوظة ، ومسافة الخلف بيننا ستظل بعيدة .

كانت هذه الرحلة كأنها عصا سحرية غيّرت معالم تفكيرى ، فأرضنا في هذا العالم كأنها خلية صغيرة من خلايا جسمنا تتصل به وتحيا به ، وتنسجم معه وتتأثر به ، كما تتأثر كل خلية من خلايا جسمنا بباقي الخلايا ، ولو استطعنا يوماً أن نتفاهم مع مخلوقات العوالم الأخرى لكان الاتصال أتم ، وسيرنا أسرع . ولكن هل من وسيلة لأن نتفاهم النملة مع الإنسان ، والبعوضة مع الفيلسوف ؟ إن أرضنا بناسها وحيوانها ونباتها وجبالها ليست إلا موجة صغيرة على شاطئ المحيط ، ونحن محصورون في حدود ضيقة من كلمات « أنا » و « نحن » وجميع ضمائر المتكلم ، كما أننا محبوسون في حدود حواسنا التي لا تدرك من العالم إلا اللذة والألم ؛ وإنما يستطيع التجرد من ذلك كله أحياناً الفلاسفة والمتصوفة والشعراء ، فيخترقون حجب المظاهر ، ويحسون — في لحظات — السمو عن هذه الجزئيات ، فيلقون محيط العالم في لحظة ، ويغرقون في بحر العالم من غير اختناق ، ويفقدون أنانيتهم ليندمجوا في حياة العالم من حيث هو كل ، ويدركون لذة ذلك بنوع من الإدراك لا يدانيه الإدراك بالعواطف ولا الإدراك بالعقل ، ولا أى نوع آخر من الإدراك ، ويشعرون أن العالم كله يتناغم مع نبضات قلوبهم ، وخلجات نفوسهم ، وإذ ذاك يدركون أن الله — فوق ما يستعين به جماهير الناس في مطالبهم الحقيرة — هو قلب العوالم الذى ينبض بحياتها ، وهو إرادتها المحركة لها ، ويرون أن الموت ليس إلا ذوباناً في وعاء الأبدية ! .

لم أصادف في رحلتى إلا قليلا من أهل الأرض ، ليس منهم الذين قضوا حياتهم بين مزارعهم ومصانعهم لا عمل لهم إلا أن يحسبوا دخلهم وخرجهم ، وليس منهم من اقتصروا على الحاجات الحسية والحياة المادية ؛ وإنما رأيت طائفة من الشعراء ليس منهم أبو نواس ومدرسته الذين غنّوا للخمر واللذات الجسمية ، ولا أبو تمام والبحترى ومدرستهما ممن غنوا للملوك واستجدوا الأغنياء ، فهؤلاء جميعاً التصقوا بالأرض ولم يرفعوا أعينهم إلى السماء ؛ وإنما وجدت أبا العلاء حائراً يبحث عن سر النجوم وينشد :

أُمِّيَّةٌ شُهِبَ الدَّجَى أُمٌ مُحِسَّةٌ ولا عقل أم في آلهاء الحس والعقل
ويقول :

ياليت شعري وهل ليتُ بنافعة ماذا وراءك أو ما أنت يافلكُ
كم خاض في إثرك الأقبام واختلفوا قدماً — فما أوضحو حقاً ولا تركوا
شمس تغيب ويقفوا إثرها قرّة ونور صبح يوافي بعده حلّكُ
طحنّت طحن الرحي من قبلنا أمّا شتى ، ولم يدر خلقُ أيةً سلكوا
راموا سرائر للرحمن حجّبا ما نالهن نبيٌّ ، لا ولا ملك
ورأيت ابن السّبُل البغدادي يطوف حول العالم ويقول :

برّبك أيها الفلك المدار أقصدُ ذا المسير أم اضطرار
مدارك ، قل لنا ، في أى شيء ففي أفهامنا منك انبهار ؟

ومعهم طائفة من شعراء العرب وغيرهم من الأمم ممن ترفعوا عن ضوضاء الأرض ونزعات التنازع ، وحلّقوا فوق الخصومات ، ونظروا إلى الإنسانية كوحدة ، بل إلى العالم كوحدة ؛ وغنّوا للناس ليسموا سموهم ، وينشدوا مثّلتهم — وقد سبقهم إلى ذلك درجات شعراء الصوفية ، وعطاء رجالها الذين أدركوا وحدة الوجود ، وجمال الخلق والخالق ، وأحاطوا بالعوالم علماً ، ووصلوا إلى قلبها

ينبض وروحها تختلج ، ونفذوا من مظاهرها السطحية إلى تياراتها الخفية .
وقابلت الأنبياء الذين قطعوا اللأبدية إلى الأبدية في خطوة ، وأدركوا الحق
وعشقوه وهاموا به ، ورأوا أعراض الحياة لا قيمة لها والخير في السمو الأبدى ،
ويوم يحىء موت الأعراض تبقى الحياة متصلة بالرفيق الأعلى .

وفى طريق العودة عرجت على طائفة من الفلكيين والمنجمين كانت ميزتهم
أنهم اكتشفوا حقارة الأرض وعظم السماء ، وشغلوا بالمسافات والأبعاد وتحليل
الأشعة ورسم الخرائط الجوية ، ولكنهم وقفوا عند المظاهر ، ولم ينفذوا منها
إلى قلبها النابض ، ولذلك لم أرهم إلا حين قاربت الأرض .

عدت بعد رحلة ممتعة كاد ينعدم فيها الزمان والمكان . ولما قاربت الأرض
كدت أختنق من الهواء ، لأنى اعتدت أن أعيش في غير هذا الهواء ؛ شعرت
شعور من يسكن الكوخ بعد أن سكن القصر ، ومن يعيش في أرض قاحلة
بعد أن أقام في البساتين الناضرة ؛ وكلما قاربت مسَّ الأرض أحسست ضوضاء
وجلبة مختلطة غير منسجمة ، صدَّعت رأسى ، وأصمت أذنى .

وأدركت أنى وإن خلق جسمى من تراب ، وسيعود إلى تراب ، فإن حى
الذى يلتهب فى قلبى ، وفكرى الذى يجول فى رأسى ، ونفسى التى تحل فى
جسمى ، تتصل بالخلود ، وتنتقل من خلود إلى خلود ، تسطع عليها العوالم
الأخرى ، كما تسطع النجوم على الأرض ، وتستمتع بالاتصال بالأرواح الأخرى ،
وتسعد بالعمل على فك الأرواح المقيَّدة من أغلالها ، وتبديد الظلام الذى يحيط
بها ، والأخذ بيدها لخير الإنسانية حتى تسمو إلى العوالم العليا — ورأيتنى
لم أخش الموت لأنى فهمت حقيقته .

وأعجب ما كان منى يوم عدت من رحلتى ، أنى برمت بكل ما حولى ،

قرأت الجرائد فاستسخت كل ما أقرأ : أخبار الحروب تافهة وحقيقة لأن الإنسان الذى يقوم بها حقير ، ومكان الحروب جزء من الأرض الحقيمة ؛ فلما قرأت أخبار الوفيات والحفلات ، والحركات والتنقلات ، والجرائم والسرقات والسياسات ، رأيته أسخف وأسخف ، فعلى بُعد خطوات من رحلتى انقطعت هذه الضوضاء كلها ، وكانت كلها أهون من فقايع على سطح الماء . وجلست عصر هذا اليوم إلى الناس أسمع حديثهم فى الغنى والفقر ، وصنوف السعادة والشقاء ، والملاذات والآلام ، والجمال والقبح ، فلم يقع ذلك كله من نفسى فى قليل ولا كثير ، لأنى كنت لا أزال مبهوراً بجمال ما رأيته ، وعظم ما شاهدته فى السياحة ، فكان كل هذا الحديث وموضوعاته أقلّ فى سمعى من طنين ذبابة !

وسمعت قارئاً يقرأ : « الحمد لله رب العالمين » ، فكأن هذه الآية لم تدخل سمعى قبل الآن ، فقد فهمت أن العالمين ، هى هذه العوالم العظيمة التى ليست المجموعة الشمسية إلا عالماً صغيراً منها ، وما قد علمنا من العوالم أقل بكثير مما لم نعلم ، « ويخلق ما لا تعلمون » .

وقلت : ليت الذين يمتثلون تيهاً ، ويخطرون عُجباً ، ويمدّون حواجبهم ، وينفخون أشداقهم ؛ وليت الذين يتجاوزون قدرهم ، ويعدّون طورهم ، ويعتزون بجاههم ، ويعتزون بعلمهم أو قنهم أو أدبهم ؛ وليت العتاة والطغاة والمستبدين ؛ ومن يردّدون : أنا وحدى ، ومن يتحكّمون فى أمهم اغتراراً بسلطانهم أو قوة جيشهم ؛ ليت كل هؤلاء يرحلون معى هذه الرحلة العالمية ، فيرون منها قيمة الأرض التى يفخرون بزخرفها ووزنها الذرى الذى يطمحون إلى السيادة على بعض منه ؛ إذن لتصاغرت إليهم نفوسهم ، وأقلعوا عن غرورهم ، وتضاءلت منهم أمانيتهم ومطامحهم ، وطارت نبرة رأسهم ، واعتدل صعر خدّهم .

ورأيت أنى إن بقيت على هذه الحال لم أصلح للحياة ، ولم تنسجم نفسى

مع ما حولي ومن حولي ، فكما وقع نظري على شيء قارنته بالعوالم الأخرى
فاستصغرته ؛ ورأيتني كالجنون وسط عقلاء ، أو العاقل وسط مجانين ، يتصرفون
فلا أفهم كيف يتصرفون ، وأتصرف فلا يفهمون ما أعمل ، وأتحمس لأشياء لا يابهنون
بها ، ويتحمسون لأشياء لا آبه بها ، وكأن لي عيوناً غير عيونهم ، وأذاناً غير
أذانهم ؛ ورأيت أن العيش على هذا المنوال محال ، فإما أن أرحل إلى العوالم
الأخرى وأعيش فيها أبداً ، وكيف وقد علقت بالنفس ثاء الجسم الثقيل كما يقول
ابن سينا ، وإما أن أنسى رحلتي ، وأعود إلى حياة الأرض سيرتي ، وأزور
العوالم الأخرى لِمَا ما كلما شغلني أمر ، أو ضغطني هم ؛ ففضلت الثانية مرغماً ، فلا
رأى لمن لا يطاع !!

أخلاق الطفولة وأخلاق الرجولة

لاحظُ الطفل ، وأمعنُ النظر في تصرفاته ، وراقب البواعث على حركاته وسكناته ، تخرجُ بنتيجة حتمية ، وهي أنه أنانيٌّ مفرط الأنانية ، يرى أن أهمَّ ما في الوجود شخصه ، وكل شيء حوله يجب أن يكون له ؛ ما يصدر عنه من أعمال فإنما هي لجسمه ، واللذة يلتذها جسمه ، ليس يهيمه أى شيء يتصل بغير شخصه ، لا يعنيه من أمه إلا أن تديها وعاء اللبنه ؛ كل ما له من عمل ، وكل ما له من شعور ، وكل ما له من فكر ، وكل ما له من رغبات ، فإنما هي موجهة نحو ذاته ؛ فإذا أحسَّ فراغاً من الزمن ليس فيه شيء مما يشتهي ويلتذُّ بكى ، لو كُلف أن يرسم خريطة العالم كما يرى ، واستطاع ذلك ، لرسمَ شخصه فقط ، وكان هو العالم وحده ، وما عداه من شيء فلخدمته .

لاحظه بعد ذلك وهو ينمو ، تجده يتحول من « أنا » قليلاً قليلاً إلى « نحن » شيئاً فشيئاً ، فهو يبدأ يشعر بأسرته بجانب شخصه ، ثم بتلاميذ مدرسته بجانب نفسه ، ويتعلم دروس الأخذ والإعطاء بعد أن كان درسه الوحيد هو الأخذ ، ويضم إلى العمل لشخصه العمل لغيره ، ويعتاد ألا يعمل فقط ما يجب ، بل يعمل أيضاً ما يجب ، ويعمل ما تقتضيه التقاليد ، ويعمل خوف الاستهجان أو العقوبة أو نحو ذلك — يتعلم ذلك كله في أسرته وفي مدرسته ، وفي أعباءه وفي شارعهِ ؛ ويتولّد فيه شعور وتفكير ورغبات للعمل للغير ، كما تولّدَتْ فيه من قبل هذه الأمور للعمل لشخصه .

ويرتقى فيه الشعور بـ « نحن » إذا اتَّسع أفقُه في الحياة العامة ، وخرج من المدرسة وتولّى عملاً ، وعاملَ الناس وتبادل معهم المنافع والمصالح ، فيشعر بأن

هناك أناساً غير أسرته وغير مدرسته وغير معارفه ، وأنه مرتبطٌ ببعضهم في التعامل ، ويشعر بأن هناك مسئولية مُلقاة على عاتقه نحو مَنْ يعمل معهم ، وأنه خاضعٌ لقوانين البلاد ، وله روابط بقومه وأهل دينه ونحو ذلك ، كما يشعر أنه يجب عليه العمل ، لا كما يحب كالطفل ، ولا طاعةً للتقاليد أو خوفاً من العقوبة كالفتى ، ولكن ليحصل رزقه يقوت به نفسه أو أهله أو مَنْ يحمل عبئهم ؛ وهكذا نراه يبتعد بعض الشيء من « أنا » ويقرب من « نحن » ، ولكن في حدود ضيقة معينة .

فإذا نحن سَمَوْنَا لدراسة « الرجال » وعظاء الناس ، رأينا استغراقاً وعمقا في « نحن » ، وضموراً في « أنا » ؛ رأينا الرجل العظيم الناضج يصل إلى منزلة يرى معها أن لا قيمة لحياته إلا إذا ارتبطت بحياة الناس والعمل لإسعادهم ، لا يقتصر على علاقاته الطيبة بمن حوله في الأعمال العادية ، ولكن يضع نصب عينه العمل لترقية الناس روحياً ونفسياً ومادياً ؛ لا يرى أن مسئوليته هي نحو أسرته فقط ، ولا أصدقائه فقط ، ولا قريته أو مدينته فقط ، ولكن لأُمَّته خاصة ، وللإنسانية عامة إن وسعه الجهد والكفاية ؛ هو واسع النظر ، عميق الفهم ، رحب الصدر ، متسامح أمام ما يشلّ العقل من العصبية الوطنية والدينية والخلافات الحزبية ؛ يختبر حاجات الناس وأسباب شقائهم في الناحية التي هو مُعدّها لها ، ثم يوجه إرادته لرفع الشقاء عنهم ، وجلب السعادة لهم ما أمكن ، ويحمل مسئولية ذلك في لذة وسرور وتضحية ، ولا بأس إن كان فقيراً ، ولا بأس إن لم تُنبت به أسرة أرستقراطية ، ولا بأس إن لم يتسلّح بقوة ، فهو يشعر أن نبل غرضه قوة فوق قوة المال ، وفوق الأسرة النبيلة ، وفوق أسلحة الناس .

إذا كانت جماهير الناس يعملون للأجر ، ويقومون بالعمل بالمال ، فإن أعطوا كثيراً عملوا كثيراً ، وإن أعطوا قليلاً عملوا قليلاً ، ويفاضلون بين عمل

وعمل بقدر ما يدر من ربح ، فإن هؤلاء العطاء يعملون لأنهم يلزم العمل ،
ويقومون العمل بمقدار ما يحقق من خير لأمتهم وللإنسانية أجمع ؛ يداؤبون في
العمل ، ويعرضون حياتهم للخطر في سبيل مرض يكتشفونه وداء يعالجونه ،
أوفى سبيل تحرير العقول من أغلالها ، أو تحرير العقيدة مما أفسدها ، أو يحاربون
الظلمة والطغاة لتحقيق العدل في الأمة أو العالم ، يهتمون في ذلك العذاب ألواناً ،
لأن عشقهم للحق غلب حبهم للذات ، وهيامهم بـ « نحن » أضعف حبهم
لـ « أنا » . فإذا قال الطفل « أنا » ، وقال الإنسان العادي « أسرتي » ، قال
الرجل « أمتي » ، أو « عالمي » ؛ وإن تليذ الناس بالعمل يربح ، تليذ هو بالفكرة
تنجح ؛ وإن تساءلوا عند العمل : ماذا نبحث من دخل ؟ تساءل هو : ماذا
يستلزم العمل من جهد ؟ .

قد منحهم الله قوةً من قوته ، وقدرة على الخلق من قدرته : يخلقون النافع
فيما حولهم ، ويتدعون الجمال ينشرونه في دوائرهم ، فهم — دائماً — مصدر
نفع وجمال . حددوا غرضهم في الحياة ، فعلموا أنهم لا يصلون إليه إلا إذا فهموا
حق الفهم دنياهم التي يعيشون فيها ، وطبائع نفوس الناس في الاستجابة
للاصلاح والنفور منه .

يلتذون تحمل التبعات كما يلتذ الجبناء الحرب منها ، يواجهون الصعوبات
بابتسام ، ويتقبلون الهزيمة ريثما يستعدون للثوب ؛ أقوياء في خصومتهم ،
صابرون في هزيمتهم ، كرماء سمحاء في انتصارهم ؛ آلوا على أنفسهم أن يكونوا
قوة محاربة للشر المحيط بهم حتى ينهزم ، وأن يكونوا ضوءاً يدافع الظلام حتى
ينجاب ؛ يكرهون من أعماق نفوسهم المرض والجهل والفقر ، والسخافة
والتخريف ، وكل عيوب البشرية ، ومع هذا يمزجون كراهيتهم لهذه الأشياء
بالعطف على المنكوبين بها حتى ينقذوهم منها .

كفأتهم الطبيعة على حسن صنيعهم براحة ضميرهم وطمأنينة بالهم ، لأن الطبيعة فرضت أن يكون الإنسان اجتماعياً ، وفرضت أن يتبع سنة الارتقاء ، فأثابت من جرى على سننها ، وعاقبت من خالف قوانينها ؛ فإذا رأيت سأمًا وضجرًا بالحياة ، وميلًا إلى الانتحار ، وجنونًا بعد عقل ، وشقاوة نفس بعد سعادة ، فتم — ولا شك — قانون طبيعي خولف ، وطريق مستقيم عدل عنه .

ثم الأمر في النفس ليس كالأمر في الجسم . فقد ينضج الجسم ويكتمل ، والنفس لا تزال على حالها نفس طفل ؛ فالشاعر كان محققًا حين قال : « جسم البغال وأحلام العصفير » ، وفي الناس حولنا أشكال وألوان من هذا القبيل ، رجولة جسم وطفولة نفس ، ومقياس ذلك الذي لا يتخلف هو ضمير « أنا » و « نحن » ؛ فإن رأيت لا شيء إلا « أنا » رأيت طفلاً مهما كان جسمه وسنه ، وإن رأيت « نحن » كثيراً و « أنا » قليلاً رأيت رجلاً ، والرجال قليل .

هناك من ليس أمامه في الدنيا إلا جسمه ، يبحث حياته عن الأكل الطيب والملبس الطيب والنعيم الطيب ، وذلك كل تفكيره ، وكل سعيه ، وكل غرضه ؛ ركزوا في صحة جسمهم ونعيمه كل شعورهم ، وكل عواطفهم ، وكل ملذاتهم ؛ فإن عملوا عملاً خارج هذه الدائرة فلهذه الغاية ، تعرفه بالإفراط في العناية بنوع ما يأكل ، ومقدار ما يأكل ، وبهندامه وبمراه في المرأة ، وبالخدقة في حركاته وسكناته ونحو ذلك ، ثم لا شيء ؛ فهذا طفل كبير .

وإن شئت فعد من هذا القبيل ناسكاً راهباً لا يفكر في أحد من بني آدم حوله ، ولا يهمه حال قومه سياسياً ولا اجتماعياً ، ولا يعنيه شقوا أم سعدوا ، ولا يحمل تبعه شيء ، ولا يُصادق أحداً ، ولا هم له في الحياة إلا نفسه وعبادته ؛ أليس هو الآخر طفلاً كبيراً شغلته « أنا » عن « نحن » ؟ .

وهناك مَنْ يَحُدُّ العالمَ بِمحدود نفسه ، إذا فكر فكر فيها ، وإذا عمل عمل لها ، لا يعنيه من العمل إلا مقدار ربحه منه ، خسر الناس أو كسبوا ، لا يمنعه من الغش في عمله إلا خوف العقوبة ، فإن أمنها عمل ما شاء ليربح مالا ، أو يكسب شهرة ، أو يحقق غرضاً من أغراضه لنفسه ، تعلم درس الأخذ ولم يتعلم درس العطاء ؛ وليست الدنيا كلها وما فيها إلا قنطرة يعبر عليها للوصول إلى غايته ، فهذا كذلك طفل كبير .

وهناك مَنْ يهرب — كالطفل — من كل تبعة ، لا يقتحم الحياة ولكن ينتظر القدر ، ولا يزاحم ولكن ينتظر الحظ ، إن عرض له شيء متعب تنحى عنه إلى شيء مريح .

وهناك أسوأ من هذا : من رفع نفسه فوق الناس ، فهم لم يخلقوا إلا له ، ولم تُخلق عيونهم إلا لتقع على مطلبه ، ولا آذانهم إلا لتصغي إلى كلمته ، ولا أيديهم إلا للعمل في خدمته ، يسير في الحياة على ما يهوى ، ويجب أن يسير الناس فقط على ما يهوى ، فهذا أيضاً طفل كبير ؟ وكم في الناس من أطفال كبار ، وهم في طفولتهم أشكال وألوان .

ارسم خطاً مستقيماً رأسياً ، وضع في أسفله « أنا » وفي أعلاه « نحن » ، وامتنحن نفسك : كيف أنت في عملك ، هل لا تنظر إلا إلى شخصك ، أو تراعى فيه مصلحة قومك ؟ وكيف أنت في علاقتك بالناس وعلاقة الناس بك ، وهل تؤدي زكاة مالك ، وزكاة علمك ، وزكاة فنك ، وزكاة كفايتك ، أو تشح بكل ذلك ، فلا تنفقه إلا لمال أكثر تحصيله ، أو جاه تبتيغيه ؟ وكيف أنت في نياتك ومقاصدك ، هل يؤلمك بؤس الناس وشقاؤهم وفقرهم ، فتبتعطف معهم ، وتعمل جهدك لإسعادهم ، أو أنت وبيتك ، ثم على الدنيا العفاء ؟ وحدد بذلك

كله مركز من الخط المستقيم ، فإذا قربت جداً من « أنا » فهذا دليل الطفولة ولا محالة ، وإن قربت جداً من « نحن » فأنت رجل .
هذا هو التقويم الصحيح للناس ، وهو — مع الأسف — غير ما تواضعوا عليه ، إنهم يقدرّون الرجل بماله وبجاهه وبمنصبه ، وبكل شيء إلا قيمته الحقيقية ؛ ولو راعيت هذا المقياس الحق الذي ذكرنا لرفعت من شأن عامل بسيط على صاحب مصنع كبير ، وموظفاً في الدرجة الثامنة على موظف في الدرجة الأولى ، ومعلماً أولياً على سرى كبير ، وكفّاساً مخلصاً على طيب غير مخلص ، وجندياً مجهولاً على قائد مشهور . ولكن أنى لنا المدنية الحقّة التي تهدم نظام القيم المتعفن لتضع مكانه نظاماً للقيم نظيفاً ؟

نظرة في إصلاح متن اللغة العربية

اللغة العربية لغتنا ، فيجب أن تخضع لحياتنا ، تنمو بنموها ، وتسير مع زمننا وزمن من يأتي بعدنا ، تسيرنا في تقدمنا وتكون أداة طيعة لتطورنا ، لا أن تقسرها على أن نرجع إلى الوراء ، ونعيش عيشة القرون الوسطى . ولغة كل أمة عنصر من عناصر تكوينها ، ورقها أو انحطاطها ، لها الأثر الكبير في تكوين النزعات والأخلاق فيها ؛ فإن اللغة متن الأدب ، والأدب غذاء العقول والأرواح ، وهو الطابع الذي يطبع الأمة بطابع السمو أو الضعة ، والعزة أو الذلة .

ونظرة واحدة إلى تاريخ اللغة العربية وموقفنا منها الآن ، يبين لنا مدى الخطر الذي يحيط بنا ، وهو يتلخص في أن جماعة من العلماء في صدر الدولة العباسية ساحوا بين قبائل العرب يجمعون منهم مفردات اللغة ، وكان برنامجهم ألا يأخذوا عن حضري قط ، ولا عن خالط الحضرم أهل التخوم ، وكلما أمعنت القبيلة في البداوة كانت أولى بالنقل عنها ، كقيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ؛ وأودعوا كل ذلك كتبهم التي صارت نواة لمعاجم اللغة ، وهم — من غير شك — يشكرون كل الشكر على ما بذلوا من جهد وكابدوا من عناء . ولكن موضع الخطأ فيهم أنهم ومشايعهم رأوا أن اللغة العربية ليست إلا هذا الذي جمعوه ، لا يصح أن تزيد ولا تنقص ، وكانت النتيجة الطبيعية لهذه النظرة أنهم يريدون ألا يستعمل الناس أيام الدولة العباسية البالغة مبلغا عظيما من الحضارة إلا ما كان يستعمله هؤلاء البدو في معيشتهم البدوية ، ومحال ذلك — لهذا رأينا اللغة غنية غنى مفرطا في أدوات البدو ووسائل معيشتهم ، فقيرة جداً في حاجات المدنية ووسائلها ، ولهذا اضطر غيرهم

— بعد أن ضغطت عليهم المدنية — إلى التعريب بعد أن أعرضوا عنه ، نزولا على حكم الطبيعة وتطور العمران ، وخلطوا ما أخذوه عن القبائل بما عربوه من الأمم الممدنة ، فأضاعوا بذلك القاعدة الأولى التي رسموها لأنفسهم ، وهى الأخذ عن العرب الخالص فقط ، ولو كانوا أدركوا هذه النتيجة لسمحوا لأنفسهم من أول الأمر بالأخذ عن القبائل التي اختلقت بالعجم أيضاً ، فهم على الأقل أولى من العجم الصرف الذين عربوا عنهم .

على كل حال أدرك الناس أن متن اللغة البدوى لا يكفي للحياة الحضرية إذ ذاك ، فأكملوه بالتعريب وبتوسيع الاشتقاق وبالقياس ، وسأيرت حركة الاجتهاد فى اللغة حركة الاجتهاد فى التشريع ؛ ثم أصيب العرب بالضربة الشنيعة فى الأمرين معاً ، وهو إقفال باب الاجتهاد فى التشريع وباب الاجتهاد فى اللغة ، وهو حكم قاس لا يمكن تنفيذه فيهما إلا إذا ماتت الأمة ، وماتت اللغة (لا قدر الله) ، فلما لم تمت الأمة تحايل بعض العلماء على فتح باب الاجتهاد فى التشريع بوسائل ضعيفة وحيل سخيفة . فلما لم تنجح هذه الحيل كانت الضربة الخجلة ، وهى إهمال التشريع الإسلامى والاعتماد على التشريع الأوروبى إلا فى حدود ضيقة كالأحوال الشخصية . وأما فى اللغة فكذلك نمت اللغة العامية على حساب اللغة العربية ، واستعمل الناس فى حرفهم وصناعاتهم وحياتهم اليومية الكلمات التى يرون أنفسهم فى حاجة إليها ، ولو أخذوا من اللغات الأجنبية محرفة ، ولم تبق اللغة العربية الفصيحة إلا فى تعليم التلاميذ ريثما يؤدون الامتحان ، أو على أقلام الخاصة الذين يشعرون بضيقها ، وكثيراً ما يفرون عند كتابتهم من وصف الحياة الواقعية من جزمة وطربوش وجاكتة الى كلمات عامة : كذاء وقلنسوة ولباس ونحو ذلك ، مما تكون فيه الحقيقة فى واد والكلام فى واد ؛ ولو استمررنا على ذلك لكانت نتيجة اللغة نتيجة التشريع .

ولا علاج لهذا الأمر إلا فتح باب الاجتهاد ، لأن إقفاله كان هو الداء .
وإذا ثبت لنا الاجتهاد بدأنا بذكر بعض مقترحات متواضعة نتبعها بغيرها
إن شاء الله :

فأولاً — نظرة واحدة إلى اللغة العربية ترينا أنها واسعة سعة عظيمة أكثر مما يلزم في بعض المواضع ، ضيقة ضيقاً شديداً أكثر مما يلزم في مواضع أخرى ، كالثوب يطول أحد كفيه أمتاراً ، ويقصر كفه الآخر فلا يكون إلا شبراً .
والسبب في ذلك هو ما ذكرت أن اللغة العربية كانت لغة قبائل مختلفة بدوية ، فما كان منها يتصل بحياة البدو من الإبل وحياتها وصفاتها ، والأرض وأنواعها ، والخيام وما إليها ، فغنى مفرطاً يدل على ذكاء العرب ومقدرتهم ودقة ملاحظاتهم ، حتى لم يتركوا شيئاً من ملابس حياتهم إلا لحظوه ووضعوا له اسماً ، وكانت كل قبيلة تفعل ذلك ؛ فلما جمع العلماء اللغة من قبائل مختلفة تنوعت الأسماء المتعددة للشيء الواحد ، وهذا علة ما نسميه بالمترادفات — وما كان منها يتصل بحياة الحضر كالملابس الحضرية والأطعمة الحضرية فقليل ، وأكثره جاء من التعريب في العصر العباسي . فإذا أتينا إلى زمننا ورأينا الحضارة الغربية ومنتجاتها رأينا من الطبيعي قصوراً واضحاً ، فإذا قارنا الناقة وأنواعها وأجزائها بالطيارة وأنواعها وأجزائها ، والعقاير البدوية بالعقاير الحضرية ، والصناعة البدوية بالصناعة الحضرية الخ ، وجدنا الغنى المفرط في الأولى والفقير المدقع في الثانية ، وهكذا وعلاج ذلك في نظري أمور :

(١) التخفف من كثير من مفردات اللغة التي في المعاجم ، فلا بد من طرح بعض الألفاظ وإماتها إلا أن تودع في كتب مؤرّخة للغة ، وهذا عمل ضروري لنفسح مجالاً للكلمات الجديدة في المسميات التي نحن في حاجة إليها ؛ وإلا فإذا نحن أبقينا القديم كما هو ، وأضفنا إليه الجديد لتضخم متن اللغة تضخماً يعجز عنه

أى متعلم . وأولى الكلمات بالإماتة هي :
(١) الكلمات الحوشية التى يمجّها الذوق ويكرهها السمع ، والتى عبر
عنها أصدق تعبير الصفى الحلى إذ يقول :

إنما الحَيَزَبُونُ والدرْدَيِسُ والطَخَا والنَّقَاخُ والعَلْطَبِيْسُ
لغة تنفرُ السامعُ منها حين تُروى وتشمزُ النفوس
وقبيح أن يُذكرَ النافرُ الوَحْشِيُّ منها ويُتركُ المأنوسُ
أين قولى : هذا كَثِيبٌ قديم ومقالى : عَقَنْقَلُ قَدْمُوسُ
خلٌّ للأصمعى جوبَ القيافى فى نِشَافٍ تخف منه الرعوس
إنما هذه القلوب حديد ولذيد الألفاظ مغناطيس
فلننزل على حكم الصفى الحلى ونستبعد هذه الألفاظ وأمثالها . وكما يكون
عملنا فى المعاجم التفتيش عما يصلح ، يكون من عملنا أيضاً التفتيش عما لا يصلح ،
وتقرير استبعاده وعدم إدخاله فى المعاجم الجديدة .

(ب) كذلك استبعاد كثير من المترادفات التى لا حاجة إليها ، فما حاجتنا
إلى أن يكون للعسل ثمانون اسماً ، وللسيف نيف وخمسون ، وللحبة نحو مائتين ،
وللمصيبة نحو أربعمائة ، فى حين أن أهم من ذلك كله ليس له اسم واحد . لقد
مضى الزمن الذى كنا نعد فيه كثرة المترادفات مفخرة للغة ، واضطرتنا كثرة
مخلوقات المدنية أن نحمد الله إذا وجدنا لكل مادة فى الحياة اسماً واحداً يصطلح
الناس عليه ، ويتفاهمون به . نعم إن بعض المترادفات ليس مترادفاً ، لدلالته
على وصف أو نحو ذلك ، ولكن الكثير منها لا يدل على شئ غير الذى يدل
عليه اللفظ الآخر ، فلا حاجة إليه — ونعم ، إن كثرة المترادفات ضرورى للشعر
العربى الذى تلتزم فيه القصيدة وحدة القافية والروى ، ولكن هذا فى نظرى
عيب آخر يضاف إلى عيوب المترادفات ، فوحدة القافية والروى فى القصيدة

الطويلة أضعفت من الشعر إلا على يد المهرة ، وجعلت الشعراء يشدون المعاني شدا
ليعتروا على القافية لا أن يأتوا بالقافية التي تلائم المعنى ، وما علينا لو تعددت
القوافي في القصيدة الواحدة ، فذلك أروح للسمع ، وأفسح مجالاً للشاعر .
(ح) كذلك حذف كلمات الأضداد والقضاء عليها بتاتاً مثل قولهم : « ولى
إذا أقبل وولى إذا أدبر ؛ وشعبتُ الشيء إذا أصلحته ، وشعبته إذا شتقته ؛ وأفدت
المال إذا أعطيته غيري ، وأفدته استفدته ؛ وقسط : جار ، وقسط : عدل ؛ والغريم :
المطالب ، والغريم : المطالب ، ونحو ذلك من مئات الكلمات . فهذا أسخف شيء
في اللغات وهو مفسد للقصد منها ، فإن اللغة موضوعة للإبانة عن المعاني ،
فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على الشيء وضده لضاعفت قيمة اللغة ، وكان
هذا تعمية لا إبانة ، وتغطية لا كشفاً ، واللغة لم توضع لتكون ألغازاً . وعلة
وجود الأضداد في اللغة العربية أن العلماء جمعوا الكلمات من القبائل المختلفة ،
فقد تكون الكلمة دالة على معنى في لغة ، وعلى ضده في لغة أخرى ، فكانت
كل قبيلة حكيمة في نفسها ؛ فلماذا يريدوننا أن نجتمع بين المتناقضات ؟ وكما ولد
اختلاف القبائل هذا التضاد ، ولد أيضاً كثرة المشترك في اللغة ، فكم معنى للعين
وللخال وغير ذلك ، مما يجعل الذي يريد أن يفهم نصاً من النصوص حائراً بين
جملة معان ، كلها صالح ، ولكن لا يستطيع الجزم بأحدها . ولعل القارئ لشرح
ابن الأنباري للمفضليات يرى في كل قصيدة الاختلاف في فهم المعاني اختلافاً من
أسبابه كثرة هذا المشترك ، ولا أريد حذفه بتاتاً كما أريد حذف المتضاد ، فالحاجة
إليه شديدة ، ولكن أريد التخفف منه قدر الإمكان .

هذه أمثلة من أمثلة تضيق الواسع . وأما الناحية الأخرى ، وهي توسيع
الضيق ، فأبوابها التعريب والاشتقاق والقياس ، وكلها اتبعت في العصر العباسي ،
ثم كان الخطأ في التضيق على أنفسنا في استعمالها ، مع شدة حاجتنا إليها .

أما التعريب ، فقد سار مجعنا اللغوى وبعض العلماء عليه سيراً محموداً ، وقضوا جزءاً كبيراً من وقتهم فى تعريب المصطلحات العلمية والفنية ، وليس عليهم إلا أن يستمروا فى طريقتهم فى تعريب أدوات الصناعة وسائر أدوات الحضارة ، مع توسع فى المنهج الذى يسيرون عليه ، وقد أفردُ لذلك بحثاً آخر . وأما الاشتقاق والقياس فكلاهما يتدخل فى الآخر فى بعض صورته ، فلا تجمع بينهما فى الكلام ، وأسقُ بعض الأمثلة لما أريد منهما .

(١) إنا نعرف صيغ الزوائد ، كأفعل وفعل وفاعل وانفعل وافتعل واستفعل الخ ، ونعرف المراد منها فى الأعم الأغلب ، فيقولون إن فاعلَ للمشاركة مثلاً ، وافتعل لا تأخذ شيئاً كاختتم اتخذ خاتماً ، واستفعل للطلب كاستغفر الله ، وتفاعَلَ لحصول شيء تدريجاً كتزايُد النيل ، وتواردت الإبل ، إلى آخر ما قالوا . ولكن وجه العيب أنهم قصرُوا ذلك على ما سَمِعَ ، ولم يبيحوا لعلماء اللغة أن يتوسعوا فى هذا الاستعمال متى احتجيج إليه وكان جارياً على أساليب اللغة . ما الذى يمنع من أن أقول خابرتَه كما قالوا نابأته والمعنى فى الاثنين واحد ؟ ! وما المانع أن أقول استلفتُ نظره وفيها معنى طلبت إليه أن يوجّه نظره ؟ ! ونحو ذلك . إن أكثر المتزمتين فى اللغة لا همّ لهم إلا أن يخطئوا كل ذلك لأنه لم يرد فى المعاجم . والذى أريد : أن يكون كل هذا قياسياً متى انطبق على القواعد الصرفية ودعت الحاجة إليه . وكذلك الشأن فى المصادر ، فقد نصوا على أن الفعل إذا دل على حرفة فقياس مصدره فعالة كالحياطة والحياكة ، فلنعم ذلك إذا شئنا كالبرادة والنقاشة ؛ وفعلان يدل على الثقل كالجولان والغليان فنقيسه فى مثله متى احتجنا إليه ، ولو لم ينصوا عليه ؛ وصيغة فعّال تطلق على صاحب الحيوان ومروّضه ، فقالوا : فيل وفيّال ، فلم لا نقول إذا احتجنا قرّداً وقرّاد ، وكلب وكلّاب ، وهكذا ؟ !

(٢) كذلك من أصعب الأبواب وأكثرها خلطاً في اللغة العربية المذكر والمؤنث، فيؤنث المذكر، فيقال: هو راوية للشعر وعلامة، ونسابة، ويذكر المؤنث فيقال هي كاعب وناهد؛ وهناك ألفاظ يطلق فيها اللفظ الواحد على الذكر والأنثى من غير تغيير كقولهم: شاب أملود، وجارية أملود، وبعير ظهير، وناقّة ظهير، أى قوى، وجمل ضامر وناقّة ضامر. وهناك الحيرة في أسماء هل هي مؤنثة أم مذكرة؟ كالدرع والرمح والرحم، فلا بد من الإمعان في الكشف عليها، وقد لا تجد نصاً؛ وهناك ما يذكر ويؤنث على السواء، كالسلاح والصاع والسكين والدلو والسوق والعسل والروح — فيجب العمل على تسهيل هذه الصعاب المربكة والجرأة في تنظيمها، ووضع قواعد عامة لها، ولو خالفنا فيها بعض النصوص، من مثل: (١) جواز تأنيث كل مؤنث بإلحاق تاء التأنيث به، فنقول: هي كاعبة وناهدة، وشاب أملود، وجارية أملودة وجمل ضامر وناقّة ضامرة.

(ب) كل ما لم يرد فيه نص فالأنثى بالهاء والمذكر بغيرها، من غير توقف على نص.

(ح) كل ما ليس مؤنثاً حقيقياً كأسماء الجماد إذا لم تكن فيه علامة التأنيث كالدلو والبئر والأرض والسماء والنجم يجوز تذكيره وتأنيثه، كما روى صاحب المصباح عن ابن السكيت وابن الأنباري إذ قالوا: «إن العرب تجترى» على تذكير المؤنث إذا لم تكن فيه علامة التأنيث.

وعلى الجملة فالواجب تنظيم هذا الباب بالقواعد التي ذكرت ونحوها، وإزالة الصعاب التي شوّهت اللغة وجعلت تعلمها عسيراً.

كذلك يجب ألا نفهم أن اللغة العربية التي نملكها هي عمل العرب في البادية وحدهم، بل إن اللغة العربية هي عمل هؤلاء مضموماً إليه عمل الأدباء والعلماء الذين عانوها وعالجوها إلى اليوم؛ وبعبارة أخرى يجب أن نفهم

أن اللغة ليست ما جمعه الخليل وابن دريد والجوهري ونحوهم من السنة العرب وحدهم ، بل اللغة أيضاً ما استعمله ذوو الذوق العربي من أمثال أبي تمام والبحترى والمتنبى وأبي العلاء ومن أتى بعدهم على منوالهم ، فإذا استعمل هؤلاء لفظاً أو تعبيراً لم يرد في المعاجم ، ووجدناه يسد حاجة من حاجتنا استعملناه وعددناه عربياً ، فالألفاظ التي استعملها أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني — من مثل : ندر الرجل ، وتندر إذا جاء بالنادرة ، وندر بفلان وتنادر عليه إذا جعله موضع نادرتة — عربية كالتى نطق بها الأعرابي ؛ وإذا استعمل المقرئ «التذكرة» بمعنى الرقعة التى يكتب فيها ليتذكر ففى عربية ؛ والألفاظ الاصطلاحية التى استعملها ابن خلدون ليسد بها حاجته فى علم الاجتماع عربية ، ويجب أن تدخل فى المعاجم .

وهذا كله يسلمنا إلى القول بغربة ما سموه الدخيل ، وإدخال ما يصلح منه فى معاجمنا كأصيل تماماً بلا تفرقة إلا إذا وضعنا معجماً تاريخياً ، وقد قام الأستاذ «دوزى» فى ذلك مقاماً حسناً بمعجمه الذى وضعه فى معانى الكلمات المستحدثة التى وردت فى كتب المتأخرين .

هذا رأى فى التوسيع والتضييق ، وليس ما ذكرت إلا أمثلة قليلة يمكن التوسع فيها إذا قبل المبدأ .

ثانياً : من أشق الأمور على دارس اللغة العربية ضبط عين الفعل الثلاثى ماضيه ومضارعاً من أوزان الفعل الستة ، والمتخصص فى دراسة اللغة يشيب ولا يستطيع الجزم بصحة نطقه فى هذا الباب أهو من باب نصر أو ضرب أو ذهب ألخ ، ولو ترك هذا الأمر على حاله ما أمكن النطق الصحيح الدائم مهما طال الزمن وكثر الدرس ، بل فى كثير من الأحيان نشك فنرجع إلى المعاجم فى بعض الصيغ فلا تنص أو تختلف أو تجيز ! ومما يزيد الأمر صعوبة أن الفعل الواحد يكون

له وزن أو وزنان إذا كان بمعنى خاص ، وله وزن آخر أو وزنان إذا كان بمعنى آخر ، ويضطرب الباحث بين هذه النصوص ، وإذا لم يضطرب فلا يستطيع إحصاءها واستيعابها والأمن من الزلل فيها .

وقد أدرك هذه الصعوبة بعض العلماء قبلنا فاجتهدوا فيها ، فقد روى القاموس في مقدمته عن أبي زيد الأنصاري : « إذا جاوزت المشاهير من الأفعال التي يأتي ماضيها على فَعَل فأتت في المستقبل (أى في الفعل المضارع) بالخيار إن شئت قلت يفْعَل (بضم العين) ، وإن شئت قلت يفْعِل (بكسرها) » فتقول : حشر يحشُر ويحشُر ، وعكف وعكِف ويعكِف ويعكُف الخ » .

وهو اجتهد حسن لا بأس به ، ولكن يجب أن يكون لنا من الحق ما لأبي زيد ، فننظم الأفعال الثلاثة كلها ولا تقتصر على ما كان من باب « فعل ، ولا نجيز أن يكون مضارع فعل من باب ينصر أو يضرب ، فإن هذه توسعة ضارة لا حاجة إليها ، بل نكتفي بوزن واحد وليكن وزن يضرب . فإذا جاز لأبي زيد أن ينظم بعض التنظيم ، فنحن أحوج ما نكون إلى التنظيم الكامل وأقدر منه .

وهناك أبواب أخرى في اللغة العربية مسببة للخلط والاضطراب ، كباب التعدى واللزم ، وباب العدد ، والمصادر وكثرتها وبعثتها ، وجموع التكسير واضطرابها الخ ، وكلها تحتاج إلى ضبط ولو بتوضيحية .

وأخيراً لا بد من تقرير فتح باب الاجتهاد في اللغة لتنظيمها وضبط الفوضى فيها ، وهذا لا يكون إلا بالاعتقاد أن اللغة ملكنا لا أننا ملك لها ، نتصرف فيها كما يتصرف الملاك في أملاكهم ، بالهدم والبناء والتغيير والتبديل ؛ إنما يجب أن يكون التصرف تصرف العقلاء لا السفهاء ، فنربط جديداً بقديمنا ، ولا نبني إلا ما نحن في حاجة إليه ، ونبنيه على خير وجه ، يحقق الغرض المطلوب ، ونختار في بنائه خير البناءة .

إن الوضع الذى وضعنا فيه أنفسنا إزاء اللغة وضع خطأ ، لقد وضعناها وضع الإلهة المالكة المقدسة ووضعنا أنفسنا منها وضع العبد الذليل الخاضع . والوضع الصحيح أننا نحن السادة وهى العبد الطيعة ، وليس يصح أن ننتظر رأياً من أبى زيد ، ولا كلمة من الأصمعى ، ولا تخريجاً من الأشمونى ، لنلجأ إليه ونعتصم به فى الإصلاح ، فمقولنا أقدر على فهم حاجتنا ، ونظرنا وتفكيرنا أقدر على تنظيم بيتنا .

إنى لأعجب من أن كثيراً من المصلحين تنبهوا إلى خطر الجمود فى التشريع ونادوا بالاجتهاد فيه مع الاحتفاظ بالأصول الكلية فى الدين ، ولكن لم أجد داعياً إلى الاجتهاد فى اللغة ، مع أن للجمود فيها خطراً لا يقل عن خطر الجمود فى التشريع ! ومصدق ذلك انصراف أكثر المتعلمين عنها متى نالوا حظاً من لغة أجنبية ، وقلة من يجيدها قراءة وكتابة كأنها لغة إضافية لا لغة أصلية .

ثم لا خطر من هذا الاجتهاد مطلقاً متى أحكم طريقه ، ومتى حوفظ على مقومات اللغة . وليست مقومات اللغة فى ألفاظ تحذف وألفاظ تزداد ، ولا فى هذه الفوضى فى كثير من الأبواب ، إنما مقومات اللغة فى هيئتها وبناء كلماتها وطريقة الاشتقاق منها ونحو ذلك ، بل إن تنظيمها وتحديد الفوضى فيها يرفع من شأنها ويزيد فى حيويتها ، ويكثر من سواد من يجيدها .

وهنا سؤال يصح أن يوجه ، وهو لمن يكون هذا الحق فى الاجتهاد ؟

والجواب : أن شأن اللغة شأن غيرها من الفقه وسائر العلوم والفنون ، كل متمكن من فرع دارس له متخصص فيه نضج فيه ذوقه ، له الحق أن يقترح وينادى بنظريته التى يراها ، والمتخصصون فى هذه المادة ينظرون إلى رأيه ونظرياته ويقررونها أو يرفضونها أو يعدّلونها ، ثم بعد ذلك الهيئات الرسمية فى التشريع تأخذ ما تراه صحيحاً من أقوال هؤلاء العلماء ، وتتخذ منها قانوناً لها ،

والجامع العلمية المعترف بها من الأمة تقرر صحة النظرية العلمية أو خطأها ، وتدخل في عداد العلم ما ثبتت صحته وهكذا ؛ فكذلك الشأن في اللغة لكل كاتب وشاعر أن يستعمل من الكلمات اللغوية ما يؤدي غرضه ويعرضه على الناس ليجاروه أو يرفضوه ، والجامع الرسمية كمجمعنا ومجمع دمشق تأخذ من هذا كله ومما يعرضه عليها أعضاؤه بجدهم وبحسب ما تراه صالحا ، وتعدّه وتذيعه على الناس ليكون دستورا . ثم لا بد أن يكون هناك اتصال بين المجمع والحكومة اتصالا تشريعيا ؛ فإذا قرر المجمع مثلا رسم الألف اللينة في الآخر ألفا ، مطلقا ، فلا قيمة لهذا القرار إلا أن تصدر وزارة المعارف بذلك أمرا لاستعماله في مدارسها وكتبها وإلزام المعلمين باتباعه ، وهكذا حتى يكون للإصلاح نتيجة فعلية ؛ ولنتبع في ذلك ما اتبعته الأمم الحية في إصلاح لغتها وكتابتها وننتفع من تجاربها ، وتجنب أخطاءها ، والله الموفق .

كيف تتغلب على الأحزان؟

كل يوم نلقى من الأحداث ، ونسمع من الأخبار ما يحزن النفس ، ويدمع العين ، ويضنى القلب ، من مرض أو موت أو نزول كوارث ، أو حدوث نكبات ، مختلفة الأشكال والألوان . والناس لم يتقدموا في ترويض النفس على احتمال الآلام ، كما تقدموا في إيجاد الوسائل لتحصيل الملاذ ، فلا يزال الناس يثنون من المصائب والكوارث كما كان يئن آباؤهم الأولون ، ولكنهم في ملذات العيش ووسائل السرور يخترعون كل يوم جديدا ، ويخلقون كل حين فنا ولو نجحوا في تخفيف الآلام بنجاحهم في جلب اللذائذ لكان خيرا لهم ، لأن جناية الألم على الصحة والنفس أكثر مما تجلبه اللذة من المنفعة ، ولذا نذ سنة تضيع في ألم ساعة . ومع هذا فقد عالج الإنسان الأحزان بوسائل شتى .

ومن هذه الوسائل علاجها بالفلسفة ... قال الفيلسوف : « إن ما يحدث في العالم من موت ومرض وكوارث أمور لا بد منها ، وظواهر طبيعية للعالم الذي نعيش فيه ، فكل حي لا بد أن تنتهى حياته بالموت ولا بد أحيانا أن يضيقه المرض ، والحياة الاجتماعية لا بد أن يتسبب عنها كوارث ، فإذا وجدت سيارات فلا بد من تصادم ، وإذا وجدت قطارات فلا بد من خروج عن الخط ، وإذا وجدت طائرات فلا بد من سقوط بعضها وهكذا . وإذا كانت كل هذه الأمور من طبيعة العالم كشروق الشمس صباحا ، وغروبها مساء ، وتعاقب الفصول من خريف وشتاء وربيع وصيف ، فلماذا نحزن ؟ .. يجب أن نوطن أنفسنا على استقبال كل أحداث الكون ، وإذا مررنا على ذلك أنفسنا لم نحزن — وعلى الأقل لم نحزن كثيرا » ولكن هذه الفلسفة لم تفد إلا قليلا من الفلاسفة الذين

قويت إرادتهم ، واستطاعوا أن يخضعوا عواطفهم لعقلهم .
ونصح بعض علماء النفس ألا يطيل الإنسان التفكير في أسباب الحزن .
وذلك بتوجيه الخيال والفكر وجهة أخرى غير مصدر الحزن ، كما نفعل في سياسة
الطفل ، فإنه إذا بكى وجهنا نظره إلى لعبة أو قطعة من الحلوى أو نحو ذلك ، فإذا
هو ينصرف عن بكائه ، ويلتفت إلى الشيء الجديد . وسبب ذلك أن طول
التفكير في الحزن يطيل الحزن ، فلو استطاع الحزين أن يصرف ذهنه إلى أمور
أخرى غير سبب الحزن زال حزنه بمقدار قدرته على السيطرة على ذهنه ، ومن
هذا القبيل ما يفعله الحزين من سفره أو انتقاله من منزل إلى منزل أو تغيير
نوع معيشته .

ثم هناك نوع من حديث النفس يلطف الألم ، ويخفف الحزن ، كأن تناجي
نفسك : « ما فائدة الحزن إلا أن يضعف الجسم ويفسد الصحة ويزيد في الألم ؟
إننا سنفقد حياتنا يوما ما ، فخير أن تمضي أيامنا في هدوء وطمأنينة ما دام الموت
آخر كل حياة . إن الزمن — لا محالة — سيمسح الهموم أو يضعف شأنها ، فلماذا
لا أساعد الزمن على أن يكون بلسمًا للأحزان ؟ وإذا كان الزمن سيتكفل بتخفيف
الهموم في المستقبل فلماذا لا أجتهد أن أخففها في الحاضر ؟ فلنتشجع في احتمال
الألم طويلا فستكون الحياة قصيرة ، والغمرات التي لا يمكن احتمالها ستذهب
بالحياة وبنفسها ، ما ستون سنة وما سبعون — وهى عمر الإنسان — فى عمر
الزمان ؟ وقد ذهب بعضها .. لقد كان الأمر يكون قاسيا على النفس لو خُصِصَتْ
بالأحزان وخص غيرى بالسرور . ولكن ليس أمر الحياة كذلك ، ففي كل بيت
مأتم ، وفي كل نفس جروح .

مثل هذا من أحاديث النفس حق لا خداع فيه ، وهو ينزل على القلب
بردا وسلاما ، وضمادا للجروح وبلسما للهموم .

و « الدين » من خير ضروب العزاء .. فمن طبيعة الدين أن يشعر الإنسان بأن
له سندا قويا من « الله » يعتمد عليه في الشدائد ، ويركن إليه في الملمات ، وشتان
في الحياة بين مسلح وأعزل ، ومن يستند على ركن شديد ومن ليس وراءه إلا
فراغ وخلاء . ثم الإيمان بحياة وراء هذه الحياة يبعث الأمل ، ويكسر الحدود .
وفي الحياة الأخرى ملتي الأرواح ومرد الغائب ، ولقاء الغريب للغريب ، وفي ذلك
منتهى العزاء . إن الدين طمأنينة العاطفة ، إنه الملجأ من العاصفة ، ومصائب الدنيا
بدون الدين خراب وجفاف وفراغ ويأس . من مزايا الدين أن يربطنا بمن حولنا
في العالم رباطا محكما يسيطر عليه الخالق ، ويربط دنيانا بآخرتنا في نظام شامل .
وهذا من غير شك مبعث أنس وطمأنينة لا يشعر بهما الكافر الملحد .

وكثيرا مما يعترى الإنسان من آلام وأحزان سببه أنه ينظر إليها نظرة شخصية
جزئية ، ولو استطاع أن ينظر إليها نظرة اجتماعية أو إنسانية ، خلف ألمه وحزنه .
فموت القريب إنما يحزن للنظر الشخصي .. ولو نظر إلى الموت من حيث هو
ظاهرة اجتماعية لا بد منها لمعيشة الإنسان وسعادته لكان أمره ، فلو لم يكن موت
من عهد آدم وحواء إلى الآن لكان العيش على ظهر هذه الأرض مستحيلا ، ولما
وجد الفرد بيتا يسكنه ، ولا قوتا يأكله . فالجيل الحاضر إنما استطاع أن يعيش
ويسعد على حساب موت الجيل السابق . وهكذا لو نظر المرء إلى المسائل من هذه
الزاوية وفي الأفق الفسيح لقلل ذلك من حزنه الشخصي .

وأخيرا هناك أحزان وآلام ، ليست إلا نتيجة أوهام ، فقد أفهم أن يألم الإنسان لموت عزيز أو مرض حبيب ، ولكنى لا أفهم أن يألم الإنسان لأوهام ، كسيارة اصطدمت وكسرت ، أو جزء من مال تَلَفَ والباقي لك يكفيك ، أو تجارة خسرت ، أو ربح ضاع ، أو وظيفة لم تتحقق ، أو حبيب أعرض ، أو نحو ذلك من أمور يمكن الإنسان بقليل من سعة العقل وكبر النفس أن ينظر إليها ويتسم من حدوثها ، فإذا هو أعمى في الألم منها وإنما ذلك من ضيق نفسه أو خفة عقله . ويتصل بهذا النوع آلام كثيرة تعرض للإنسان من عرامة شهوته ، وشدة طمعه ، وكثرة رغباته ، وأنه كلما نال شيئا فى الحياة زادت مطامعه ، وكلما حصل على عشرة طلب مائة ، وهكذا هو سجين المطالب والشهوات . . فإذا لم تتحقق تنفصت حياته وزادت آلامه ، وعييه ليس فى ظروفه المحيطة به ، ولكن فى نفسه الجشعة ، ولو مستها القناعة لقلت آلامها .

وعلى كل حال فقلبتك للآلام والأحزان متوقفة على تعديل نظراتك للحياة ، وإذا لم يكن فى إمكانك دفع الأحداث فليكن فى إمكانك تشكيل نفسك لمواجهة الأحداث .

لماذا نقرأ؟ وماذا نقرأ؟ وكيف نقرأ؟

أُسئلة ، على بساطتها ، صعبة الجواب ، تحتاج إلى دقة نظر وإمعان فكر .
أما لماذا نقرأ ؟ ففى نظرى أننا نقرأ لغرض من غرضين ، أو هما معا . فأحد الغرضين أن نتعرف العالم أو شيئاً عنه ، فمن قبلنا ومن عاصرنا جربوا الحياة ، واطلعوا على آراء مَنْ قبلهم ، وبحشوا وفكروا ، وأودعوا كل ذلك كتبهم ، وأوضحوا ما وصلوا إليه من حقائق — أو ما ظنوه حقائق — فى كتاباتهم . وكل باحث وكل مفكر وكل فيلسوف نظر إلى العالم من زاويته ، واختص بناحية من نواحي التجارب ، تعمق فيها ووصل منها إلى نتائج سجلها فى كتب ألفها . فنحن إذا قرأنا هذه الكتب ، وفرت علينا تجارب جديدة وأزمانا طويلة قطعها الجربون قبلنا وقرَّبوها إلى أذهاننا ، فنستطيع إذا نحن قرأناها أن نصل فى زمن قريب إلى ما وصلوا إليه فى عهد طويل ثم نبني على ما قالوا ونكتشف ما جهلوا .
والإنسان بطبيعته ميال إلى معرفة الكون الذى حوله والوصول إلى كنهه ، ثم استخدام هذه المعرفة فى شئونه وتوفير أسباب سعادته . ولكن هذا الكون متعدد النواحي كثير المظاهر ، لا يستطيع الفرد فى عمره القصير أن يحيط بكنهه كل مظاهره وإدراك جميع نواحيه . فاقترنت كل جماعة على ناحية منه وعلى مجموعة من ظواهره ، فبحثها ودرستها وألفت فيها ، وجاء الآخرون يقرأون للأولين ، كل حسب استعداده وميوله وما تخصص فيه ، فكانت القراءة ، وهى قراءة للدرس والتحصيل والبحث عن الصواب والخطأ والحق والباطل ، حتى يُصلح الأواخر ما أخطأ فيه الأوائل ، ويبنى الخلف على ما أسس السلف .

ونوع آخر من القراءة ، هو القراءة للمتعة وتغذية العواطف ، على حين أن

النوع الأول يغذى العقل ، كأن يقرأ الإنسان ديوان شعر جميل ، فيستمع به وتتفتح نفسه له ، لأنه يرى أن الشاعر استطاع أن يعبر عن عواطفه أحسن مما يعبر ، وصور نفسه أحسن مما يصور ، وقدر على التعبير الجميل عن مشاعره حيث عجز هو عن التعبير عنها ، فهو يقرأ ويلتذ القراءة كما يلتذ الظمان الماء البارد الزلال . وكذلك الشأن في قراءة القصة الجميلة والرواية الجيدة وأنواع الأدب المختلفة . فكلها ممتعة ، تقرأ لذتها وجمالها وقها بجانب ما يلزم من أفكارها . وكلما كان الشاعر أو الروائي أقرب إلى نفس القارئ وأكثر اتحادا بعواطفه وملاءمة له ، كانت القطعة الأدبية أمتع والتلذذ بها أوفر . ويختلف الاستمتاع بالنتائج الأدبية باختلاف الأديب وقارئه . فإذا سما الأديب وسما القارئ كانت اللذة بالنتائج الأدبية أسمى وأرقى ، وإذا انحط الأديب انحط قارئه وكانت اللذة بأدبه أوضع وأحط ، كما هو الشأن في كل اللذائذ الحسية والمعنوية .

وقد يجتمع الغرضان معا ، فمن أمعن في القراءة للدرس وجد لذته في ذلك ، وكلما عمق البحث واستغرق فكر القارئ ووافق عقله ونفسه واستعداده ، كان القارئ أشد بدرسه شغفا وأكثر هياما وأوفر متعة .

وأما ماذا نقرأ ؟ فنستطيع أن نستنتج ذلك من الإجابة الأولى ، فليقرأ كل ما يتفق ودراسته ، ويتفق ونفسه ، ويتفق وعواطفه ، ولكن يجب أن يسمو عقله فيدرس النافع المفيد لا السخيف الضار . فمن عكف على دراسة كتب التنجيم والخرافات والأوهام والسحر فعمره ضائع . فإذا اجتنب هذا الباب ، فكل فرع من فروع العلم الصحيح صالح للدرس والقراءة فيه والاستزادة منه . وكل ما نقوله في هذا الشأن ، أن يدرس القارئ ميله واستعداده وملكاتة وكفايته ، ثم يتجه الجهة التي يحسنها ، وينصرف عما ليس أهلا له ، حتى تكون قراءته ودرسه أكثر

فائدة وأتم نفعاً . وكذلك الشأن في القراءة للمتعة . فهناك أدب رفيع تسمو به النفس وتسعد به العواطف وترقى به المشاعر ، وهناك أدب وضع رخيص تنحط به العواطف وتسفل به المشاعر ؛ فليجتهد القارئ أن يتسامى ، لا أن يتضع ، وأن يرتفع بالقراءة ، لا أن ينحط ، وأن يتخير غذاءه الروحي كما يتخير غذاءه المادي . والقراءة في الحقيقة ظل للنفس والروح ، فإذا انحطت النفس مالت إلى قراءة ما يثير الشهوات ويهيج الغرائز ، وإذا سمت طلبت الفن الرفيع الذي يرقى بالروح ويخلق في السماء . والشأن في ذلك كالشأن في الإنسان ، تدرج في الرقي منذ عهد الطفولة إلى أن صار رجلاً كاملاً ، وكان في كل دور من أدوار عمره يقتنى الكتب يقرأها . فإذا أنت استعرضت مكتبته في أطوار عمره ، رأيتها في كل طور أرقى مما كانت عليه من قبل . وهناك نوع من الناس تبقى نفوسهم على حال واحدة تلتصق بالأرض دائماً ، فمكتبتهم واحدة وإن تعددت أسماء كتبها .

وأما كيف نقرأ ، فالحق أن القراءة فن لا يحسنه إلا القليل . . وفرق كبير بين من يزاول العمل حيثما اتفق وبين من يزاوله كفنان . وليس فن القراءة يوزن بكثرتها ، ولكن بدقتها ، ولا بطول وقتها ، ولكن بقيمتها . فهناك من يقرأ صفحة قراءة فنية ، فتدر عليه من الفائدة والخير ما لا تدره قراءة ألف صفحة قراءة غير فنية . إن هؤلاء الكثيرين الذين يقرأون ، كما يزعمون ، لقتل الوقت ، مثلهم مثل من يتعاطى الخدر ليغيب عن الدنيا أو يسبح في الخيالات والأوهام . ولم يخلق القراءة لهذا ، إنما خلقت للدرس أو للاستمتاع الصحيح . هناك من يقرأون كل ما تصل إليه أيديهم حسبما اتفق ، فيقرأون الجرائد والمجلات والكتب من غير أن يكون لهم غرض معين وغاية محدودة . فهذه القراءة لا تفيد درساً ولا تسبب متعة ، فهم كمن يتجول في الشوارع من غير غرض أو يتسكع في

الطرق لغير غاية . إنما القراءة الصحيحة قراءة حُدِّدَ غرضها وغايتها ، فيعرف القارئ ما يقرأ ولماذا يقرأ — قراءة يشعر معها أن موقفه من الكتاب الذي يقرأه موقف الصديق من الصديق ، فلينظر الانسان من يقرأ كما ينظر من يصادق . إن أهم شرط للقراءة الصحيحة أن تكون قراءة في دقة وإمعان ، يستطعم فيها القارئ الجملة من الفصل ، أو الفصل من الكتاب ، كما يستطعم الأكل اللذيذ يجيد مضغه ويجيد هضمه ، ويسائل نفسه بعد القراءة الدقيقة لكل فصل : « ماذا يريد الكاتب ؟ وهل أخطأ أو أصاب ؟ وفيم أخطأ وفيم أصاب ؟ وإذا كان قد أخطأ فما صواب ما أخطأ فيه ؟ » إن قراءة كتاب على هذا النهج خير من قراءة الكتب الكثيرة قراءة سطحية لا عمق فيها ولا تفكير .

وهذه القراءة تستلزم أن يهب القارئ عقله كله ونفسه كلها لما يقرأ ، فلا يشغله شاغل آخر ولا تقطع تيار فكره العوارض . . فقيما قالوا : « إن العلم لا يعطيك بعضه ، إلا إذا أعطيته كله » .

عالم كذاب^١

ظلم الناس إبريل ، إذ أضافوا إليه الكذب فقالوا : « كذبة إبريل » ، كأنه الكاذب وحده ، أو كأن الكذب يقال في يوم من أيامه وحده ، وكأن ما عداه من الأيام مظنة الصدق وقول الحق ، مع أن كل الأيام في الكذب سواء ، فكل الأيام كاذبة ، وكل الأشهر كاذبة ، لا يختلف فيها يوم عن يوم ولا شهر عن شهر . بل إن العالم كله كذب في كذب ، أسس على الكذب وبني على الكذب . وكيف لا يكون هذا العالم كذابا ، وقد خرج إلى الوجود بكذبة كذبها إبليس على آدم وحواء ، إذ قال لآدم : « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ! فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما » ، ثم ظهر أنها لا هي شجرة الخلد ، ولا هو ملك لا يبلى ، إنما هي شجرة الكذب ، وإنما هو الملك الفاني الزائل .

كل شيء في العالم كذاب — الدنيا نفسها خداعة كذابة ، تتبهرج أمام الناس كما تتبهرج المرأة الخليعة ، فتفتنهم عن مسلك الحق وعيشة الصدق — تغريهم بمفاتنها ومباهجها ، حتى يركنوا إليها ويطمئنوا لها ، كأنها خالدة وهم خالدون ، وتصرفهم عن التفكير في المستقبل والمآل ، فهؤلاء فتنوا بالمال ووجهوا كل حياتهم إليه ينفقون في جمعه أعمارهم ، يكسبونه ويدخرونه ، أو يكسبونه وينفقونه ، وهم يتحاربون من أجله ، ويتخاصمون من أجله ، ويتعادون من أجله ، كأنه غاية الغايات في الحياة ، وكأنهم خلقوا له ، وعاشوا من أجله ، هو تفكيرهم بالليل وهمهم بالنهار ، يبيعون من أجله الحق والشرف والخلق والصدقة ، وكل هذا من خداع الدنيا لهم وكذبها عليهم . ثم ينتهي الأمر أخيرا إلى عجز أو شيخوخة أو مرض

أو موت ، حيث تنكشف الخديعة بعد فوات الأوان .
وهؤلاء آخرون يُخدعون بالجاه ، فيتكالبون عليه ، ويتنازعون من أجله ،
ويضيعون مصالح الناس لكسبه ، ويبدلون في سبيله الخلق والعزة والنبل . ثم
يستخدمونه في ذل الناس وإهانتهم واحتقارهم ، وبعد ذلك كله ينبجلى الأمر عن
كذبة من كذب الدنيا وخدعة من خدعها ، فإذا كل ذلك هباء .
ومثل الذى قلنا فى المال والجاه ، نقول فى مباحج المرأة وفتنتها ، والخمر
وشعشعتها ، واليسر واستغوائه واستهوائه ، فكل هذه لذائد عارضة ، تزين بها
الدنيا لتفتن بها العقول ، وتخدع بها النفوس ، ثم ينكشف الغطاء بعد ذلك كله
عن كذبة فادحة ، أين منها كل أكاذيب أبريل !

فإذا نحن انتقلنا من الدنيا إلى أبناء الدنيا ، وجدناهم كأهمهم ، رضعوا
الكذب ، ونشأوا فى الكذب ، وعاشوا فى الكذب . هم كاذبون حتى بما
يتزينون من ملابس ، وإلا فلماذا زر الطربوش ؟ ولماذا رباط الرقبة ؟ ولماذا
ثنية البنطلون ؟ ولماذا الأزرار فى جانب اليدين ؟ . وهم كاذبون فى ما كلهم ، فلماذا
مظهر الكرم وهو فوق المستطاع ؟ والتباهى بالموائد تقدم للأغنياء وتمنع عن
ذوى الحاجات ؟ ولماذا الإفراط فى تعدد الأصناف ، وهى فوق حاجة الجسم ؟
ثم ما هذا الكذب فى كل مجتمع صغر أو كبر ؟ فالييت مملوء كذبا ، يكذب
الرجل على زوجته ، والزوجة على زوجها ، والأولاد على آبائهم فى كل يوم وفى
كل ساعة ، إما كذبا بالقول أو كذبا بالفعل — ومصالح الحكومة مملوءة كذبا ،
رئيس يكذب على مرءوسيه ، ومرءوسون يكذبون على رئيسهم ، ورئيس ومرءوسون
يكذبون على من اتصل بهم من أصحاب الحاجات . فكل مصلحة كأنها مصمم

كذب — والمتاجر والمصانع كلها كذب في كذب ، فمن أساس التجارة الإعلان الكاذب والعرض الكاذب ، والإيهام الكاذب ، والأيمان الكاذبة ، ويتبادل سوء الظن في المصانع العمال وأصحاب رؤوس الأموال ، كل فيها خادع ومخدوع .

ثم كل طائفة من الطوائف ، وكل طبقة من طبقات الناس ، لها كذبتها في حرفتها ومهنتها ، وسلوكها ومعاملاتها ، حتى أصحاب الفضيلة ورجال الدين والوعاظ ومن نصبوا أنفسهم لمحاربة الرذيلة ، إن أنت كشفت عن مظهرهم البراق رأيت العجب العجيب ، وما يحير الأبواب ، كالذي يقول المعري :

رويدك قد غررت ، وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء

يحرّم فيكم الصهباء صبحا ويشربها على عمدٍ مساء

يقول لكم غدوتُ بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء

وإن أنت نظرت إلى رجال السياسة فالطامة الكبرى والمصيبة العظمى ، فاللغة كاذبة ، لا بأس عندهم أن يسمّوا الاحتلال انتدابا ، بل لا بأس أن يسموه استقلالا ، وأن يسموا القوة القاهرة المتغلبة «معاهدة على قدم المساواة» ، ويسمّوا التوجيه بالقوة والقهر مجرد نصح وإشارة ، والمستبد المالك للسلطان مستشارا ، ولا بأس أن يضعوا المبادئ لتحكم القوى في الضعيف ، ويسمّوها المبادئ العشرة أو ميثاق الأطنطى ، وأن يقولوا في الحرب ما ينقضونه في السلم . ولا بأس عندهم أن يضعوا المبادئ الجذابة والقوانين العادلة ، فإذا هم طبقوها نسوا عدالتهم وذكروا ظلمهم ، ولسنا ننسى في هذا المقام أفاعيل الأحزاب ، وأكاذيب الزعماء ، والتكالب على الحكم ، بدعوى إقامة العدل ، وتضحية الجمل الغفير من الناس لمصلحة زعيم من الزعماء ، تحت ستار رفع الظلم ونصرة الحق ، وتلوين الحق بلون الباطل ، والباطل بلون الحق ، والنظر إلى الأشياء نظرة ضيقة متعصبة ، حتى إن الشيء

الواحد حق كل الحق إذا صدر من الحزب ، وباطل كل البطلان إذا صدر من خصومه . كما لا ننسى كذب التاريخ السياسى مثل ما تكذب السياسة ، فمؤرخو الألمان ينسبون سبب الحرب إلى خصومهم ، وخصومهم ينسبونه إليهم ، ثم هؤلاء وهؤلاء لا يتورعون عن أى كذب فى سبيل الدعاية ، وهم قادرون على أن يلونوا كل ما يخدمهم باللون الزاهى الجميل ، وكل ما يضرهم باللون القاتم الأسود .

وما بالناس نذهب بعيدا والإنسان لا يكتفى بان يكذب على غيره ، بل هو شر ما يكون حين يكذب على نفسه ، وكثيرا ما يكون ذلك . فهو يظلم الناس ويظن أنه عادل ، ويأتى بالشر ويظن أنه يفعل الخير ، ويفعل الفعل تدفعه إلى عمله مصلحة شخصية ويظن إنه إنما يفعله للمصلحة العامة ، وتصدر عنه أسوأ الأعمال فيلونها أمام نفسه بأنها خير الأعمال ، فإن تنازل عن ذلك قليلا ، واعترف بفعلته أنها جريمة ، خلق لنفسه المعاذير أشكالا وألوانا ، وقلما ترى فى هذا العالم شريرا يعتقد أنه شرير ، أو مجرما يرى أنه مجرم ، وهو إلى ذلك يحاول أن يسمى الأشياء بغير أسمائها ، فيسمى الرشوة هدية ، ويسمى التحايل مهارة ، ويسمى ظلم الناس لمصلحة أقاربه أو أصدقائه قدرة على النفع . . حتى الأدباء سموا كذب الشعراء خيالا ، والمغالاة فى التشبيه مبالغة . . وهكذا مما لا يحصى ولا يعد

إن كانت الدنيا تكذب ، وكل طائفة تكذب ، وكل إنسان يكذب ، والعالم كله يكذب ، فأين الصدق ! ؟ إن هذا العالم عالم كذاب ، بنى ما فيه على الكذب ، حتى لو استطاع إنسان أن يصدق فى كل شئونه مع الناس ومع نفسه لعاش غريبا ومات غريبا . ولو تصورنا عالما صادقا كل الصدق لكان عالما لا يمت إلى عالما هذا بسبب ، فليست المسألة مسألة كذبة إبريل ، بل العالم كله إبريل . ولا تحسبن هندا لها الغدر وحدها سجية نفس ، كل غانية هند

من سخافات الناس !

على الرغم من تقدم العلوم والمعارف ، ورقى العقل في بحوثه وأفكاره ، لا يزال الناس بعيدين كل البعد في حياتهم العملية عن الخضوع للمنطق والتفكير الصحيح ، فإذا أنت نظرت إلى الآلات العجيبة والمخترعات الدقيقة ، بهرك تصميمها وعمق التفكير في ابتكارها ، ومهارة الصنع في إخراجها . ولكن إذا نظرت إلى أعمال الناس في حياتهم اليومية ، وسلوكهم في أحوالهم العادية ، أخذك العجب من أنها لا تخضع لمنطق ولا عقل ، ولا تصميم محكم ، ولا تنفيذ معقول .

تقف أمام آلة الراديو ، فيأخذك العجب من هذا الاختراع العجيب ، والقدرة العقلية المبتكرة ، واليد الفناة الماهرة في الصنع . ثم تستمع لما يقال في الراديو ، وإلى برنامج الإذاعة ، فيأخذك العجب أيضا من السخافات التي تعرض في شتى أنحاء العالم ، سواء كان مما يذاع من سياسة أو محاضرات أو فن . وتقف أمام السيارات فيبهرك تصميمها وصنعها ، والعقل الجبار الذي ابتكرها ، والمصانع العظيمة التي أخرجتها . وتنظر إلى استعمال الناس للسيارات فتجد السخافات ، وقل أن تجد من مائة استعمال عشرة استعمالات منها معقولة ، وقل مثل ذلك في التليفون والتلغراف ، وقل مثل ذلك في آلات القتال من دبابات وغواصات وطائرات وقنابل ذرية وما إلى ذلك .. فإنك من غير شك يأخذك الإعجاب بالمهارة العقلية والفنية ، كما يأخذك العجب من سخافات الناس في الاستعمال . وأي سخافة أعجب من سخافة استعمالها في التقتيل والتدمير والتخريب ، فبنى لنخرب ، ونلد لنقتل ، ونعمر لندمر .

ذلك أن العقل لما تقدم وارتقى ، تقدم العلم وتقدم الاختراع . ولكنه لم يتسلط على الرغبات والغرائز والبواعث والشهوات ، فلم ترتق ولم تتقدم . فسار العقل

في واد ، وسارت الرغبات والغرائز والبواعث في واد ، من غير أن يتلاقيا . فكان العقل منطقيا وهذه الأمور كلها غير منطقية ، فكانت السخافات العملية . والعلم كالسكين تقطع بها اللحم وتقشر بها الفاكهة فيكون عملا نافعا ، وتقتل بها البرى ، فيكون عملا ضارا . كالنار تنضج بها الأكل فيكون عملا نافعا ، وتحرق بها المنزل فيكون عملا ضارا . فالعبرة للبواعث ، والبواعث ما لم تخضع لحكم العقل كانت سخافات .

وفي الحق إن الغرائز البدائية والميل إلى التخریب والتدمير ، ورثها الإنسان المتمدن عن الإنسان المتوحش ، واستعملها المتمدن كما كان يستعملها المتوحش . ولا فرق بينهما إلا التزييق الظاهر عند المتمدن ، وإلا أن العلم مكنه من استخدام بواعثه الشريرة أسوأ استعمال . وكلها سخافات . ولا أمل في صلاح الإنسان إلا أن تسير بواعثه وميوله وغرائزه في نفس الطريق التي يسير فيها العقل . لقد كان طابع المدنية الحديثة البحث عن القوة في شتى مظاهرها ووسائلها ، وكان هذا كله اتجاها خاطئا . وإنما الاتجاه الصحيح البحث عن الحكمة لا عن القوة . وأعني بالحكمة خضوع البواعث والغرائز لحكم العقل « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » وإلا فما فائدة الطب يتقدم وفن الجراحة يرقى ، وما تحصدته الحرب وتمزقه أكثر مما ينقذه الطب وتضمده الجراحة ؟ وما فائدة العمارة وتقدمها إذا كانت ما تبنيه اليوم تخربه القنابل غدا ؟ وما فائدة اختراع الطائرات إذا أوقعت الرعب في النفوس ، وأزهقت الأرواح في الحرب ، أكثر مما نفعت في السلم ؟ وما فائدة المخترعات الحديثة وانتشارها في المدن إذا هدمت الأعصاب ؟ وهكذا . . .

لقد وسم هذا العصر بأنه « عصر الآلات » ، وتوقع الناس يوم ظهورها أنواعا من السعادات لا تحصى . فقالوا إنها ستضاعف الإنتاج ، فيحقق العالم مطالبه

بوفرة المزروعات والمصنوعات . وستكون عيشة الناس بفضلها ألين وأنعم وأيسر ، وستخفف العبء الكبير عن العمال . فما كان يؤدَّى بالعضلات وبعرق الجبين ، سيؤدى بتحريك زر من الأزارار . وسيقصر الزمان . فما كان من المسافات يقطع في أيام ، يقطع بفضلها في ساعات أو دقائق . وما كان ينتج في شهور ، ينتج مثله في ثوان أو لحظات . وسيترتب على هذا أن ساعات العمل للعمال والزراع تقل قلة واضحة ، فيستطيع هؤلاء في أوقات فراغهم أن يرقوا أنفسهم بالقراءة والثقافة ، والإشراف على شئون أولادهم ، والبنية بيوتهم ، فتعم السعادة ويخف الشقاء . هذا بعض ما أمله المتفائلون عند ظهور « عصر الآلات » .

ولكن ماذا حدث ؟ . حدث أن أكثر أوقات الفراغ للعمال استخدمت في الملاهي والخمر والقمار والمراقص وما إلى ذلك ، فساءت حالهم أكثر مما كانت أيام الصناعات اليدوية ، وتخربت البيوت ، وانحلت الأسر أسوأ مما كانت . ثم كانت الحروب . . فكانت هذه الآلات نذير الشر والشؤم ، تمصّد الأرواح ، وتبيد البلاد ، وتفتك بالملايين . فإذا نحن أجملنا القول ، قلنا إن الآلات فتكت بالنفوس والأرواح في السلم ، وبالأرواح والأبدان في الحرب . ولولا سخافات الناس لكانت الآلات من أكبر النعم .

ثم ما تخرجه هذه الآلات وما يستفيد العالم من تقدم العلم يفسده تحكم رأس المال ، وعدم الرغبة في تحقيق العدل الاجتماعى . فالرأسماليون يتسلطون على السلع وعلى الأسواق ، ويتحكمون فيها مراعاة لربهم المادى لا مراعاة لمصلحة الجماهير . كما أحرقوا ما فاض من بن البرازيل محافظة على السعر ، وإن كان العالم في حاجة شديدة إلى ما أحرق . وكما تستخدم الغلال أحيانا في بعض البلاد في الحريق كما يستخدم الخطب ، وبعض الناس في بلاد أخرى يموت جوعا . وفي الأمة الواحدة بعض الناس يموت من التخمة ، وبعض الناس يموت من الجوع . وبعض السيدات

لا يجدن دواليب كافية في القصور الواسعة لكثرة ما يملكن من فساتين ؛ و بعض السيدات لا يجدن ما يستر أجسامهن . و بعض الناس يأخذ ورقة بعشرة جنيهات يشعل بها سيجارة لعشيقته ، و بعضهم لا يجد رغبة يأكله .. وهكذا وهكذا من سخافات .

وفي يقيني أن إنسانا عاقلا لو تربى بعيدا عن هذه السخافات ، ثم اطلع عليها فجأة ، لعد سكان هذه الأرض مجانين أو عد نفسه هو مجنونا .

وأسخف السخافات في نظري أن المشرفين علي السخافات من أصحاب رموس الأموال ونحوهم ، ينظمون أمورهم ويحكمون تديرها ويتقنون تنفيذها . والحفنة من العقلاء لا يجمعون أمرهم ولا يوحدون كلمتهم ، ولا يحسنون تنظيم مشاريعهم . فالسخافة نافقة ، والحكمة ضائعة ، وإلى الله المشتكى .

الفكرة والعمل

كنت أجلس منذ ليال مع غنى من أغنياء مصر — يملك المزارع الواسعة ،
ويتحكم في آلاف المزارعين .

أخذ محبذ الشيوعية ويتمنى أن تسود في مصر ، فينعم أهلها جميعا ،
ويشتركوا في الخيرات جميعا .

سألته ما الذى فعله لفلاحيه ومزارعيه . إذا كان يعتقد هذه الأفكار وهذه
المبادئ ، هل أنشأ لهم مستشفيات وبنى لأولادهم مدارس وعمر لهم مسجدا ؟
لم يفعل شيئا من ذلك ، وإنما سخرهم لمصلحته ، وأفقرهم لغناه ، وأجاعهم
لتخيمته ، وأغلى إجارة أطبائه ، وأرخص أجرة أعماله ، إنها مجرد أقوال تقال في
المجالس ، وأفكار لا تستند على إخلاص .

من عجيب الأمر أن كل شيء في الوجود يعمل وفق طبيعته ، ويوافق بين
ظاهره وباطنه ، وتصدر أعماله منسجمة مع خلقته ، ويعبر دائما عن جبلته ، سواء
في ذلك الجماد والنبات والحيوان ، إلا الإنسان ، فإنه هو الذى يستطيع أن يخدع ،
وأن يظهر على غير طبيعته ، وأن يقول غير ما يعتقد ، وأن يفعل غير ما يعتقد
وما يقوله ، فالحجر والحديد والرصاص كلٌّ يعبر عن طبيعته ، وهو يعبر عنها دائما
في صدق . وشجرة الورد والتفاح والحنظل تعبر عن طبيعتها في صدق دائما ، وتنتج
ثمارها من جنس طبيعتها دائما ، ولا تخرج شجرة التفاح حنظلا يوما . والفرس
والجمل والبقر يعبر عن طبيعته في صدق دائما ، فإذا أبدى رغبته فى الأكل أو الشبع
أو نحو ذلك فهذا حق لا مرية فيه — أما الإنسان فلا يعبر عن حقيقته دائما ، فقد

يعبر عن جوعه وهو متخم ، وعن حبه وهو كاره ، وعن إخلاصه وهو يخفي
الإجرام ، وعن حبه في الشيوعية أو الاشتراكية وهو رأسمالي جشع . فكل شيء
هو نفسه إلا الإنسان فكثيرا ما يكون غير نفسه ، حتى قال كاتب ظريف :
« إن اللغة لم تخترع للتعبير عن النفس ، ولكن لإخفاء ما في النفس ، والتمويه على
الناس حتى لا يدركوا حقيقة ما في النفس » ومما يؤسف له أن الإنسان كلما كان
أذكى وأمر وألبق كان أبعد عن أن يعبر عن نفسه ، وعن أن يكون هو نفسه ،
وكما كان أقرب إلى الغفلة والسذاجة كان أقرب إلى أن يكون هو نفسه ، وأن
يعبر عن نفسه .

ليست قيمة الإنسان فيما يصل إليه من حقائق وما يهتدى إليه من أفكار
سامية ، ولكن في أن تكون الأفكار السامية هي نفسه ، وهي عمله ، وهي حياته
الخارجية كما أنها حياته الداخلية . فقد يكون الإنسان فيلسوفا كبيرا وهو — في
الوقت عينه — نذل خسيس حقير ، كالذي روى لنا عن « بيكون » الفيلسوف
الإنجليزي الكبير . وقد يحدثك الرجل عن أضرار الخمر والقمار فيمتنعك بمحدثه ،
ويصف لك ذلك أجمل وصف وأدق ، وهو — مع ذلك — سكير مقامر ، لأنه
في أفكاره غيره في أعماله ، وبعبارة أخرى هو لا يحقق نفسه ولا يعبر عن نفسه .
الفكر بلا عمل مناقشات بيزنطية ، أو بحوث جامعية ، أو ألعاب بهلوانية ،
إنما قوة الفكرة وأحقيتها بتحويلها إلى عمل ، ووضعها موضع التجربة . وإذا اعتقدها
الإنسان فعناه أن يعمل بها ، وإذا دعا إليها فعناه أنه جربها في نفسه وبنفسه
فوجدتها صالحة ، وما عدا ذلك فشقيقة أفاظ ، وملاء مجالس ، وإظهار نظرف ،
ومباهاة بالقوة العقلية ، أو القدرة الجدلية ، ومقدمة بلا نتيجة .
إن عيب المبادئ السامية « كحقوق الإنسان » و « عصبية الأمم » و « ميثاق

الأطلنطى» و «حماية الأقليات» و «حقوق الأمم الصغيرة» و «العدالة الاجتماعية» ونحو ذلك ، أنها أفكار لم ترتبط بالعمل ، ولم تعبر عن حقيقة نفس قائلها ، وإن عبرت فلم تعبر عن نفس من يملكون تنفيذها ، وستظل عديمة القيمة ما لم ترتبط بالعمل .

تسعة وتسون في المائة — على الأقل — من تفكير مفكرينا ومصلحيننا ضائعة لأنها كالحب الأفلاطونى لا تتحول إلى عمل . كم من الدعوة وجهت إلى إصلاح الآلة الحكومية ، وكم من خطط وضعت لمحاربة الأعداء الثلاثة — الجهل والفقر والمرض ، وكم من مقترحات اقترحت لمكافحة الأمية ، وكم من مشروعات وضعت لإصلاح قرى الفلاح ومساكن العمال ، وكم وكم . . ثم لم يظهر لها أى أثر ولم نكسب منها إلا أزمانا ضاعت فى التفكير ، وأموالا فقدت للصرف على الخبراء ، ومجهودات عقلية أنفقت فى رسم الخطط . ووقف الأمر حيث ابتدأ ؛ فالفلاح هو الفلاح ، والصانع هو الصانع ، والآلة الحكومية القائمة هى هى ؛ كل ذلك لأن السلك الذى يمتد بين الفكرة والعمل مقطوع ، فالتيار لا يتحول إلى نور ولا إلى حرارة ولا إلى أى شىء مما ينفع الناس ، فإذا نحن أردنا الإصلاح الحقيقى وجب أن نبحث — أولا وثانيا وثالثا فى السؤال الآتى — كيف نحول الفكر إلى عمل ؟ وكيف نمنع الفكر من أن يتبخر ؟ وكيف لا نفكر إلا إذا ضمنا العمل بما نفكر ؟

إن الفكرة ميتة ما لم يحياها العمل ، خيال ما لم يحققها العمل ، ولا عبرة بصحة الفكرة أو خطئها إذا ظلت فى عالم التفكير المجرد ، بل إن الفكرة إذا احتوت على خطأ أظهره العمل ، خير من الفكرة التى يثبت صحتها المنطق ولا تتحول إلى عمل .

لقد ظلت علوم الطبيعة تعتمد على المنطق وحده قرونا طويلة فلم تتقدم ،

وظلت في القرون الوسطى كما كانت في عهد أرسطو ، فلما تحولت النظريات إلى عمل ، ورفض العلم أن يقرر نظريته إلا إذا جربت وأثبت « المعمل » صحتها تقدم العلم الطبيعي خطوات واسعة ، وبنى عليه كثير من أسباب المدنية الحاضرة — ولو ظل في العقول وفي صفحات الكتب لوقف عند كتاب « الطبيعة » لأرسطو .

ثم أساس المدنية الحديثة في كل شئونها التجربة وإنشاء المعامل ، في الطبيعة في الكيمياء ، في الطب ، وأخيرا في مناهج التربية وعلم النفس ، ومعنى التجربة تحويل الفكرة إلى عمل ، ووضعها موضع الاختبار .

لقد كثرت عندنا الأفكار المجردة حتى ملت ، ففي كل مجلس شكوى من الموجود واقتراحات لاصلاحه ولا عمل ، وفي كل صحيفة ومجلة شكوى ودعوة ولا عمل ، وكل حكومة تأتي تنقد وتعد ولا تعمل ، ولكل مشروع إصلاح أوراق مكدسة ، ومقترحات للإصلاح يمتد تاريخها الى عشرات السنين ولا عمل . فلنجرب سياسة أخرى غير هذه السياسة ولا نقول الا ما نعمل . ولو وكل إلى منهج التربية لجعلت أساسه الفكرة يتبعها العمل وإلا لا ففكرة .

وأنت أيها الغنى الكبير الذى تدعو إلى الشيوعية ! إن إخراج جنيه من جيبك لإنقاذ فلاح من فلاحيك من يؤسه خير ألف مرة من كل ما تحاضر به في المجالس .

عبد الله فكرى

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، كان يلعب فى مصر أديبان كبيران :
محمود سامى البارودى باشا حامل لواء الشعر ، وعبد الله فكرى باشا حامل لواء النثر .
وكانا صديقين حميمين ، كلاهما صنفى الآخر ، وموضع سره ، ومستودع
شكواه ونجواه .

يصف البارودى صديقه عبد الله فكرى فيقول :

أخى وصديقى ، وابن ودى وصاحبى	وموضع سرى ، حين يعتاج الصدر
هو الصاحب المشكور فى الود سعياً	وما خير ود ليس يلحقه شكر
أمين على غيب الصديق إذا ونت	عهد أناس أو تطرقها فتر
فلا جهره سر ، ولا سر صدره	— إذا امتحن الواشى — ضمائر جهر
يدب على المعنى الخفى بفكرة	سواء لديها السهل فى ذاك والوعر
له البلجة الغراء يسرى شعاعها	إذا غاب أفق الفهم والتبس الأمر
تزاحم أفواج الكلام بصدره	فلو غص من صوت لكان لها هدر
إذا اختمرت بالليل قبة رأسه	تفجر من أطراف لمتها الفجر

فأما البارودى فكان أدبه شعره الذى يقوله فيما يعرض له من أحداث ،
وما يعبر عن مشاعر ، وأما فكرى فكان أدبه شائعاً فى مناحى حياة الناس ،
يكتب الخطابات الرسمية للخديو اسماعيل ، والخطابات الخاصة لحرمة ، ويكتب رسائله
الإخوانية للجمهرة كبيرة من أصدقائه فى كل مناسبة ، ويضع الكتب لتلاميذ

المدارس ، ويؤلف في موضوعات مختلفة ، وينقد العقلية الرجعية ، ويدعو إلى التقدم ، ويملاً المجالس فكاهات ظريفة ، تتناقل عنه ، وتملاً جو مصر بهجة ، فلا يجهل فضله خاص ولا عام .

وكان في مصر شابان ظريفان أديبان ، اجتهدا أن يلقتا كل شخصية ممتازة في مصر بلقب من أسماء الأدباء القدماء ، على أن يكون اللقب مناسباً تمام المناسبة له ، وملخصاً هذه الشخصية ، فسميا البارودي « الشاب الظريف » ، لجماله ، وحسن طبعه ، ورشاقة قدمه ، وحسن هيئته ، وسميا عبد الله فكرى « ابن سهل » لسهولة أخلاقه ، وسهولة طبعه ، وسهولة فنه في الشعر والنثر .

وفي الحق أنه كان مؤدباً أدب الملوك ، عف اللسان ، ظريف المحضر ، نزيه اليد ، كريماً ، سمحاً . وكان الشيخ محمد عبده كثيراً ما يترحم عليه عند ما يتمثل بقوله
ولو شئتُ كانت لى زروع وأنعم ومال به الآمال أقتادها قسرا
ولكنها نفس — فدتك — أيبة تعاف الدنيا أن تمر بها مرا
دين ، ولكن دينه سمح سهل أيضا . فلا يطنى دينه على قضايا العلم ينكرها ، ولا يرى حرجاً من إيمان يدين به مع إيمان بعلم ، ولا غضاضة في دين مع رقة وظرف وفكاهة وتندر .

ولد عبد الله فكرى من أب مصرى ، وأم من بلاد المورة باليونان ، وكانت اليونان تابعة لتركيا زمناً طويلاً ، ويتكلم كثير من أهلها اللغة التركية ، فكان عبد الله يجيد العربية لأبيه ، والتركية لأمه .

وكان أبوه ، محمد افندى بليغ ، مهندساً كبيراً ، نشأ نشأة أزهرية ، ثم دخل المدارس المدنية وتعلم فيها الهندسة . وكان مهندساً في الجيش فكان يسافر معه ، وهذا هو السبب في زواجه بهذه « المورية » أيام كان الجيش المصرى يغزو مع

العثمانيين اليونان ، وهذا هو السبب في أن عبد الله فكرى ولد بمكة ، أيام كان أبوه في الحملة التي أرسلت إلى الحجاز ، ومات أبوه — وهو مفتش هندسة الجزيرة والبحيرة — وتركه طفلاً فكفله بعض أقربائه . ونشأه تنشئة أزهريّة .

ظل يواصل دراسته بالأزهر ، حتى بعد أن عين مترجماً في الحكومة يترجم من التركية إلى العربية ، والتحق بمعية سعيد باشا ، ثم بمعية إسماعيل باشا ، وسافر معه إلى الآستانة ، ثم عينه إسماعيل باشا مشرفاً على تعليم أنجاله : توفيق وحسين وحسن .

ثم انتقل إلى المعارف وكيلاً لديوان المكاتب الأهلية مع علي باشا مبارك . ثم وكيلاً للمعارف ، ثم ناظراً (وزيراً) .

هذه هي حياته الرسمية ، أما حياته العامة ، فكانت أوسع مدى وأجل فائدة لقد شاهد البلاد تغلي قبيل الثورة العرابية ، وصحب السيد جمال الدين الأفغانى وتشرب من آرائه ، وتوثقت صلته به ، ثم حدثت الثورة العرابية ، فحار في موقفه منها كما حار الشيخ محمد عبده ، فعبد الله فكرى معلم الخديو توفيق ومتصل به أشد اتصال ، وهذا يقتضيه البعد عن الثورة والثائرين ، وهو صديق حميم لمحمود سامى البارودى رئيس الوزارة الثورية ، وقد أشركه معه في الحكم ، ثم إن الثورة العرابية لها ما يبررها من غضب على الأجانب ، وتدخلهم في شئون البلاد ، وغضب على الخديو توفيق لاستسلامه للإنجليز ، وكل هذا يقتضيه المشاركة في أعمال الثورة ، أو على الأقل في تبريرها .

لهذا حار ، ولهذا سار سيرا رزينا ، يسالم الثورة في حكمة ، ولا يشارك من يجاهرون بسب الخديو توفيق ولعنته ، فلما انجلت المعركة عن فشل الثورة ، كان طبيعياً أن يتهم بأن من أعوان الثورة — وهذا حق — فيحاكم ويسجن ،

ومن الطبيعي — أيضا — أن يسرع « توفيق » في العفو عنه وقبول اعتذاره ، لشدة صلته به وخدمته له ، ولأنه لم يكن عنيفا في ثورته ، إذ هو كما سماه الناس « ابن سهل » فلم يلبث أن عفا عنه ، وزاول عمله وعادت الثقة به ، وتاب بعد ذلك أن يشتغل بالسياسة كما اشتغل بها زميله عبد الله النديم ، وقصر نفسه على الإصلاحات الداخلية ، كما فعل رئيسه على باشا مبارك .

كان أهم إصلاح قام به إصلاح التعليم ، فوجه عناية كبرى لإصلاح الكتاتيب ، وكانت على شكل بدائي من مخلفات القرون الوسطى ، لا يعنى فيها بنظافة ولا صحة ولا ثقافة ، بل كتل من الأدغال يمتزج فيها الصحيح بالمريض ، يجلسون على حصير بال ، ويأكلون بأيديهم القذرة من وعاء واحد ، وعليهم رجل اسمه « سيدنا » لا ثقافة له إلا أنه يحفظ القرآن — فجد هو وصديقه على باشا مبارك في إصلاح برامجهما ، وأما كتبها ، ومعلميها ، وأساليب الدراسة فيها ، فنقلها بذلك خطوة جديدة .

واتجه إلى المدارس الابتدائية ، وكان معلمو اللغة العربية فيها مطبوعين بالطابع الأزهرى القديم ، كل همهم فهم نص في الكتاب ، وقد وصفهم عبد الله فكرى فقال : « وقد مررت بالأمس ، على أحدهم في الدرس ، يقرأ القَطْر لابن هشام ويلحن لحن العوام ، ومررت بآخر يدرس الكافي ، في علمي العروض والقوافي ، يقرر قوله :

قف على دارهم وابكين بين أطلالها والدمن

فلا وربك ما أقام له وزنا ، ولا عرف له معنى ، مع سهولة مبناه ، وظهور معناه ، فخطمه حطم الهشيم ، ومزقه تمزيق الأديم ، فقلت سبحانه اللهم ! كأن الشاعر عناني بهذا الكلام ، وعلم أني أقوم هذا المقام الخ » ، فجد في إصلاح هذه الحال باختيار جماعة من الأزهر يثقهم ثقافة خاصة مدنية ، ويعدهم للتعليم في المدارس

الأميرية ، وبتأليفه بنفسه الكتب الصالحة ، وبوضعه للأناشيد ، وبحضوره الامتحانات ، وتوزيع المكافآت ، فنهض بالمدارس نهضة صالحة في نواحيها المختلفة . وله — إذ كان ناظرا للمعارف — خطبة قوية ، تبين منهجه في إصلاح سياسة التعليم ، وقد خطبها في مجلس النواب ، ونشرت في الوقائع المصرية ، في عدد ٢٨ مارس سنة ١٨٨٢ وهى تدل على مبلغ نشاطه في إصلاح التعليم وتوسيعه ، سواء في الكتائب أو في المدارس .

ذلك إلى أنه كان اليد اليمنى لكل ناظر معارف يستشير في أعماله ويعتمد عليه في رسم الخطط للتعليم ، وكان هو والشيخ محمد عبده أنفع عضوين عاملين في مجلس التعليم الأعلى .

ثم كان القوة التنفيذية لما كان يضع على باشا مبارك من خطط في إصلاح التأليف ، فعلى مبارك وعبد الله فكرى يشتركان في وضع التصميم لكتب تعليم الهجاء والمطالعة ووضع خطط لمصر وقصة « علم الدين » الخ ، وكانت اليد العاملة المنفذة في الحقيقة هى يد عبد الله فكرى ، وإن نسبت هذه الكتب إلى على باشا مبارك وحده .

ولم يكن زمانه كزماننا ، فرجال الدين كانوا يتدخلون في كل نظرية علمية ، يجادلون فيها باسم الدين ، وكان لهم سلطان كبير ، وصوت مسموع ، فكم لقي عبد الله فكرى من عناء في سبيل تعليم أن الأرض كروية لا مسطحة ، وأن السماء فضاء ، وظاهرة الكسوف والخسوف ، ولم ينجح حتى ساق الأدلة على ذلك من قول فخر الدين الرازى ، والغزالي ، والشهاب الخفاجي ، وأمثالهم .

وكانت له ناحية ظريفة ، هى فكاهته الحلوة ، ونادرتة الظريفة ، فقد كان له جمع من الأصدقاء ، أمثال البارودى والشيخ على الليثى وعلى فحمى بك رفاعة

والشيخ حسين المرصفي والشيخ عثمان مدوخ ، انتلفوا على الإعجاب بالثكنة الرائعة ينشئونها ويروونها ، ويتضاحكون عليها في مجالسهم ، ويتحرونها في مكاتباتهم ، وتشيع عنهم في الناس ، ويتناقلها أهل القاهرة فيتكون مصدر فرح وبهجة . وكان لعبد الله فكرى في ذلك قصب السبق .

أهدى إليه صديقه على بك رفاعه « ديكا روميا » ، فكتب إليه كتابا ظريفا جاء فيه « حصل من الأنس — بما وصل من ديك الإنس — ما يقصر عن بيانه « ديك الجن » ، ولا أدري لماذا اختلفت فيه الأحساب ، وتدافعت النسب ، فترى الناس في مصر يسمونه روميا ، وفي بلاد الروم يسمونه مصريا ، والإنجليز يسمونه هنديا — فإن لم يأتني بحقيقة حسبه ونسبه بالخبر اليقين ، لأعذبه عذابا شديدا ، أو لأذبحه ، أو ليأتينى بسلطان مبين الخ » .

وكتب إلى الشيخ حسين المرصفي كتابا طويلا بدأه بالسلام ، ثم تلاعب بالكلام على السلام ، ثم اعتذر عن الكتابة في الشوق إليه بسرعة قيام الوابور ، ثم استفتاه هل في مثل هذه الحال يحسن إرسال الكتاب من غير شوق ، أو يذكر الشوق من غير إرسال الكتاب ، وتساءل : ما الداعى إلى كتابة الخطاب في هذا الوقت الحرج ، وكان في الزمان متسع ، فهذه هي المشكلة التي دار حولها — ولم يحلها — في كلام طويل لطيف .

وكتب للشيخ عثمان مدوخ كتابا طويلا عاميا بدأه بقوله « أنا راجل طول عمرى ، ما أحبش أقول إلا الدوغرى » ثم أخذ يحلل كلمة الدوغرى ، وأن أصلها تركى ، والترك يكتبونها بالطاء وينطقونها بالضاد ، فلم نكتبها نحن بالبدال الخ وأخيرا اعتذر له بأنه نسي الكلام الذى كان يريد أن يقوله .

وعاش وهو يتمنى أن يكون له قطعة أرض قريبة من القاهرة ، يستمتع فيها

بالهواء العليل ، والمنظر الجميل ، وينعم فيها بالهدوء ، ويخلد إليها طلباً للسكينة . ويقول :
أرجو من الله أطيافاً أعيش بها في أرض مصر على حال السلاطين
مازلت ، ماعشت ، لى فى الطين كل هوى وإنما خلق الإنسان من طين
ثم نال بغيته ومنحته الحكومة قطعة من الأرض بدل معاش ، ولم يكن
له علم بالزراعة ، ولا يكاد يعرف فيها الفرق بين القمح والشعير ، فعكف على
كتب الزراعة يطالعها ولجأ إلى رجال الزراعة يستفسرهم ، ورأى ممن يحرثون
الأرض ويزرعونها من لا يفهمهم ولا يفهمونه ، فشك فى إنسانيتهم ، وحرافى
أمرهم ، واعترض على تعريف الإنسان بأنه « حيوان ناطق » فهو لاء حيوانات
وناطقون ، ولكن ليسوا بناس ، وضج من هذا الوسط ، واستنجد ببعض أصحابه
يوافونه فى غربته ، فقد كاد ينسى الناس ، وليساعده على « إزاحة هذه الشبهة
القائمة ، ويعود معهم إلى العاصمة » .

لم يعمّر طويلاً ، ومضى آخر عمره يشكو العلل ، وأخيراً مات بالسكينة عن
سبعة وخمسين عاماً هجرية ، وكان ذلك سنة ١٣٠٧ هـ (سنة ١٨٨٩ م) رحمه الله .

عبده الحمولى .. وألمز

لو قسنا قيمة الأشخاص بما يقدمون من سرور وسعادة لمجتمعهم ، لكان عبده وألمز من أقوم الناس . فالليالى السعيدة هى التى يحببها عبده وتحببها ألمز ، والناس يتشوقون إلى هذه الليالى ، ويستعدون لها أياما استعداد قبل مجيئها ، وينعمون بذكرياها زمنا طويلا بعد مرورها ، فلو قال قائل إن عبده وألمز أعظم مصدر للذة والسعادة لمصر فى القرن التاسع عشر لم يبعد ، هما مفرجا كرب المكاروبين ، ودافعا الألم عن المألومين ، ومتنفس الناس فيما يلحقهم من فقر وبؤس ، وظلم اجتماعى وظلم سياسى ، يفعلان فى النفس خيرا مما يفعل الشراب ، من نسيان الهم وتفريح القلب ، وتفريح الكرب .

وسبحان الله !

من عبده ؟ ومن ألمز ؟

ولماذا كان لهما دون غيرها هذا الصوت الجميل والفن البديع ؟ الله أعلم أين يضع سره ، من غير قانون معروف ، ولا نظام مألوف . فعبده فتى من عامة الناس وأبوه من سواد الناس ، لم تعلمه مدرسة ، ولم يهذب كتاب ، ولم يتلق دروسا فى « النوتة » والعود والكمآن ، ولم يُعرف أبوه بفن ولا صوت ، ولكن منح « عبده » صوتا رخيا ، آية فى الجمال ، لفت إليه الأنظار ، فكان مغنى الملوك .

وألمز فتاة فقيرة يضطرها فقرها أن تشتغل « فاعلة » تحمل « مونة » الخير والتراب و « القصرمل » فى القالب ، وتمشى على « الصقالة » لتناولها للبنائين ، ثم تلهمها نفسها وحسبها أن تغنى للفعلة فيسمعوا منها صوتا بديعا يخفف عناءهم ، ويزيد

نشاطهم . ويشاء القدر البحت أن تسمع صوتها ، وهى تغنى « عالمة » من أكبر عوالم مصر ، اسمها « الست ساكنة » تسكن فى حى السيدة سكينة ، فتأخذها وتربىها تربية فنية ، فتفوق معلمتها ويكون منها أكبر « عالمة » . فسبحان ربى القدير ، يهب من شاء ما شاء كما شاء .

والحمولى نسبة إلى الحمول أو الحامول ، بلدة فى المنوفية ، يشاهدها راكب القطار من مصر إلى طنطا عن طريق « منوف » ولكن « عبده » ولد فى طنطا من أبوين فقيرين ، وكان لعبده أخ أكبر منه اختلف مع أبيه ، فقارقه إلى مصر فقيرين بأئسين ، يبحثان عن عمل يتعيشان منه .

وشاء القدر الذى أسمع « ساكنة » صوت « ألز » أن يسمع المعلم « شعبان » صوت « عبده » ، فيسمع منه صوتا جميلا يتحلب له فم المعلم شعبان ، ويقدر أن يكون له مصدر ربح كبير ، فستقبل « الزبائن » لسماع صوته وتعمر قهوته .

وكانت جنيئة الأزبكية وميدانها بقعة تسمى « غابة الأشجار » ، هى مراد أهل الخلاعة والمجون واللهو و « الحظ » ، تنتشر فيها « قهاوى » كثيرة فيها الشراب وفيها الغناء ، وفيها النساء ، وفيها الأفراح ، والليالى الملاح ، وقد شهدنا أعقابها حين كانت تغنى « الست توحيدة » فى ألف ليلة بجوار ألف صنف .

فكان للمعلم شعبان قهوة غنى فيها « عبده » ، وتعلم لأجلها شيئاً من الموسيقى كما يتعلم الهواة ، ولقت إليه الأسماع ، وكثرت من أجله الزبائن على المعلم شعبان ، فحاف أن يفلت من يده ، فزوجه بنته ، وحينئذ أمن جانبه فاستذله ، فهرب منه ومنها .

وظل يتنقل من يد معلم إلى يد معلم ، فيوما فى يد « المقدم » ويوما فى يد المعلم « شاكر » ، وهو فى كل ذلك يرتقى فى الفن ويشتهر فى الناس ، ويعنى

الأدوار والمواويل والموشحات ، و يترقى من الغناء فى القهاوى إلى الغناء فى الأفراح ، ومن أفراح العامة إلى أفراح الخاصة . وأخيراً يسمع به الخديو إسماعيل و يسمع منه ، فيلحقه بحاشيته و يأخذه معه إلى الأستانة .

وكانت الأستانة مصدراً كبيراً من مصادر حضارة مصر ، فالكبراء والوجهاء قبلتهم الأستانة فى نظام البيت ، وعادات الأكل ، وطريقة الطهى ، وبدع اللبس ونحو ذلك — فكانت فرصة لعبده أن يسمع موسيقى الأتراك فى الأستانة وغناءهم ، و يقتبس من ذلك كله ما يتفق والأذن المصرية ، يزواج بين هذا وذاك ، و ينام بين هذا وذاك . فعاد من الأستانة بجديد يأنس به القديم ، وكان منه بحق سيد المغنين فى مصر .

لم تكن الموسيقى والغناء رخيصين كالיום ، تدير زرا فى الراديو أو تضع أسطوانة على فونوغراف ، فتدقق الموسيقى والغناء من الشرق والغرب ، بل كانوا غالين جدا لا يستمتع بهما أحد إلا فى « الأفراح » والليالى الخاصة والقهوات العامة . فكان الناس يترقبون الأفراح فى الأحياء المختلفة ، فإذا كان عبده يغنى فى « فرح » فله عشاق كثيرون ، يسرون على أقدامهم من سيدنا الحسين إلى السيدة نفيسة ، ومن باب الشعرية إلى الإمام ، ويحتالون بشتى الحيل حتى يدخلوا « السامر » و يبتدىء عبده فى الغناء الحقيقى قبيل منتصف الليل ، وقد يستمر إلى الصباح ، والناس فى متعة ساحرة ، وكثيراً ما يتجلى عبده فينسى نفسه وهو يغنى ، و يأتى بالأعاجيب من النغمات ، وينسى الناس أنفسهم ، فإذا الشمس طالعة ، و يخزن المغموم هذه النغمات تتردد فى أنفسهم حتى يسعدهم الحظ بفرح آخر . فكان « عبده » بهجة الأفراح ومحى النفوس ، ثم كان — رحمه الله — إلى نبوغه فى الغناء كريماً نبيلاً ، يكسب كثيراً وينفق كثيراً ، و يتصدق بصوته كما يتصدق بماله ، فقد يمضى ليلة

للفقير، يَنْصِبُ لها السرادق الفخم من ماله، ويعتني فيها « بتخته » — فهو حبيب إلى نفوس المصريين بصوته وظرفه ونبله وكرمه وحسن أحواله.

ومن ناحية أخرى ترقى « أَلْمَز » من « فاعلة » إلى « عالمة » على يد الست « ساكنة » وما زالت ترقى حتى صارت سيدة « العوالم » تفتن الناس برقصها وخلعتها وغنائها.

واقترن اسم « عبده » باسم « أَلْمَز » فالليلة السعيدة هي التي يعتني فيها « عبده » للرجال و « أَلْمَز » للنساء. وتزواج اسم عبده وأَلْمَز على الألسنة فتزواجه فعلا. وتغنى الأغاني فتسير في الناس بين رزينة وخفينة، فتغنى:

خبط الهوى عالباب قلت اطلبوه ، أهو جالى

أناى الهوى كداب يضحك على القلب الخالى

وتغنى:

ليه يا حمام بتنوح ليه فكرتـنى بالحبايب

يا هل ترى نرجع الأوطان ولا نعيش العمر غرايب

وتغنى غناء هزليا بنغمة مثيرة.

لازم أهشه ده العصفور

وانكش له عشه ده العصفور

دا ابن الأكابر ده العصفور

غا العشق صابر ده العصفور

الخ...

ولكن الدهر الخائن خطف « أَلْمَز » فبكاها « عبده » بكاء مرا، يعتني على الناس، فيبكي ويبكى، ومن أدواره في ذلك:

شربت المر من بعد التصافى ومرت العمر ما عرفتش أضافى

عدانى النوم وأفكارى توافى عدمت الوصل ، ياقلبي عليه

ومن الغناء ما يضحك ومن الغناء ما يبكى ، وهو فى حاله ممتع لذيد . وكان
من أغانيه المبكية ما كان بعد أن أرغم الخديو اسماعيل باشا على التنازل عن
العرش لابنه توفيق ، واضطراره لمغادرة مصر إلى إيطاليا . فذهب اسماعيل إلى
الجزيرة ليلة الوداع وغنى « عبده » أبياتا أنشأها الشيخ على الليثى على لسان
إسماعيل أولها :

أما السبب فى اللى جرى ما حد غيرى اللى انظلم

طاوعت أسباب الهوى حتى غدا خصمى حكم

فارتفع البكاء والعويل ، وكانت ليلة مشهودة .

ومات عبده سنة ١٩٠١ وماتت ألمز ، وأطال الله فى حياة محمد عبد الوهاب

وأم كلثوم .

ويل لمن كان أرقى من أمته

أما سواد الناس فقد ألقوا ما هو كائن ، واطمأنوا إليه ، ولم يعنهم من الأمر إلا أن يأكلوا ويشربوا ويربحوا ، ولسان حالهم القول المشهور : « ليس في الإمكان أبدع مما كان » . دليلهم في الحياة العادات المألوفة ، والتقاليد الموروثة . هذا شأنهم في أمور الدين ، وفي أمور الدنيا . ففي أمور الدين يقولون : « هذا ما وجدنا عليه آباءنا ، وإنا على آثارهم مقتدون » وفي أمور الدنيا يتعاملون كما يتعامل سائر الناس إن كذب الناس كذبوا ، وإن خان الناس خانوا ، وإن لم يف الناس بالوعد أخلفوا . وإن ارتكبت الجرائم لم يألوا ، إلا أن تمسهم هم في أنفسهم أو أموالهم . وإن فشت الرشوة حولهم وقضوا بها مصالحهم قالوا : « بارك الله فيمن نفع واستنفع » . وهكذا حياتهم كلها رضا وطمأنينة وراحة بال .

ولست أعنى بسواد الناس عامتهم وفقراءهم وأميينهم ، ولكن هذا الحكم يشمل غنيهم وفقيرهم ومتعلمهم وجاهلهم . ولست أستثنى إلا عددا قليلا في كل أمة ، ارتفعوا عن هذا المستوى ، فكانوا في شقاء . ليس يعوزهم المال ولا الجاه ولا وسائل العيش الرغيد ، ولكنهم رسموا لأنفسهم مثالا أعلى ودوا أن تصل إليه ، رسموه بعقولهم وبمطالعاتهم وبما شاهدوه في الأمم التي هي أرقى من أمتهم ، ثم كان لهم مع هذه الصورة الجميلة التي رسموها ، شعور حساس رقيق بانحطاط أمتهم عن هذا المثل وطموح شديد لسمو أمتهم حتى تبلغ مبلغه . . فإذا هي قصرت أو توانت تلوا من الألم ، وتأوهوا من العذاب .

وقد لمس هذا المعنى المتنبي في قوله :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

هؤلاء يحتكون بالأمة ، وكلما رأوا عيبا من عيوبها حزوا في نفوسهم ، ثم لا يكتفون بالحزن والألم ، بل يبذلون أقصى الجهد لمقاومة هذا العيب وإزالته . . فإذا عجزوا زاد ألمهم من العيب الذى شاهدوه والفشل الذى أدركوه . ثم منهم من يئس فيكتفى بالألم ، ومنهم من يأبى أن يسلم السلاح حتى يسلم الروح . أكبر ما يحز في نفوسهم ، أنهم لرقبهم العقلى قد فهموا أن الدنيا يجب أن تسير على المنطق ، فإذا الأمة حولهم تعبت بالمنطق بل تتحدا . . أموال تنفق فى الكماليات وهى فى أشد الحاجة إلى الضروريات ، وكفى يستبعد وغير كفى يقرب ، ويتولى زمام الأمور من يفسدها ، ونظام يزيد الغنى غنى والفقير فقرا ، وحكام لا يراعون الحق فيما يحكمون ، ولصوص فى السر يحكمون على لصوص فى العلانية ، ونظام للتعليم فاسد ونظام للمال فاسد ، وامرأة تسترق فتشكو من رقبها حتى إذا تحررت أساءت استخدام حريتها ، وشباب يجار بالشكوى من الجيل الذى أمسك بزمام الحكم قبله حتى إذا جلس على كرسيه كان أسوأ من آبائه . وهكذا من أمور يجار فيها العقل الذى يريد أن يحكم المنطق .

ومع هذا قد يرقى العقل فى الإنسان إلى هذا الحد الذى يرى المنطق والعبث به ، ولكن يهزأ بالناس لغباوتهم ويعيش فى برجه العاجى ، يطل عليهم ويسخر من سخافتهم ، ولا يهتمه سعد الناس أو شقوا عقلا أو سخفوا . يعيش فى دنياء ، ولا تهمه دنيا الناس . وكان بعض الفلاسفة من هذا القبيل ، غايته فى الفلسفة ، أن يدرك الحقائق مجردة ويلتذ من إدراكها وكفى ، بل فيهم من أدرك هذه الحقائق ووقف على سخافة الناس وغفلتهم . . فاستغل غفلتهم لمصلحته وسخرهم لمنفعته .

هؤلاء لا يألمون فى الحياة برقبهم ، إنما يألم من منح مع العقل الراقى شعورا بالرحمة للناس والإشفاق عليهم ، وامتلاء إحساسا بأنه لا يسعد حتى يسعد من حوله ، ولا يهدأ حتى يرقى الناس من حوله ، وإلا فهو فى ألم وعذاب .

هذا هو دأب الأنبياء والمصلحين في كل تاريخ العالم . . منحوا عقلا أكبر
من عقل قومهم ، وشعورا أرق من شعور غيرهم ، فكانوا في عذاب دائم —
وتاريخهم سلسلة متصلة من نفي وقتل وتشريد وتكذيب ، لأنهم أتوا قومهم بمثل
أعلى يخالف ما تواضعوا عليه ، وطال عليهم الأمد فظنوا أن ما ألفوه هو الدين وهو
الحق وهو الإصلاح ، وأن كل ما عداه كفر وباطل وفساد ، وكان هؤلاء الأنبياء
والمصلحون يرون ما أتوا به نورا وما فيه الناس ظلاما ، والناس يرون أن ظلامهم
نور ونور المصلحين ظلام .

قد فهم هؤلاء المصلحون الناس ولم يفهمهم الناس ، وتقدموا زمانهم وتأخر الناس
عن زمانهم ، ونظروا إلى الأمام ، ونظر الناس إلى الخلف .
إن كان لهم عزاء ، فهو أنهم أدركوا الحقائق فنعموا بإدراكهم لها ، وشعروا
بكبّر عقلمهم ورقة شعورهم ونبل غايتهم ، فكان عذابهم فيما يلقون من الناس عذابا
لذيذا حتى يفضلون أن يكونوا عقلاء أشقياء على أن يكونوا بلهاء سعداء ، ويرفضون
أن يقولوا كما قال المتنبي في وقت غضبه :

ما أحسن العيش لو أن الفتى حَجَرَ تنبؤ الحوادث عنه وهو ملموم

« الرشوة »

فأما في عرف القضاة والمحامين والمحاكم ، فإن يقدم أحد هدية لموظف على أن يعمل له عملاً أو يمتنع عن عمل ، كأن يأخذ رئيس قلم في السكة الحديد عشرة جنيهات لتعيين فراش ، أو كاتب في المجلس الحسبي جنيناً لتأخير قضية عن النظر ، أو يأخذ عمدة « ققص فراخ » لترشيح شيخ بلد ، أو كاتب في المالية خمسين قرشاً لتسهيل ورق وإيجازه على وجه السرعة .

ولكن هذا الذي تنظره المحاكم ، ويطراف فيه المحامون ، ويتجادل فيه المشرعون ، ليس إلا أنفه أنواع الرشوة وأقلها خطراً . .

وهناك أشكال وألوان من الرشوة أشد خطراً وأعظم ضرراً تجري وراء الستار ، ويعجز القانون عن القبض عليها وتوقيع العقوبة على مرتكبها ، ولو عرفها .

وبينا الأمر في الحالة الأولى يقع فيها الموظف الخائب أو الكاتب الصغير أو العمدة الوضع ، إذا بالحالات الأخرى يرتكبها الغنى الكبير ، والوزير الخطير ، والوجيه العظيم !

قال محدثي : كان في الزمن السابق عندنا مديران : مدير خائب ، ومدير ماهر ، فأما المدير الخائب فكانت تأتيه الهدايا الحقةرة « خرفان » في العيد الكبير ، وديوك في شم النسيم ، ومانجو في أيامها ، وأقفاص عنب في زمانها ، وسلال البيض ، وصفائح السمن ، وهكذا ، مما كبر حجمه وقلت قيمته ، فلو حسبتها كلها لما تجاوزت قيمتها مائة جنيه أو مائتين أو ثلاثاً . مبلغ تافه يلوث السمعة ، ولا يسبب غنى .

وأما المدير الماهر فكان يرفض أى هدية ، ولا يقبل أن يدخل في بيته أى

شئ حتى اشتهر بالنزاهة والطهارة ، ولكنه ماهر أشد المهارة ما كر أشد المكر ،
يجلس في وسط الأعيان من إقليمه ، ويعرف أن أحدهم يتاجر في القطن ويتعامل
في البورصة ، فيقول له ما رأيك في القطن ؟ فيقول له أظنه سيرتفع — يقول المدير
إذن اشتر لي معك ألف قنطار ، فيفعل الغني ذلك ، فإن زاد القنطار جنيهاً قبض
المدير ألف جنيه ولم يدفع شيئاً ، ولكنه تاجر تجارة « شريفة » وإن نزل القطن
جنيهاً سكت المدير وتغافل ، كأنها كلمة عابرة لم تكن على سبيل الجد ، وسكت
الغني عن المطالبة إذ لا يصح أن يطالب الباشا المدير !

ويزوج المدير ابنه أو بنته فيقيم الأفراح والليالي الملاح ، فتنهال عليه الهدايا
مما خف حمله وغلائمه ، من ساعة ذهبية ، وعقد من اللؤلؤ ودبوس من الماس ،
فيخرج من كل ذلك غنياً « شريفاً » !

والناس يعدون الأول خائناً شرهاً ، ويعدون الثاني أميناً نزيهاً ، مع أن
الأول خرج بملء بطنه ، والثاني خرج بملء جيبه . وإذا قدما معاً إلى المحكمة
استطاعت في الأول أن تضع يدها على الجريمة ، ولم تستطع في الثاني !

ومن أساليب المكر والدهاء في باب الرشوة ما تفعله الشركات ، تعتمد إلى
ذى نفوذ في الدولة فتعينه في مجلس إدارتها ، وتخصص له الألوف في السنة مكافأة
على عضويته ، وهو لم يخدمها بعلمه ولا بفنه ، ولكنها اشتريته لنفوضه ، فإن هو
تمرج من ذلك وأبت عليه ذمته أن يقع في هذا الشرك ، عينت الشركة ابنه
أو صهره في وظيفة كبيرة بمرتب كبير ، وإذن لا يكون لهذا الكبير حق في
الاعتراض ، إذ كيف يجوز له أن يعترض على رزق ساقه الله لابنه أو صهره ؟ .

ومن هذا الباب تستولى الشركة على ذمة الوجيه الخطير ، فلا يمكنه أن يفتح
فماً للاعتراض على تصرف من تصرفات الشركة ، وتكون الشركة قد دفعت ألفاً

أو ألفين واستغلت في نظير ذلك عشرات الألوف أو مئاتها ، والقانون نائم والمحكمة نائمة !

أما هذا الكبير ذو النفوذ العظيم ، فنزيه كل النزاهة لا يمد يده لشيء ، ولا يقبل هدية من أحد ، ولا يرضى أن يكون عضواً في شركة ، ولكنه مصاب بلعب القمار ، فليدخل الماكرون الماهرون إليه من هذا الباب . يأتي إليه سمسار الحاجات ، ومنفذ الأشغال فيصادقه عن طريق القمار ويلاعبه ، ويُغَلَبُ له في مبلغ كبير ، فيأخذه العظيم النزيه على أنه مكسب في لعبة ، فإذا مضى يوم أو يومان دخل عليه هذا السمسار الصديق في مكتبه ، وأمضى منه جميع أوراقه حالاً زلالاً ! وهذا الباشا العظيم أو البيك الكبير مولع بالآثار القديمة ، أو الكتب النادرة ، أو التحف اللطيفة ، فهذا الراشي الماهر يبيع له شيئاً من ذلك بثمان بخس ، ثم يطلب حاجته فنقضى سريعاً في « نزاهة » .

ولا أحدثك عن الجمال ولعبه في هذا الباب ، فهذه السيدة الجميلة في منظرها ، الساحرة في حديثها ، الآخذة بالقلوب في ابتسامها ، اللاعبة بالعقول في دلالها ، تفعل من وراء الستار في الرثى ما لا تفعله الأموال الكثيرة والهبات الغالية . فكلمة جميلة وابتسامة لطيفة ، تجعل في المصالح الحرام حلالاً والحلال حراماً .

والشيء لا يقضى مثله في سنة يقضى لمثلها في لحظة ، لا تقف أمامه قوانين ولا لوائح ولا تعليمات . وإذا كانت السوابق لا تجيزه ، عُدَّ هذا سابقة جديدة !

إن طرقت الجميلة باب الخيرات والأوقاف ، فضلت لجملها على القبيحات المستحقات ، وإن طرقت باب التوظيف والترقية ، فتحت لها باب الاستثناءات ، وإن طرقت باب تسهيل الأعمال ، فسرعة البرق وسط مشي النمل والجمال ، وهكذا لهن في كل واد أثر .

والنصابون الماهرون الخبيرون بطرق الرشى من أكبر علماء النفس ، يعرفون
نقط الضعف فى كل كبير ذى جاه ، وقلمما يسلم أحد من نقطة ضعف . هذا ضعفه
فى شربه فى المال ، وهذا فى حبه الملق ، وهذا فى قماره ، وهذا فى نسائه ، فإذا هم
عرفوا نقطة ضعفه انقضوا عليه انقضا الصقر على الحداة ، فوقع فى مخالبتهم
وانتهكوا حرمة بآنيابهم .

والحماكم قاعة بالشىء القليل الذى يقع فى يدها ، ووراء أبوابها أنواع
وأنواع لا تدخل فى حسابها ، فما أندر من لم يبيع ذمته ولا شيئا منها بأى ثمن
وبأى شكل ...

فلسفة البدع (المودة)

جاء الربيع بأزهاره الجميلة ، ونقوشها البديعة ، وألوانها الزاهية . وجاء الإنسان فقلد الطبيعة في تجديد ما ابتكارها ، وسمى تجديده وابتكاره « مودة » .

والمودة أشكال وألوان ، فأولها مودة الملابس وخصوصا ملابس السيدات من تغيير في التفصيل وفي الألوان وفي الحلية وهكذا .

وهناك مودة البناء ، فكل يوم يطلع علينا المهندسون بأشكال في البيوت ، تجعل بيوتنا التي بنيت من عشرين سنة « مودة قديمة » .

ويتبع ذلك مودة أثاث البيت ، فقد تغيرت تبعا لتغير البناء وتغير الظروف ، وما كان جهازا للعروس من خمس سنين ، لا يصلح أن يكون جهازا للعروس اليوم .

وهناك مودة السيارات ، فتمودج سنة ١٩٤٠ غير تمودج سنة ١٩٤١ وهكذا ، وكل مودة تمتاز عما قبلها بتحسينات ، كتكييف الهواء وجمال الشكل وحسن الوضع .

بل هناك أيضا مودة في الحديث وأساليب الكلام ، فهناك ألفاظ تعد مودة جديدة ، مثل قولنا في الحديث « بطبيعة الحال » و « طبعا » و « في الواقع » و « سيداتي وسادتي » إلى غير ذلك . وتتقلب أساليب الكتاب كتقلب مودة السيدات ، فكان الكتاب في العصر الماضي يلتزمون السجع ، ثم أصبح السجع « مودة قديمة » وأصبحت المودة الجديدة الكتابة المرسلة من غير سجع ، ثم بدأ بعض الكتاب يسجعون ويحانسون ، وهكذا يحارون حيرة المرأة بين قص الشعر وإطالته .

وهناك أنواع وأنواع من المودات ، فى الألعاب ، وفى فن التصوير ، وفى الموسيقى ، وفى الرقص ، وفى موضوعات الأحاديث ، وفى موضوعات الإنشاء لتلاميذ المدارس مما لا أطيل بذكره .

ولكل طبقة من طبقات الشعوب مودة . فمودة الفلاحين والفلاحات غير مودة الطبقة الوسطى من سكان المدن ، وكلها غير مودة الطبقة الراقية . فمن السهل جداً التفرقة بين سيدة من الطبقة الراقية وسيدة من الطبقة الوسطى فى مودة ملبسها وحركتها وحديثها .

وقد كانت « المودة » قديماً تنتشر بين الأمم فى بطء ، وحتى بين طبقات الشعب الواحد . فلما أصبحنا فى عصر الطيارات والراديو ، صارت المودة تنتقل بسرعة ، فما هو إلا أن تظهر مودة فى باريس حتى تكون فى مصر بعد بضع ساعات .

* * *

والسؤال الفلسفى الصعب هو ما الذى يدعو إلى المودة ؟ فالذى نلاحظه أن المرأة أكثر ميلاً وأشد افتئاناً بالمودة من الرجال ، فملابس النساء تكاد تتغير فى مودتها كل عام أو فى أقل من عام ، على حين أن مودة الرجل فى ملابسه لا تتغير إلا تغيراً جزئياً وفى أزمان بعيدة . ولو استعرضنا صورة لملابس المرأة المصرية فى عهد توفيق باشا والمرأة المصرية اليوم ، لأخذنا العجب من الفرق الهائل بين الحجاب والسفور ، والملابس إذ ذاك والملابس اليوم ، والشعر الطويل والشعر القصير ، وربطة الرأس فى ذلك العهد وعمامة الرأس اليوم ، وهكذا وهكذا ، على حين أنا لا نجد فرقاً يذكر بين ملابس الرجل فى ذلك العصر وملابسه اليوم .

كذلك نلاحظ أن تغيير المودة ليس مؤسساً على « المنفعة » بل إن « المنفعة » آخر ما ينظر إليه فى هذا الموضوع . نعم ، قد توافق المودة المنفعة الاقتصادية

أو الصحة — مثلا — كما في تقصير الثياب ، إذ كان الفستان طويل الذيل كذيل الطاووس ، فأصبح قصيرا لا يستر الساق . وفي هذا منفعة اقتصادية وصحية ، ولكنه لم ينظر مطلقا في المودة إلى هذا النفع ، بدليل أن أغلب المودات تهزأ بأبسط أنواع الاقتصاد والصحة .

إنما يدعو إلى « المودة » أمور :

أن المرأة سريعة السامة والملل . يظهر ذلك في رغبتها في كثرة ملابسها ، وتنقلها بين فستان وفستان حتى لا تسأم ولا تمل . وهي كذلك تسأم الأوضاع كما تسأم الملابس . فإذا مر زمن قصير على مودة سئمتها ، ورغبت في تغييرها مجارة لشعورها . ثم إن المودة — عادة — تنبع ممن نسميهم الطبقة الراقية لرقى ذوقهن وقدرتهن على الشراء ، فإذا أتت بمودة جديدة فسرعان ما تنتقل منهن إلى الطبقة الوسطى فالدنيا . ولكن هذه الطبقة العليا يتغلغل في نفسها حب التميز والتسامى والترفع عن غيرها من الطبقات . فإذا رأت أن قد شاركتها في مودتها غيرها من الطبقات ، بحثت عن مودة جديدة تتميز بها وهكذا دواليك ، فتكون المودة في حركة مستمرة .

ثم إن المودة مرتبطة بالجمال أكثر من ارتباطها بالمنفعة ، وإذا كانت المرأة مظهرا للجمال كانت مودتها أكثر تجددا ، والجمال أحوج الأشياء إلى التجدد ، وتجدد الجمال فن صعب ، والمرأة الماهرة من تستطيع أن تتجدد في حديثها وعقليتها ومظهرها ، ومن ذلك تنشأ المودة .

وأحيانا تنبع المودة من شعور بالنقص عند من ابتدعت المودة ، كالتي تشعر بأن شعرها ليس فيه جمال الطول فتبتدع مودة الشعر القصير ، وتضحك بذلك على من رزقها الله جمال الشعر السابغ ، أو تنبع ممن ليس شعرها بحمिल فتبتدع العمامة ، أو من القصيرة فتبتدع الحذاء العالي ويتصل بهذا أشد اتصال ، شعور المرأة

الشرقية بنقصها عن المرأة الغربية . فهي تستر هذا النقص بتقليدها الدائم في مودتها ، من غير التفات مطلقا للفروق التي يستلزمها الجو والبيئة الاجتماعية . ومن أجل هذا — أيضا — كانت المودة أول من يبدأ بها الطبقة الراقية ، فلا تلبث الطبقة الوسطى والدنيا أن تقلدها سترا لشعورها بالنقص عنها .

وتخضع المودة — في كثير من الأحيان — للظروف الاجتماعية فلما كان الرجل معترفا بسيطرته على المرأة ، وكانت هناك حدود فاصلة بين الرجل والمرأة ، كانت مودة المرأة منصرفة إلى التجميل في عين الرجل ، مع الاعتراف بالحدود الفاصلة بينها وبين الرجل . فلما جاءت موجة المساواة ، وطالبت المرأة بالمشاركة في الحقوق : في السياسة وفي الوظائف وفي العمل خارج البيت ، أثرت هذه النزعة في المودة أيضا ، فأصبحنا نرى المرأة تلبس البنطلون أحيانا كالرجل ، وتدخن تشبها بالرجل ، وتلبس العامة أحيانا كالرجل ، استجابة لنزعة المساواة وكسر الحدود والفواصل .

* * *

ثم للمودة أثر بالغ في حياتنا الاقتصادية ، فكم من مئات الألوف من الجنيهات بل الملايين ، تصرف في المودة من فرو ، وأدوات ، زينة وتفصيل ملابس جديدة تتفق مع المودة الجديدة ، وروائح عطرية ومودة سباق الخيل ونحو ذلك . ولولا سلطان المودة ما أنفقت . وقد يحتمل عبء المودة الأغنياء ، ولكن سلطان المودة ليس مقصورا على الأغنياء بل سلطانه يشمل الأوساط والفقراء ، فكم من عائلات بأئسة وبيوت شقية من ولوع ربة البيت بالمودة ، وعدم موازنتها بين الضروريات والكليات .

أما تلاعب بيوت الأزياء ومصانع المودات بالعقول والعواطف ، وطرق الإغراء ووسائل النشر والدعاية فشرحه يطول .

البنطلون الطويل !

قال ابني — وقد انتهى من مرحلة التعليم الابتدائي ، ودخل في مرحلة التعليم الثانوي :

— أريد بنطلونا طويلا ...

لماذا ؟ !

— لأنني لم أعد طفلا ، وأريد أن أكون رجلا ، تعاملونني معاملة الرجال ، فأركب الترام وحدي ، وأذهب إلى المدرسة وحدي وأستاذكم في الذهاب إلى السينما وحدي .

— هل تتم لك رجولتك يا بني بلبس البنطلون الطويل ؟ لو كان الأمر كذلك لما كان أسهل من تكوين الرجال ، إن أكثر من يلبسون البنطلون الطويل — يا بني — ليسوا رجالا ، ولو قصرنا لبس البنطلون الطويل على الرجال لفتحنا ألف مصنع للبنطلون القصير وربع مصنع للبنطلون الطويل ؛ والربع كثير .. ؟ ولو كان مقياس الرجولة ركوب الترام من غير حارس ، والذهاب إلى السينما من غير رقيب ، لانحطَّ سعر الرجال مع أنه أغلى من الذهب الخالص والجوهر الكريم . ليست الرجولة — يا بني — بينطلون طويل ، ولا بملابس فخمة ولا بسيجارة توضع في الفم ؛ ولا بعصا ثمينه ، ولا بأي شيء من المظاهر ، وإلا كانت الصورة من الجبس ، تلبس بنطلونا طويلا ، وتمسك بعصا ثمينه ، وتعرض في المتاجر الكبيرة ... رجلا أي رجل ..

إن فيلسوفاً يونانياً كبيراً حمل مصباحاً ، وسار به يفتش عن « رجل » ، وإذا أردت تعبيراً حديثاً فقل إنه حمل « ميكروسكوبا » يبحث به عن رجل لما أعوزته

العين المجردة لأنه لم يكن يطلب رجلا يبتلون طويل ، بل كان لا يهتم ببتلون طويل أو قصير ، وجسم كبير أو صغير ، وملبس أنيق أو حقير ، إنما كان يهتم شئ وراء ذلك ، هو القيمة لا الشكل ، والروح لا الجسم ، والمعنى لا المبني ، والقلب لا الجسد .

قد يكون الإنسان غنيا كبيرا وليس رجلا ، وقد يكون وزيرا خطيرا وليس رجلا ، وقد يكون بحرا في العلم وليس رجلا ، لأن الرجولة وراء ذلك كله ، وفوق ذلك كله ..

إن الوزير الذي يرى أن الوزارة جندی يقف على بابه ، وعربة فخمة يركبها ، وبوق ينفخ فيه إذا حضر ، وتحيات من الجنود متصلة ، وشهوات تقضى ، ومحسوبة للأقارب والأنصار والأصهار تنفذ ، ليس رجلا ، وأولى به أن يلبس ببتلونا قصيرا . وإن الزعيم الذي يرى الزعامة تصنيفا حادا متواصلا ، وهتافا بالحياة حيثما كان ، وأن يقول للناس ما يرضيهم لا ما يهديهم ، وما يسرهم لا ما يجب عليهم ، وأن يختفي وراء الستار ولا يتقدم أمام الصفوف ، ليس رجلا ، وأولى به كذلك أن يلبس ببتلونا قصيرا .

وإن الغنى الجشع يجمع المال من حله وحرامه ولا يبالي بمن حوله ولو ماتوا جميعا ، وليس في ماله حق معلوم ، للسائل والمحروم ، وكل همه أن يزيد دخله عاما بعد عام ، ويقل إنفاقه عاما بعد عام ، ليس رجلا .. وواجبه أن يرتدى الببتلون القصير .. وهكذا ..

ولو وزعت الببتلونات الطويلة والقصيرة حسب القيم الذاتية لرأيت عجبا .. لرأيت صانعا شريفا يلبس ببتلونا طويلا ، وبجانبه باشا كبير يبتلون قصير .. ولرأيت صاحب القصر الفخم ، والثراء الضخم ، يلبس ببتلونا قصيرا ، وخادمه الأمين يبتلون طويل ..

إن الرجولة شعور بالمسئولية نحو النفس ، ونحو الأسرة ، ونحو الوطن ،
ونحو الناس ..

الرجولة ضمير حى يشعر بالواجب ، ويبذل كل ما يستطيع لأدائه ..
الرجولة شجاعة يقتحم صاحبها الأهوال لتحقيق غاية سامية ينشدها ومقصد
نبيل يهدف إليه .

فى الرجولة يتحكم الواجب لا السوق ، والفضيلة لا الربح ، والحكمة لا الشهرة ،
والضمير لا المنفعة ، والعقل الرزين لا العاطفة الموهجاء .

أفهمت — يا بنى — ما يتطلبه البنطاون الطويل ؟ .

إن لم تفهم بعض ما قلت اليوم فستفهمه على مدى الأيام .

ألا تزال مصمما ؟ ! ..

أعجبني .. ولم يعجبني

في بلاد الإنجليز !

أعجبني في الإنجليز نظافتهم ، ونظافة شوارعهم ، ونظافة معاملتهم ، فكل شيء تقع عليه عينك نظيف ، وإن كانت نظافتهم قبل الحرب أحسن منها بعد الحرب ، وكم يسرك أن ترى ربة البيت تقف في حديقتها تمسح أوراق أشجارها ، وتعني بأزهارها .. يساعدهم على ذلك جومهم ، فلا غبار الجبال الجرداء ولا رمال الصحراء ، ومن حين لآخر يسقط المطر فينظف الجو ، ويغسل الأرض .

وأعجبني فيهم نظامهم ، فكل شيء يجري في حياتهم بدقة ونظام من حين يستيقظون صباحا إلى حين ينامون مساء . كل شيء في مواعده وكل شيء بنظامه ، لا فوضى ولا هرجلة ..

النظام في البيت حين تستيقظ أو تأكل أو تنام ، وفي الشارع حين تمشي ، وفي السيارات العامة حين تركبها ، وفي البنوك حين تعاملها ، وفي المتجر حين تشتري ، وهكذا ، وإذا اجتمع أكثر من واحد على شيء « فالطابور » — الطابور في انتظار السيارة ، وفي أخذ الشاي ، وفي أخذ تذكرة السينما وفي كل شيء مع الهدوء التام ، ومعرفة كل حقه وواجبه .

كل الدكاكين تفتح في الساعة التاسعة صباحا ، وتغلق في الخامسة أو الخامسة والنصف ، ثم لا يمكنك أن تشتري شيئا بعد أن فاتك الموعد إلا أن يكون مطعما ، ومن تعدى على هذا النظام الدقيق احتقر ، وازدرى ، ونظر إليه نظرات مخجلة ، فالناس كلهم يخضعون لهذا النظام رغبة أو رهبة .. تشعر بهذا النظام الدقيق والهدوء الشامل ، من وقت أن تضع رجلك في إنجلترا ، ومن وقت أن يقف القطار ويتلقاتك الجمالون .

وبمناسبة الحمالين يعجبني احترامهم للإنسانية ، فلا يحمل إنسان على كتفه أو فوق ظهره الأحمال الثقيلة ، وإنما تستخدم في ذلك العجلات والعربات على اختلاف أشكالها .

وفوق ذلك أعجبني فيهم الديمقراطية بمعناها الصحيح ، وهي أن كل إنسان يحترم شخصيته فلا يسمح أن يتعدى عليه أحد ، ويحترم شخصية الآخرين فلا يعتدى عليهم ، ثم المساواة في جميع ذلك ، فلا فرق بين صغير ، وكبير ، ولا بين غنى ، وفقير ، ولا بين وزير وعامل ، لا تشعر وأنت تكلم وزيراً إلا أنك تكلم إنساناً كسائر الناس ، كل يخاطب بالرجاء ، وكل يرد بالشكر ، لا خفخة ، ولا أبهة ، ولا تعالى ، ولا نظرة من أعلى إلى أسفل ، ولا من أسفل إلى أعلى .. قانون البطاقات يطبق على الوزير كما يطبق على الفقير ، ويقف في طابور الشاى العامل أمام الوزير — إذا دخل أغنى الأغنياء أو رئيس الوزراء مطعماً فلا بد أن يخضع لنظام الأصناف الثلاثة فقط ، ولا يستطيع أن يزيد شيئاً بماله أو جاهه ، وهكذا .

ثم أعجبني أن وراء هذا كله رأياً عاماً قوياً يشجع الحسن ، ويحتقر السيئ ، ويخضع للقانون عن إيمان ، ويزدرى من يخالفه عن عقيدة ، ويضرب نطاقاً حول النظام وحول القانون ، وحول الديمقراطية ، ولا يسمح بمخالفة شيء من ذلك .

لعلى أستطيع أن أسوق هذه القصة التى تتضمن كل المعانى التى ذكرتها .

« وكيل وزارة عين حديثاً ، ولم يكن له بيت فى لندن ، فبحث فيها فلم يجد ، وبحث زوجته عن بيت بعيد عن لندن فوجدت ، ولكن البيت الذى عثرت عليه قديم مهجور ، والبيوت إذا هجرت فى إنجلترا تشبعت حيطانها بالرطوبة ، واحتاجت إلى تدفئة قوية لإزالتها .

طلبت السيدة زوجة الوكيل طنين من الفحم — فوق ما يصرف لكل الأسر — لإزالة الرطوبة ، فأشرموظف التموين المختص على الطلب بأنه لا يوافق

لأنه لا فحم فوق حاجة جمهور الناس ، فرفعت السيدة شكواها إلى رئيسه ، فأشّر على شكواها بأنها تعطى الطنين بعد أن يستوفى الناس مقاديرهم ، فاستقال موظف التموين الأول ، إذ لم تحترم تأشيرته .

وصادف أن الفحام تجمع له طنان بعد أن أخذ الناس نصيبهم فأعطاهما لزوجة الوكيل — فهاج الرأي العام الذى عرف القصة ، ووصل الخبر إلى الجرائد فانتقدت التصرف لما فيه من محسوبية ، وخروج على الديمقراطية .

فاضطرت السيدة أن تثبت أن لعملها نظائر جرت لعامة الشعب ، كما اضطرت أن تثبت أن المعاملة التى كانت لنظائرها كانت سابقة على معاملتها .

وأخيرا علقت الجريدة على هذا التصرف بأن السيدة وهى زوجة وكيل وزارة — كان يجب عليها أن تترفع عن هذا التصرف ، حتى لا يساء فهم مركزها ، ويتهم زوجها بأنه حوبى ، وأعطى من الفحم فوق مقادير الناس .

وأعجبني نظام الضرائب التصاعدية مما جعل هناك حدا أدنى للعيشة وحدا أعلى ، وقرب مسافات البعد بين الغنى والفقير ، فليس يستطيع غنى مهما تضخم رأس ماله أن يربح أكثر من نحو خمسة آلاف جنيه فى العام وما زاد عن ذلك يذهب كله ضريبة أرباح ، وليس يستطيع رجل مهما كان غناه أن ينفق أكثر من خمسة آلاف جنيه فى العام إلا إذا أنفق من رأس ماله .

أما الذى لم يعجبني فهو خضوع حياتهم للعقل أكثر من العاطفة ، فعلاقة أفراد الأسرة — مثلا — علاقة محكومة بالمنطق ، فإذا كبر الابن أو كبرت البنت وجب أن يحمل كل منهما عبء نفسه من غير رحمة ، وإذا اغتنى الأخ ، وافترقت الأخت فلا بأس ، فلكل جهده ، ولكل حظه ، وكل يعيش لنفسه .

ولم يعجبني — وقد اعتدت حياة البجبة — هذه القيود الشديدة فى كل

حركة ، والحياة الرتيبة في كل شيء ، حتى كأني ترس في آلة أو عربة في قطار ، والإنسان يحلوه — أحيانا — أن يتحلل من بعض القيود ، ويتجبح في بعض جوانب الحياة ..

ولم يعجبني شعوري بأن هؤلاء القوم — وقد فهموا الديمقراطية على وجهها الصحيح — أبوا أن يصدروها إلى الخارج في أملاكهم ومستعمراتهم ، ومناطق نفوذهم ، واحتفظوا بها ميزة لأنفسهم ، وصدروا إلى الخارج نوعا مزيفا من الديمقراطية أشبه شيء بعث الوليد ، وارتضوها لهذه الشعوب المسكينة وأيدوها بقوتهم ، ولم يشجعوا المصلحين على إصلاحها وتقويمها ، وأيدوا العابثين ليزيدوا في زيفها ، ولم يعجبني أنى أكتب هذا عن الإنجليز وقد مكثت بينهم في المرتين نحو ثلاثة أشهر ، وهم أعمق من أن يكتب عليهم من لم يمكث بينهم سنين ، ويمتزج بهم امتزاجا تاما .. فلهم باطن ، وظاهر ، وعمق ، وسطح .. ولا يدرك من يقيم أياما وأشهرا إلا الظاهر والسطح .

ميزانيات مختلة !

الساعة السادسة مساء ، وأنا واقف أنتظر المترو ، مرت سيارة فخمة تلفت النظر ، بأناتها ونظاتها وصوت زمارتها ، ثم وقفت على قرب منى ، ودعاني صاحبها إلى الركوب معه إذ كنت أعرفه ، ويعرفنى وحدثنى فى الطريق عن السيارات وأنواعها والطراز الجديد والطراز القديم ، وأنه اشترى هذه السيارة بثمانمائة جنيه وركب فيها آلة للراديو من أحدث طراز ، وإن عيبتها أنها تأكل بنزيناً كثيراً فهي تعمل ثمانين كيلو فى الصفيحة ؛ ولكن ما قيمة الدنيا إذا لم يتمتع الإنسان نفسه بماله ، فليس لى بنت ولا ولد حتى أذكر لهم ، ولذلك اعتزمت أن أصيف هذا العام فى لبنان ، وإن وصفوه بالفلاء وسأخذ السيارة معى ليتيسر لى الانتقال فى الجبل .

ووقفت السيارة فى ميدان المحطة ونادى صاحبى بائع الجرائد ، وطلب منه جريدة صباحية فقدمها له .

— هات مليمين وخذ القرش .

— لا إنها بقرش

وما زال فى أخذ ورد — ولم يرض صاحبى أن يدفع القرش ، ولم يرض بائع الجرائد أن يبيعها بثمانية مليمات ، وشيعنا بقوله : « عيب على الأوتوموبيل » ، وعلق صاحبى بأن كل جرائد الصباح تباع فى المساء بثمانية مليمات وأنا من عادتى ألا أقبل أن أحداً يغشنى ولو فى مليم .

ورجوته أن ينزلى فى أقرب مكان ففعل ، وشكرته وانصرف .

غريب أمر هذا الإنسان يصرف هذا الصرف على السيارة وما إليها ،

ويبخل بمليمين على بائع الجرائد الذى لا يتجاوز كسبه فى اليوم خمسة قروش
أو عشرة لا تكاد تسد رمقه ويأبى إلا أن يشاركه فى قوته .

ليس صاحبى بدعا فى هذا الأمر ، فأكثر الناس مصاب باختلال التوازن
فى الشؤون المالية .

هذا يسهل عليه أن يشتري سجادة أثرية بألف جنيه لأنها من صنع القرن
السادس أو السابع الهجرى ، وتكاد تذوب من الهواء ، وكلما كان رسمها غير
متمن ونسجها مهلهلا كان ذلك أدهى للغوفى ثمنها ، ومع ذلك يبخل على الصرف
فى ضروريات منزله . وهذا هاوى كتب يبحث ويكد فى البحث عن مخطوط
نادر ، ويسهل عليه أن يصرف فى اقتنائه عشرات الجنيهات ، ومثله مطبوع بعشرة
قروش ، ثم هو لا يقرأ المخطوط ولا المطبوع ، وأهل بيته فى أشد الحاجة إلى
جنيه واحد .

وهذه أسرة دخلها خمسون جنيها فى الشهر أو ستون ، منها عشرون على فساتين
السيدة وزينتها ، وعشرون على سيارة البيك ووجاهته ، وعشرة على مشروباته
وكيفه . . وأكل البيت ردىء ، وتعليم الأولاد ردىء ، والمظهر جذاب والخبر
منفر ، ولا بأس من الاستدانة إذا انتهت الماهية قبل الشهر ، ولا بأس من
الزوغان إذا طالب الدائن بدينه ، مادامت الوجاهة قد حققت ، والمظاهر قد استكملت .
وفى الناس من يلذه إذلال البائع وخصوصاً البائع المتجول . فيتلذذ من أنه
غلبه وأذله كما يتلذذ الشرير من الضرب والتعذيب . فقد يكون فى غير حاجة إلى
شراء شيء ، ومع ذلك يماكس فيه ويناكف بالمليم والمليمين ، ويطيل المناقشة
والحوار والمجادلة ، ويحلف بالأيمان حتى ينجبل البائع الفقير من السيد الكبير ،
فيبيع من غير مكسب أو بخسارة ، فيفرح المشتري العظيم بهذا الانتصار الكبير .
ومن ألطف ما ترى فى هذا الباب أن يجلس الوجيه على المقهى فيمر بائع

بطيخ أو بائع ديك رومى ، فتتحرك فى نفس الوجيه لذة الشراء ، والشراء الرخيص ،
فيأخذ فى الماكسة والممارسة والحوار الطويل حتى يتم الشراء بما ينقص قرشين
أو ثلاثة أو خمسة مما يشتريه إذا كان فى جوار داره . ثم يضطر إلى استئجار
سيارة بخمسة عشر قرشا أو عشرين ، ومع ذلك فهو متلذذ بهذه الخسارة لأنه
اشترى الشيء رخيصا .

وأعرف من هذا القبيل سيدة سقط منها قرش فى خرق شباك ، فاستدعت
النجار ليستخرج لها القرش ثم دفعت له قرشين .

ميزانية صاحبي الذى أركبني السيارة وضمن بالمليمين على بائع الجرائد ،
كميزانية الحكومة . تصرف الآلاف ومئات الآلاف على الكماليات والترف
والزينة والزخرف ، وتضمن بعشرات الجنيهات على الضروريات وما يسد الرمق
ويحفظ الحياة أو يوفر على الدولة مئات الألوف ، فالطينة من الطينة والعجينة
من العجينة .

زهر الربيع

هذه الأرض قد احتفظت بسرّها حتى إذا جاء الربيع انتشت فباحت بمكنونها ..
إن كان للحياة سر فالربيع سرّها ، أو كان للعالم سر فالربيع سرّها ..
جاء الربيع فأصبحت الطبيعة ملء السمع ، ملء البصر ، ملء الشم ، ملء
الذوق ، فكأنّها أوتار عود ، لكل حاسة وترّها الذى يشجّيا .
همس الربيع إلى الأرض بكلمة سحرية فجنى جنونها ، فالأغصان تمايلت
وتعانقت ، والزهور تفتحت ، والطيور غردت حتى كأنّ الدنيا كلها فى
عرس بديع ..

لو مثلنا الربيع إنسانا لكان غادة حسناء فى أبدع صورة وأجمل زينة ، ثم
انتشت فكانت مرحلة ضحوكا تفيض على كل من حولها بهجة وسرورا .
لعب الربيع بألوان الأزهار لعبا بديعا ، فأحمر قان ، وأبيض ناصع ، وأصفر
فاقع ، ثم نقش جميل ، ومنممة كديب النمل ، وهندسة رائعة ، منسجمة متناسقة
يحار فيها الفكر ، ويهيم بها اللب ، تعلم الفنانين فهم ، وترقى ذوقهم ، وتلهيهم
الإبداع فى التنسيق ، والإجادة فى التنميق ، ثم هيهات أن يبلغوا مبلغ الربيع فى
فنه وجماله .. فأين التقليد من الإبداع ، وأين الجسد من الروح ؟!

لكل زهرة وحيها ، ولكل جمال إلهامه ، فبياض يوحى بالطهر والصفاء ،
وحمرة توحى بالقوة والعظمة ، إلى ما شئت من إشارات ودلالات ، حتى كأنّ كل
زهرة كتاب مفتوح يهتدى به من يفهم ، ويتعلم منه ما لم يكن يعلم ..

تقسم الربيع الجمال فى ليله ونهاره ، فليله رصع بالنجوم وزين بالدرارى ،
ونهاره حلّى بالزهور من كل لون بديع ، وشكل مهندس عجيب ، فأزرى جمال

الأرض بجمال السماء ، وخجلت آية الليل من آية النهار .
أدرك الإنسان جمال الأزهار فانتشى ، وأدركه الطير فغنى ، وأدركه النحل
فارتشف ، وأدركته الأغصان فتمايلت وتعانقت ، وأدركه العشاق فهاموا به ،
وتهادوا به ، ورمزوا لعواطفهم به .

عطرت الأزهار الجو برائحتها الطيبة ، فأنعشت النفوس ، وأحيت الأمل .
ما الدنيا بلا ورود وأزهار ؟ إنها دنيا جافة لا تستحق البقاء .

إن الجمال يوحي بالجمال ، فحمة الورد أوحى بحمة الحدود ، وغصن البان
بقدود الحسان ، فمن لم يدرك جمال الأزهار لم يدرك جمال الدنيا . .

لو أنصف الناس لمنحوا جمال الزهر نصيبا وافرا من زمنهم ومالهم ، ولو
فعلوا لصف نفوسهم ، ورق شعورهم ، ورق ذوقهم .

ولو أنصف المربون لعلوا جمال الخلق عن طريق جمال الروض ، والزهر ،
والطبيعة ، فليست الفضيلة إلا جمالا ، ولا الرذيلة إلا قبحا ، وإدراك جمال الحس
وسيلة إدراك جمال المعنى .

دع المجرم يدرك جمال الزهور وهو لا يجرم ، ودع قادة السياسة — الذين
يدفعون أمهم لنار الحرب — يدركون مافى الأزهار والطبيعة من جمال ، فينقلبون
دعاة سلم ، فالشعور بالجمال يدعو — دائما — للخير ولا يدعو — أبداً — إلى الشر .
لقد وقفت بالأمس على روضة وشأها الربيع فوددت أن يجتمع حسنها كله
في كأس فأشربها ، أو أن أفيض عليها نفسى فأفنى فيها ، فما الحياة بلا جمال ؟ ! . .

الحكومة الصالحة

ليست الحكومة الصالحة هي التي تحفظ الأمن ، وتمنع العدوان ،
وتشيع الهدوء في نفوس الشعب فحسب ، وإنما الحكومة الصالحة هي التي تبني ،
وتبني دائماً .

هي التي تجعل نصب عينها أن يكون الشعب أسعد وأنظف ، وهي التي تتيح
الفرص لكل الناس على السواء أن يرقوا أنفسهم ، ويحترموا أنفسهم ، ويكملوا
أنفسهم حتى إذا أراد كل فرد أن يتعلم وجد وسائل العلم ميسرة سهلة ، وإذا أراد
العمل وجد بابه مفتوحاً ، وإذا أراد أن يقوم بأي إصلاح لنفسه ولأسرته ولبن
حوله وجد الطريق ممهداً للإصلاحه .

وهي التي تبني أفراد الشعب بما تنظم من مرافق الحياة ، وبما تشجع من السير
في سبيل الرقي ، وبما تطلق من الحرية لكل فرد ، ولكل جماعة أن تكمل نفسها
حسبما يترأى لها .

وكما تبني الأفراد تبني المال ، لأنه دعامة الحياة للأمة ، فستغل موارد البلاد
ما أمكن ، وتزيد ثروتها ما أمكن ، ولكنها حين تتوسع في الاستغلال ، وتزيد
الثروة ، وتنمي رموس الأموال ، تحمي الفقراء من الأغنياء ، وتحمي العمال والفلاحين
من الملاك ، فتقارب بين الطبقات ، ولا تسمح لطبقة أن تبتز أخرى ، وتستغلها إلى
أقصى حدود الاستغلال ، ولا تجيز سعادة قوم لشقاء آخرين ، ولا تخمق قوم بجوم
قوم . فإن واجبها هو بناء الشعب كله ، لا بناء بعضه بهدم بعضه .

وعلى الجملة فالحكومة الصالحة هي التي تعمل — في جد — ما يبني الشعب

في عقله ، وخلقته ، وبدنه ، وماله .

فإذا رأيت أن تقيس قيمة حكومة فقسها بهذا المقياس — مقياس البناء في مرافق الحياة .

بل ليس مجرد البناء وحده هو مقياس صلاحية الحكومة ، ولكن السرعة في البناء أيضاً مع جودته ومتانته ، فإنك إذا رأيت مهندساً يبني في عشر سنين ما يمكن بناؤه في سنة ، أو يبنيه في غير جودة ولا متانة ، فهو مهندس لا يصح أن يركن إليه ، وكذلك الحكومة .

فإذا رأيت حكومة أمة يضع عمرها في حفظ الأمن ومنع الشغب ، أو رأيتها تهدم آخرها ما فعلت أولاها أو رأيتها ولا عمل لها الا أن تتقى شر المعارضين ، ودسّ الدسائين ، وحيل المحتالين ، وتصرف أكثر وقتها في دفع شرهم ، ونقض حيلهم ، ورد كيدهم ، والجزء القليل الباقي في تسيير الآلة الحكومية حسب المعتاد وكما جرى عليه العرف ، أو رأيتها تتعثر في البناء ، فتبني حجراً يوماً وتنتظر بعده عاماً لتضيف عليه حجراً ثانياً ، أو رأيتها تبني نفسها ، وتهدم شعبها ، أو رأيتها تبني طبقة الأغنياء ، وتهدم طبقة الفقراء ، وتأخذ بناصر أصحاب رءوس الأموال ، ولا تعير التفاتة إلى الفلاحين والعمال .

إذا رأيت كل ذلك ، أو شيئاً من ذلك ، أو ما يشبه ذلك ، فاحكم أنها هي وأمثالها من الحكومات حكومة غير صالحة ولا تستحق البقاء .

شهر فبراير

من أحسن ما قرأت أن ناقدًا انجليزيًا كان ينقد كتابًا ، فقال : « إنه كشهر فبراير ! » ، يعنى أنك تقرأ فيه فصولا هادئة رزينة فتظن الكتاب كله على هذا المنوال ، ثم إذا بك فجأة ترى فصلا ثائراً هائجاً ينقم على كل شيء ، ويريد أن يكتسح كل شيء ! — وترى فيه فصلا دافئاً هادئاً ، ثم تنتقل منه بغتة إلى فصل بارد قارس في غير نظام ولا ترتيب !

وليس هذا الوصف مقصوراً على بعض الكتب ، فهناك رجال كشهر فبراير ... ترى الرجل وديعاً ، لطيفاً ، أنيساً ، ثم تراه لأتفه الأسباب هائجاً مأججاً ، يقذف بالكلمات يصيب بها كل من حوله من غير مناسبة ، ويتصرف تصرفات تستوجب السخرية والاستهزاء ، وقد يكون مثل هذا الرجل سياسياً خطيراً ، أو وزيراً كبيراً ، في عنقه مصير أمة ، وفي لسانه مآل شعب ، ومع ذلك هو مصاب بمرض فبراير ، أو كما نسميه نحن أمشير ، يأتي بالبديع من التصرفات ، ثم يأتي بالغريب من السخافات

وترى بعض النساء قد أصيبت بالأمشيرية ، فلا ضابط لها . راضية ساخطة ، ضاحكة باكية ، قانعة شاكية ، ممعنة في الحب وفي الكره ؛ لا يمكنك أن تتنبأ لها بنوع تصرف ، فقد يحدث الشيء مرة فتسر له أعظم السرور ، ثم يحدث هذا الشيء نفسه مرة أخرى فتغضب منه أشد الغضب

وكان الأوروبيين لقوا من تصرفات « فبراير » العناء الشديد ، وسوء التصرف الخنزى ، فقصروا أمدّه ، وجعلوه دون الشهور كلها عدداً ، ثمانية وعشرون في الأغلب ، أو تسعة وعشرون في الأقل ، حتى يتخلصوا منه سريعاً ، وليست

الطبيعة تعترف بشيء من هذا ، ولكن الإنسان أراد أن يخدع نفسه — ولو بالكذب — فقصر مدته ليستعجل مقابلة مارس « شهر الربيع » . واغتنب الموظفون بهذا التقصير غاية الغبطة ، إذ جعلهم يقبضون مرتباتهم سريعاً ، وتمنوا أن تكون كل الشهور فبراير ، ولو كان أرعن مجنوناً ، فليس يعنى الموظف حر ولا برد ، ولا هدوء ولا عواصف ، وإنما يعنيه « يوم القبض » ، وبذلك فخر فبراير على سائر الشهور إذ قال إن الموظفين — فى العالم كله — فى صفه ، والناس كلهم عالة على الموظفين !

ولولا فبراير ما كان مارس ، ولولا فبراير ما كان الربيع ، ولكن الناس ألفوا أن يقوموا المظاهر ولا يقوموا الحقائق ، فأعجبهم مارس بمظهره وجمال زهوره ، وجحدوا فبراير فى تكوينه الأصل ، وسبقه بالفضل ...

إن مثل فبراير — فى تكوينه الربيع — مثل الرجل المخلص يعمل فى غير إعلان ، ويؤدى واجبه من غير مظاهره ، ومثل الرجل يخشن مظهره ويحمل مخبره ، ومثل الأب يقسو أحياناً على أبنائه لمنفعتهم ... ولكن بخس الناس حقوق فبراير لأنهم لم يروا منه إلا رعونته وتقلبه ، فأما إنتاجه الخفى ، وأما فضله العيم ، وأما أنه صاحب الفضل الأكبر على الربيع ، فقد تجاهلوه كله من أجل زوبعة صدرت عنه — شأنهم فى ذلك شأنهم فى جميع شئون الحياة ، يقدرون الرجل حسن المنظر ، ولو لم يصدر منه عمل خير ، ويكرهون الرجل العبوس ولو كان رجل حق ، ويفضلون الطبل والزمر على المنفعة الحقيقية تعمل فى خفاء ، ويحتفلون بالشهرين يغلفان فبراير ولا يحتفلون بفبراير ... فيناير طبل وزمر لأنه فى زعمهم رأس السنة ، ومعقد الرجاء ، ومارس مظهر الربيع ، أما فبراير فموضع السخط ، وتشبيه بالرعونة ورمى بالجنون .

على أنى أحب فى فبراير تقلبه من دفء إلى برودة ، ومن هدوء إلى زوابع ،
فليس أحب إلى الإنسان من التنقل والتقلب ، وليس يعجبني الدفء الدائم ،
ولا البرد الدائم ، كما لا تعجبني المرأة الضاحكة أبدا ، ولا الشاكية أبدا ، والدنيا
لا تدرك حقائقها إلا بنقائضها ، فلو لا الحر ما فهم البرد ، ولو لا العمى ما فهم البصر ،
وتغير الأحوال أدعى إلى التجدد والنشاط ، ولكن ما أظلم الإنسان !

الوجهة والوجهاء

يقول « أتلى » أو « ستالين » أو « ترومان » أو « تشرشل » كلمة ، فتهتز لها أسلاك البرق في العالم ، وتتحرك أمواج الأثير ، وتمتلئ الصحف بالتعليق عليها وتقرظها أو تنقدها .

لم كل هذا ؟

قد تظن أن كلامهم يفوق كل كلام ، ومعانيهم تنزل عليهم من السماء ، وأنها تدمع الماضي ، أو تضيء المستقبل ، أو شيئا من ذلك .

كلا . فقد ينطق رجل الشارع بكلمة خير من كلمتهم ، وجملة أحكم من جملتهم ، فلا يعيرها الناس التفاتا ، وقد يهزأون بها ويتنادرون عليها .

والسبب الحقيقي أن هؤلاء الذين ذكرنا وجهاء ، ووجهاتهم هي التي أضفت الواجهة على كلامهم ، وأحلتها هذه المنزلة الرفيعة بين بني جنسهم .

السلطان محمود الثاني لبس الطربوش فلبسه كل رجال الدولة العثمانية ، لأن السلطان وجيه يجب أن يقلد . ولو لبسه صعلوك أول الأمر لاتخذته الناس سخرية ، فما هذا الغطاء السخيف الذي لا يظلل العين . ولا ينفّس عن الرأس ؟ وما هذا الزر الأسود الذي لا فائدة منه إلا أن يداعبه الهواء .

ويحكون أن ثنية البنطلون ، سببها أن لوردا انجليزيا سافر إلى أمريكا ، وكان مدعوا إلى حفلة عاجلة ، ولم يكن متاعه قد وصل بعد ، فاشتري بذلة على عجل ، ولبسها على عجل ، وكان البنطلون مثنيا مصادفة ، فأصبح تقليدا ، ولو فعل ذلك غير « لورد » لكان موضع التقرير والنقد .

وإنما هي الواجهة متعك الله بها .

والمرأة الجميلة تنطق بالكلمة الفارغة فتكون حكمة . وتربط رأسها رباطاً

ليس بالجميل — فى نظر الفن — فىكون بدعة العصر . ومهما فعلت غير الجميلة فلن يقبل منها ، ولا سبب إلا « الوجاهة » :

الدنيا مملوءة بالوجاهة ، وأنواعها كثيرة أعد لك بعضها وأترك لك التفكير فى باقىها .

فهناك وجاهة القوة ، كالتي تظهر فى ضخامة الجسم ، والطول والعرض ، ولباس رجال الجيش ورجال البوليس ، وما ركب على مناكبهم من نجوم وتيجان . فهذه وجاهة .

وهناك وجاهة الغنى . وما يتبعه من قصور ضخمة ، وسيارات فخمة ، والتحدث عن الدخل والخرج ، والفرق فى النعيم ، ومظاهر الترف ، والموائد الأنيقة والحفلات الصاخبة ، وما إلى ذلك مما أنت أعلم به وأدرى .

وهناك وجاهة المولد والأسرة ، فهذا أبوه باشا وجده باشا ، وهذا من أكبر أسرة فى الصعيد أو فى مديرية المنوفية ، وهذا كان جده من القواد فى عهد محمد على ، وهذا من أسرة تركية عريقة فى الجدد ، فيحق له أن ينتفخ ويفتخر ، ويتكلم من طرف لسانه ، ويتعاضم على كل من دونه ، لما رزقه الله من وجاهة النسب .

وهناك وجاهة العقليين ، كوجاهة الجامعيين ورجال العلم والأدب والفن ، وفخرهم بما يملكون من هذه الوسائل ، واحترام الناس لهم لذلك .

وقد يتصل بهذا وجاهة الجمال ، فالجمال يعد موهبة كموهبة العقل والفن . وقد يقدرها بعض الأوساط أكثر مما يقدرون أى موهبة أخرى .

ومن أطف الوجاهات وجاهة السن ، فالرجل — أو المرأة — إذا تقدمت به السن — أضفت عليه سنه وجاهة يُحترم بها ويوقر ، ويخلى له المكان فى الترام والمجالس ، ويصغى إلى قوله إذا تحدث ولو بالكلام الفارغ ، وتسند إليه رئاسة المجلس عند غياب الرئيس استناداً إلى مادة القانون : إذا تغيب الرئيس رأس الجلسة أكرام الأعضاء سناً ... فهذه وجاهة .

وكذلك وجاهة رجال الدين ، فرجل الدين مقدم في المحافل ، معتز به عند الأحزاب ، مسموع الكلمة في فض المنازعات ؛ موثوق به فيما يقول ويفعل ... وهذه وجاهة .

وأخيراً وجاهة العدد ، فلما تم أو العرس وجيه بكثرة عدد من يحضره . والمظاهرة عظيمة إذا كثر عدد المشتركين فيها . والحزب عظيم إذا كثر عدد من ينضمون إليه بقطع النظر عن قيمتهم . والمطلب خطير إذا كثر عدد المطالبين به ، وهكذا .

والجماعات تختلف في تقويم الوجاهات حسب رقيها وانحطاطها ؛ ففي الجماعات البدائية تقوّم كبر السن تقويماً أكثر مما يستحق ، فتسند الرياسة إلى ذى السن الكبيرة ولو كان مخرفاً ، وتفضله على الشاب ولو كان هذا الشاب قوياً عاقلاً حكيماً . وفي الجماعة المغفلة تحترم الغنى ولو لم تنل خيراً من غناه ، وتمنحه من الإعزاز والتكريم بقدر ما سُجل أمام اسمه من عقارات أو أطيان ، وتهزأ بمن لا يملك شيئاً ولو كان نافعا .

والناس — على العموم — يصيبون في تقدير الوجاهة قليلاً ، ويُخدعون بها كثيراً . فمن العقول في تصرفهم أن يلجأوا إلى الإخصائي في طب أو علم ليستشيروه فيما يمهرون فيه ، ويحترموا كلمته ووجاهته في علمه أو فنه . ومن العقول أن يحترموا المسن فيجلسوه ويقف الشاب ، ومن العقول أن يتعشقوا الجمال ويحلوه إلى حد ما . ولكن ليس من العقول أن يخلط الناس في الوجاهة ، فيظنوا أن ضخّم الجسم يصلح أن يكون مديراً « لضخامته » ، وأن قائد الجيش يصلح أن يكون رئيس حكومة ، وأن الغنى له من جودة الرأي ما يعادل غناه ، وأن ملكة الجمال ملكة الآراء والأفكار ، وأن رجل الدين تسمع كلمته في السياسة كما تسمع في الدين ، وأن العالم العظيم يصلح أن يسند إليه عمل إداري كبير .

كل هذا خلط في الوجاهة ، والرأي العام الناضج من يحترم الوجاهة في دائرتها ، وفي دائرتها فقط .

أثم الزعماء !

أثم الزعماء :

أولا — بضيق الصدر وضيق الأفق ، فكل زعيم في الشرق يرى أن بلاده لا تحتل إلا زعيما واحدا هو شخصه ، وأما من عداه فلا يصح إلا أن يكونوا أتباعا له ، مع أن البلاد تحتل عشرة زعماء وعشرين زعيما . وفي مصلحتها ذلك متى استطاعوا أن يتفاهموا ويصغوا للرأى المخالف ويستفيدوا مما فيه من حق . وكل قطر من أقطار الدنيا فيه زعماء متعددون ، كالحقل الصالح فيه عيدان تبرز غيرها وتسمو على ما حولها ، وكالبستان الجديد فيه أشجار علت نظائرها ، وحلت محل الزعامة منها .

والأمة الناضجة في السياسة تسمح لهؤلاء الزعماء أن يكثرُوا ويتجادلوا ويختلفوا في الرأى ، ولكنهم لا يترامون بالخيانة ، ولا يترشقون بالثهم . . أما نحن فيعتقد كل زعيم أنه الزعيم وحده ، والأمين وحده ، والحفيظ على حقوق البلاد وحده ، ومن عداه خائن ، ضعيف الفكر ، مضيع لمصالح البلاد ، وعلى هذا الأساس كانت الخصومة العنيفة والتراعى بالخيانة ، واجتهاد كل في إعاقة سير الآخر ، ووضع العقبات في سبيله ، وتنحيته عن الحكم إن كان حاكما ، والحد من نشاطه إن كان خارج الحكم ، وهكذا . .

ثم إن الزعماء يختلفون — بالطبيعة — في المزاج وفي العقلية ككل الناس . هذا حاد المزاج سريع الغضب ، يعالج الأمور في غير هودة . وهذا رزين ساكن مطمئن يحل مشاكله في تودة وطمأنينة . ثم هذا يريد أن يكسب الأنصار والأتباع

ببعض التسامح في القيم الأخلاقية ، فيتبجح بعض الشيء في قبول الرجاء والانحراف أحيانا عن العدالة الحازمة . وهذا حنبلي لا يتسامح في حق ، ولا يستمع لرجاء . والنفوس الواسعة تقدر اختلاف الأمزجة وتتسامح فيها ، وتقدر صاحبها ، وتلتمس المعاذير للمخالف ، لأن تصرفه نتيجة بيئته وتكوينه وطبيعته ومزاجه . ولكن زعماءنا لا يرون هذا الرأي ، فالصامت يعيب المتكلم بكثرة الكلام ، والمتكلم يعيب الصامت بالإمعان في الصمت ، كأنهم يريدون الزعماء كتباً مطبوعة في مطبعة واحدة على غرار واحد هو غرار كل منهم . وذلك مستحيل ، فكما يختلف الناس في وجوههم وخلقتهم اختلفوا في عقليتهم ومزاجهم ، ولم يشذ عن ذلك الزعماء . فلماذا نطلب منهم أن يكونوا على نمط واحد ؟ ولماذا يكون النمط الواحد هو نمط كل منهم ؟

وأثرهم الزعماء :

ثانياً — يافساد الشباب ، وتخريب الجامعات والمدارس ، وهدم التعليم . . . ذلك أنى أفهم أن تكون سياسة الزعماء جميعاً بث الروح القومية في الشباب ، ولكنى لأفهم بث الروح الحزبية فيهم . لست أفهم طلبة الجامعة يعملون لإسقاط وزارة وإقامة وزارة ، ولكنى أفهمهم يطالبون بالجلاء . ولست أفهمهم يهتفون بحياة الزعيم فلان وسقوط الزعيم فلان ، ولكنى أفهمهم يهتفون بحياة مصر .

فما الذي فعل الزعماء ؟ كان في إمكانهم — بل واجبه — أن يجتمع كل حزب ويبين مبادئه وآراءه في المشاكل العارضة ، بل أكثر من ذلك يبينون سوء السياسة المخالفة وأضرارها ، من غير اتهام بالخيانة . وكان في إمكانهم أن يتجادلوا في البرلمان ما شاءوا وأن يخطبوا في الرأي العام ما شاءوا ولكنهم رأوا ذلك كله ليس كافياً ، فخرضوا الطلبة على الإضراب ، وعلى التخريب ، وعلى

الإيذاء والاعتداء . واكتفوا بذلك ، وتستروا وراءه ، من غير عمل ، فحل الطلبة محل الزعماء ، وحل الزعماء محل الطلبة . وضى الطلبة ، ولم يضح الزعماء ، وانقلبت الأوضاع ، فأصبح البرلمان لا يسقط وزارة ، وأصبح الطلبة هم الذين يأخذون على عاتقهم إسقاط الوزارة . ولا يكون للزعماء عمل إذا سامح الطلبة أو أغلقت الجامعات والمدارس . فإذا فتحت فعمل الزعماء ليس إلا تدبير الخطة للإضراب .

تسألنى : وماذا يكون الأمر لو كف الطلبة عن نصرة الأحزاب ، وسارت الأمور من غير جهاد ، ومن غير مطالبة بإصلاح واستقلال ؟

فأقول : إن هناك فرقاً كبيراً بين العمل الحزبى والعمل القومى ، فالعمل الحزبى هو العمل لنصرة حزب على حزب وتولييه الحكم ، وهذا ما يجب أن يكف الطلبة عنه . والعمل القومى هو العمل لخدمة مصر كلها ، وهذا واجب كل فرد ، وفيهم الطلبة ، وفى مقدمتهم الزعماء . فليرسم الزعماء لذلك خططهم القومية ، ويدعوا إليها الجمهور ، وليتقدم الزعماء الصفوف ، والناس من ورائهم ، فهذا هو العمل الناجح ، والمنطق الصحيح . أما أن يكون الزعماء من وراء الستار ، وينصبوا الشباك للعب بالشبان ، فحرام أى حرام ، وجبن أى جبن !

وانتهم الزعماء :

ثالثاً — بأنهم تحولوا من زعماء إلى تجار ، وفرق كبير بين زعيم وتاجر . الزعيم مؤمن بفكرة ، وقائد يدعو الجمهور للايمان بالفكرة ، فهو متقدم والشعب وراءه . والتاجر تابع لذوق الجمهور ورغبته ، يتجه حسب ميله وهواه ، لا حسب ما يرى هو المصلحة . فإذا رأيت زعيماً يقول للناس ما يعجبهم لا ما يؤمن

به هو ، فتاجر لا زعيم . والزعيم يعمل لعقيدته لا لمنفعته ، ولو استوجب ذلك
تضحية نفسه أو ماله . والتاجر يعمل للربح لا للتضحية ، وإلا كان تاجراً فاشلاً .
فإن رأيت زعيماً يعمل لتولى الحكم ، فهو تاجر . وإن رأيتَه يعمل لتصفيق الجماهير
وتوظيف المحاسيب ، فهو تاجر . وإن رأيتَه يعمل عمل أصحاب الدكاكين ،
فمروج لبضاعته بالحق وبالباطل ، ويطعن في بضاعة غيره بالحق وبالباطل ،
فهو تاجر لا زعيم .

ما أحوج الشرق إلى زعماء من صنف جديد ! . . .

المغفلون

في كل جمعية — مهما ارتقت — نسبة مئوية من المغفلين ، تختلف باختلاف الأم في التربية والثقافة والاستعداد الطبيعي ، ولكنها نسبة عالية على كل حال وفي كل أمة .

وتلعب هذه الغفلة في حياة الأفراد والشعوب أدوارا خطيرة وكثيرة ومتنوعة . انظر ما تفعله الغفلة في باب الحب ، فقد يكون المغفل الرجل ، وقد يكون المرأة ، وقد يكونان معا . هذا رجل ينظم قصائد المديح في المرأة ويتغزل في جمالها وأخلاقها ويذوب وجدا في حبها ، ويشكو الضنى من هجرها وصدها ، فتصدق المرأة كل ذلك ثم تتكشف المسألة عن غفلة منها مطبقة . وهذه امرأة تتظاهر بالحب والهيام وتصور أجمل الصور للسعادة في الزواج ، حتى إذا تمت حيلتها انقلب البيت كله جحима ، وإذا الأمر كله لم يعد أن يكون خداعا من المرأة وغفلة من الرجل . وم في الحب من صنوف وألوان ومآس ، كلها مضرب المثل في الغفلة ، وم للرجال من ألعيب على النساء ، وللنساء من ألعيب على الرجال ، كلها تصوير للغفلة تكفل بالحديث عنها كتاب « ألف ليلة وليلة » في القديم ، وآلاف القصص في الحديث وفي المعاملات المالية من بيع وشراء ، وإيجار ورهن ، وما إلى ذلك ضروب لا عداد لها من الخداع من جانب والغفلة من جانب ، حتى إن كثيرا من ثراء الأثرياء منشؤه الخداع ، وكثيرا من فقر الفقراء منشؤه الغفلة .

ومن أكبر مظاهر الغفلة في الأمم انتشار الخرافات والأوهام ، فالفقير المسكين ينذر الندور ينتفع بها الأغنياء المترفون من مشايخ الأضرحة ، ضرب من الغفلة . والمرضى يسلم نفسه للدجالين ضرب من الغفلة ، والاستسلام لقاتحي البخت وقراء

العزائم والمنجمين ومحضرى الأرواح وأمثال هؤلاء ، ضرب من الغفلة .
 إن هؤلاء المغفلين فى كل أمة مرتع خصيب للمشعوذين من رجال الدين ،
 والدجالين من السياسيين ، والنصايين من رجال المال ، والمهرجين من أرباب
 الأعمال ، يستخدمونهم لمنفعتهم ، ويستغلونهم لمصلحتهم ، ويستنزفون أموالهم
 لشهواتهم ، ويضحكون على عقولهم كما يضحك « الحاوى » الماهر على جمهرة
 المتفرجين .

وكما كثر المغفلون فى أمة كان الناجحون فيها هم المشعوذين فى الدين
 لا المصلحين ، والسياسيين المهرجين لا السياسيين المعقولين ، ورجال المال والأعمال
 المهوشين لا الصادقين ، وعاش الخلقون الجادون فى عناء ، وعاش المزيفون الهازلون
 فى رخاء ، ذلك لأن المغفلين لا يستطيعون — لغفلتهم — أن يدركوا ما وراء
 الابتسامة من مأساة ، ولا الباطل مغلفاً بطلاء من الحق ، ولا اليد الحديدية فى
 قفاز من حرير ، وهم — لغفلتهم — يتأثرون أكبر أثر بالشئ التافه ، ولا يتأثرون
 أثراً ذا بال بغطائم الأمور ، كالرجل يثور لاستلاب قرشه ، ولا يثور لامتهان
 نفسه ، يلتفون حول الحادثة فى الشارع يتقصون الأسباب أكثر مما يفكرون فى
 إنقاذ المصاب .

ونأتى بعد ذلك إلى أهم الفصول فى رواية المغفلين ، وهو فصل : « الغفلة
 فى الحروب » ؛ فترى على المسرح حفنة من الرجال زعموا لأنفسهم كبر العقل
 وبعد النظر وصدق الوطنية ، ودفعوا أممهم إلى الحروب فسالت الدماء ، ويتمت
 الأطفال ، وخرب العمران ، وانتشر الرعب ، وهلعت القلوب ، وعم الجوع
 والبؤس والشقاء .

وكان الظن بالعقلاء أن يروا فى هول ما حدث من الحروب عبرة للمعتبر ،
 وعظة للمتعض ، وأن يدركوا أن ما يناله حتى المنتصر لا يساوى ما يخسر ، وأن

النتائج لا تساوى المقدمات ، وأن خسارة العالم كله فى النفس والأموال أضعاف
أضعاف ما ربح من حربه .

ولكن ما ظنك بقوم يرون هذه النتائج كلها ، ولا يتعظون بما حدث مرة
ومرتين وألغا ، ثم يرون أن الحرب اليوم غير الحرب أمس ، فقد أصبحت عالمية
بعد أن كانت محلية ، وصارت حرب شعوب بعد أن كانت حرب جنود ،
وأصبحت فى السماء والأرض بعد أن كانت فى الأرض ، وهددت المحترعات
الحديثة بفناء الملايين والقضاء على الحضارة ، ومع ذلك كله نرى أن لا عظة
ولا اعتبار ، ونرى بذور الحرب القادمة تبذر من اليوم ، وتغذيها الخسومات ،
وضيق النظر ، حتى لتتذمر أن تكون شجرة ملعونة ، فيندلع لهيب الحرب من
جديد ، ويحدث ما لم تر عين ، ولم تسمع أذن .

أليس هذا كله — بحق — أعظم فصل فى رواية المغفلين ؟

إننا نحكم بالغفلة على من أهمل فأحرق بيته ، فكيف لا نحكم بالغفلة على
من تعمد فأحرق العالم ؟

ونحكم بالغفلة على من لدغ من جحر مرتين ، فما ظنك بمن لدغ ألف مرة
ولا يزال يمد يده للجحر ؟

ونحكم بالغفلة على من رمى شيئاً من ماله فى البحر ، فكيف بمن رمى ماله
ومال قومه ومال العالم فى النار والبحر !

ولكن من المغفل فى الحقيقة ؟ أهم هؤلاء الزعماء الذين يقودون الشعوب
للهلاك طمعا فى مجد زائف وباسم الوطنية الكاذبة ، أم هى الشعوب المغفلة التى
تسمع لهذا النداء الهراء ، ولا تدرك خديعتهم ، ولا تكشف لعبتهم ؟ الحق أن هؤلاء
مغفلون وهؤلاء مغفلون .

وما أكثر الغفلة فى العالم وما أقل العقل ؟

وقد منحت الطبيعة أكثر الناس عقلا كعقل الطائر ولكن لم تمنحه جماله .

أخلاق جديدة في عالم جديد

لو كان الأمر أمر صدق وكذب وعدل لهان الأمر ، ولقلنا إن الفضائل ثابتة لا تتغير ، والذائل رذائل إلى الأبد ، ولكن حياة السلوك الإنساني أوسع من ذلك وأشمل ، فهناك نظام الأسرة وكيف يكون ، وعلاقة الرجل بالمرأة ، وحقوق الرجل وحقوق المرأة ، وهناك الحياة الاقتصادية وأشكالها ، وهناك حقوق المواطن وواجباته وعلاقة الفرد بالحكومة والحكومة بالفرد ، فهذه الأمور ونحوها هي السلوك وهي الأخلاق ، وهي تتغير بتغير الزمان ، فقد يكون شيء واجباً في زمان وحرماً في زمان ، وقد يكون شيء في المنزلة الأولى من الأهمية في عصر ، وفي المنزلة الأخيرة في عصر — ولو نحن صورنا الرجل الذي يعد نموذجاً أخلاقياً ومثلاً أعلى لكل عصر ، لرسمنا نماذج مختلفة للعصور المختلفة — فما أبعد الفرق بين النموذج الذي ترسمه حياة البدو في الجاهلية ، من شجاعة ، وكرم ، وحماية للجار ، وحب للانتقام ، وغارة على الأعداء ، وبين ما ترسمه الحياة اليونانية أيام حروبها ، من بطولة ، وأخلاق جنديّة يغتفر معها سائر الرذائل ، وبين النموذج الذي ترسمه المسيحية في القرون الوسطى ، من ميل إلى الزهد والورع والبعد عن الحياة الواقعية ، والهرب من المرأة — وما يرسمه الإسلام ، من إيمان بالله ، وإقامة للصلاة ، وإيتاء للزكاة ، ووفاء بالعهد ، وصبر في البأساء والضراء ، وما ترسمه المدنية الحديثة من صور مشتقة من الصناعة والاقتصاد والسياسة — كل هذه النماذج المختلفة للعصور المختلفة والبيئات المتعددة ودرجات الرقي المتباينة لو رسمت رسماً دقيقاً ، لكونت معرضاً من أهم المعارض وأجملها وأكبرها فائدة ، فكل دين ، وكل بيئة ، وكل مدرسة فلسفية ، لها نموذجها الخلقى الذي تنشده .

وتحدث في التاريخ أحداث يكون لها الشأن الكبير في قلب نظام العالم ، فتتغير تبعاً لذلك النماذج الخلقية — خذ مثلاً — هذه المدنية الحديثة ، فقد تأسست على الثورة الصناعية والاقتصادية ، فكان من نتائجها هدم النظام الاقطاعي وما يستلزم من عبودية ، ومن تحكّم الطبقة الارستقراطية في الطبقات الأخرى ، وتبع ذلك تحرر طبقات الشعب ، وشعورهم بأنهم هم القوة العظمى ، ويدهم السلطان ، فتغير لذلك النظر الأخلاقي والقيم الأخلاقية ، وأصبحت الأمور الاقتصادية والسياسية هي مهبط الوحي الأخلاقي ، لا رجال الدين ولا الطبقة الأرستقراطية ، وأصبح في المقام الأول في الأخلاق حرية الفرد وحمايته ، والأخلاق التي تستلزمها التجارة من نظام ومحافظة على الزمن ، وجد ومثابرة ، ومراعاة اللياقة ، بل إن الأعمال الخيرية كالإحسان و بناء المستشفيات وإنشاء الملاجئ أخضعت للنظر العقلي ، وروعى فيها مصلحة المجتمع ، أكثر مما روى فيها عواطف المحسنين والمتبرعين .

وكان من آثار هذه المدنية الحديثة التقدم العلمى ، وغزو العلم كل مجاهل الحياة ، واستتبع ذلك بناء الناس أحكامهم بالخير والشر على العلم ، لا على التقاليد والعرف والمأثور والتخريف ، وهذه ناحية على جانب كبير من الأهمية في السلوك . وكان مما أخضعه العلم لسلطانه سلطان الحكومة وعلاقة الحاكم بالحكوم ، فهتكت الهالة المقدسة التي كانت تحيط بالحاكم ، وارتفع صوت الشعوب بمحاسبة الحكومة على أعمالها ، وكان لهذا أثره الكبير في سلوك الأفراد والهيئات وحررياتهم .

ثم أن هذه الثورة الصناعية وما أعقبها من حرية مست المرأة مساً سحرياً ، فطالبت بالحرية التي يتمتع بها الرجل ، وكان أن الصناعة قللت من عظمة الرجل ، فإن الآلات الصناعية وما أدخلتها عليها الاختراعات الحديثة جعلتها تدار بزر كهر بآئى ، وتحتاج إلى إشراف قليل ومجهود ضعيف ، فذهب ما كان يعتز به الرجل من قوة العضلات ، واحتمل المشقات ، وأدركت المرأة أنها تستطيع أن

تنافس الرجل فيما يعمل ، فلما أتت الحرب العالمية الأولى واستخدم الرجال في الحروب خلت الآلات الصناعية للمرأة وحلت محل الرجل فشعرت بإمكان استقلالها عنه ، وشجعها ذلك على الإيمعان في المطالبة بقسط أوفر من الحرية فنالت ، ولكن هذا أثر في حياة الأسرة ، فلم تعد العلاقة محكمة بين الرجل والمرأة في الأسرة كما كانت ، وظهرت مشاكل جديدة في الأسرة وغير الأسرة ، احتاجت إلى حلول أخلاقية جديدة .

ثم قامت الحرب العالمية الثانية فهزت القيم الأخلاقية هزاً عنيفاً ، وأحدثت ثورة فكرية جامحة ، على السياسة وعلى الاقتصاد وعلى النظم الاجتماعية — وكان من أثرها قوة الشعوب وضعف الحكومات ، ومطالبة الجماهير بحكوماتهم بإصلاح حالهم ، وقبول العالم بمشاكل لا عداد لها ، فملايين الجنود الذين كانوا يعيشون عيشة مترفة إلى حد ما ، لم يعودوا يرضون أن يعيشوا العيشة القاسية التي كانوا يعيشونها من قبل الحرب في المناجم والصناعات ما لم تتحسن حالتهم .

والنظم الاقتصادية التي كانت ملائمة للأمم إلى حد ما ، لم تعد ملائمة لها بعد أن اختل التوازن ، وتغير مركز الثروات ، وانهارت الحالة الاقتصادية للمهزومين ، واضطربت في المنتصرين .

والمرأة خالطت الرجل في ميادين القتال ، واشتغلت في مصانع الذخيرة ، وسدت مسده في الأعمال المدنية بجانب الأعمال الحربية ، فتقلت عليها بعد الحرب معيشة الأسرة ، وطالبت بأن تكافأ بنصيب أكبر من الحرية جزاء ما قدمت ، وشعرت أكثر من قبل بأنه يمكنها الاستقلال في الحياة .

وكل هذه أمور سيكون لها — من غير شك — أثر في تغيير الأخلاق والسلوك . ولكن هل تتمخض زلزلة النظم الاجتماعية والاقتصادية ، عن أسس جديدة تغير وجه الأخلاق في المستقبل ؟

يرى المتفائلون أن عالماً خيراً سيولد ، فتتغير النظرة الوطنية القومية فيه إلى نظرة إنسانية عالمية ، ويشعر معها الفرد والحكومات بالعلاقة بالكل ، والتعاون مع الكل ، وستوجه الأعمال نحو أداء الواجب للجميع لإسعاد الجميع — وسيدخل عامل روحى جديد بجانب العوامل المادية والاقتصادية القديمة ، ولكن يجب قبل ذلك أن يعدّل رجال الدين موقفهم ، فلا يكون موقفاً سلبياً محضاً بمحاربتهم الرذائل ، بل بالدعوة إلى أداء الواجب الإنسانى ، ولا يكون بالخط من قيمة الإنسان إذا ارتكب رذيلة ، بل بتقويمه بروحه وقلبه ، وجملة بواعثه وجملة أعماله ، ولا يمعنون فى تمجيد الحياة السلبية من عزلة ومحاسبة نفس وطول تأمل ، بل يمجّدون الأعمال الإيجابية التى تؤثر فى نفع الناس .

وسيتقدم العالم فى تقويم العقل والإصغاء إليه بجانب الإصغاء للقلب ، فيقلل الناس من قيمة العصبية السخيفة والتحيز التافه ، ويتجردون ما أمكن من الخرافات والأوهام ، ويقدرّون الخير حيث كان ومن كان ، ويمجّدون الشر حيث كان ومن كان .

أما أنا فلم أر علامات هذا الوضع ، فإن كان صحيحاً احتاجت رؤيتها إلى مكروسكوب مكبر جداً ، أما الذى يظهر بالعين المجردة وبالمكروسكوب العادى ، فاستمرار العالم القديم فى سيره ، ستبقى النزعات القومية والمنافسات الاقتصادية ، وستكون المرأة أكثر حرية ، ولكن سيكون العالم بحريتها أشد تعقيداً وأكثر مشاكل .

فن النفاق

النفاق فن كفن الموسيقى ، والتصوير ، والتمثيل ، وما إلى ذلك .
ويقوم به كل إنسان مهما علا شأنه وعظمت مكانته ، فكل إنسان منافق
إلى حد ما .

ذلك أن النفاق قناع يغطي الإنسان به وجه الحقيقة بشكل من الأشكال ،
وليس هناك إنسان يحيا حياته كلها على الحقيقة ، بل لا بد له أن يغطيها في بعض
المواقف ، كثرث أو قلت ، وهذا هو النفاق .

حياتنا كلها لا تخلو من نفاق في ملبسنا وماأكلنا ومقابلاتنا وأحاديثنا ، خذ
— مثلا — ما نلبس فما هذه الأزرار في كم « البذلة » ؛ ألسنت تدعى أنها عروة
تزرر ، وليست كذلك ؟ وثنية رجل « البنطلون » أليس معناها أن البنطلون
طويل وقد ثنيته ، وليس كذلك ؟ وزر الطربوش ما معناه ؟ ورباط الرقبة في
الصيف ما فائدته ؟ كل هذه ضروب من النفاق ، نفعلها لا للحقيقة ، ولكن
للعرف والتقاليد ، وبعبارة أخرى لإرضاء الناس ورضائهم عنا ولو خالف الحقيقة ،
وهذا هو النفاق .

وأثاث بيتنا ليس يعبر كله عن الحقيقة ، ولا كله للفائدة ، ولكنه نفاق ،
فالزهريات لا تحمل أزهارا أو « دولاب الفضية » ليس فيه فضة ، ولا المعدن الذي
فيه مما يستعمل في الحياة اليومية ، وأحيانا أيضا ليس القصد منه الزينة ، ولكن
الغرض منه الفخفخة الكاذبة ، وهذا نفاق .

وكم من الناس أقابلهم وأبسم في وجوههم ، ولكن لو التزمت الحقيقة
لصفعتهم ، وكم من الناس أشكرهم وليسوا يستحقون شكرا ، وأجاملهم وليسوا
أهلا للمجاملة .

وكم أخطب في المجتمعات فأبدأ بسيداتي وسادتي . . . ولست أقر لأحد بالسيادة
على إلا لله ، ولكنه نفاق ، وأقول شرفتموني بحضوركم ولا أومن بذلك ، وأقول
لولا ضيق الوقت لأفضت في الحديث وليس كذلك ، وأحذف الحقيقة ينفر منها
الناس وكان ينبغي أن تقال ، وأذكر غير الحقيقة إرضاء للناس وكان ينبغي ألا يقال .
وكم تقول للخطيب الذي لم يحسن أحسنت ، ولمغنى المصدع أجدت ،
وللسيدة تلبس فستانا لا يعجبك ما أجمله ، وتحدث بحديث سخيف ما أبدعه ،
وكله نفاق في نفاق .

والرجل إذا أترى لم يسمع من الناس إلا إعجابا بما يقول وما يفعل ، حتى
ليكون أجمل مخلوق وإن كان قبيحا ، وأعقل مخلوق وإن كان سخيلا ، ورئيس
المصلحة لا يسمع إلا تقريرا لتصرفاته مهما سمجت ، ومديحا فائقا لأعماله مهما قبحت ،
وهكذا وهكذا إذا دقت النظر رأيت الدنيا كلها مملوءة بالنفاق أشكالا وألوانا .

ونسيت أن أذكر السياسة وأفانينها في النفاق ، فالحتل يمتص دماء الأمة
المحتلة ويزعم أنه يعمل خيرا ، ويصفعها ويدعى أنه يقبلها ، وكل أمة تعلن
الحرب تزعم أنها تدافع عن نفسها ، وأن غيرها هو الذي يتحمل المسؤوليات ،
والحكومات تخنق الحريات ، وتزعم أنها تحافظ على النظام ، ونحو ذلك مما يطول
شرحه ، وكله نفاق .

* * *

وفن النفاق هذا كسائر الفنون ، أحيانا يتقنه صاحبه ويمهر فيه ، فيخرج
مسبوكا محبوبا منسجا يعجب الناظرين ، ويلذ السامعين ، وأحيانا لا يتقنه صاحبه

فيخرج سمجاً بغيضاً ينفر السامعين والناظرين ، كالموسيقى أحياناً يخرج قطعة فنية رائعة ، وأحياناً يخرج قطعة صارخة مصدعة .

وتحتاج المهارة في فن النفاق إلى لباقة ، وخفة روح ، ومعرفة المنافق لنفسية من ينافق لهم معرفة فنية دقيقة .

وليست كل أنواع النفاق بمنزلة واحدة من الضرر ، بل هناك نوع لا بد منه في الحياة الاجتماعية ، وإلا كانت جحيماً ، هذا النوع هو ما نسميه أحياناً « آداب اللياقة » ، أو « الظرف » ، أو نحو ذلك من الأسماء ، فإذا يضرني أن يلقاني الناس بالابتسام ولو خالف ضمائرهم ؟ وماذا يضر الزوج إذا توددت إليه زوجته ، أو تودد هو إليها بشيء من الجمالة ؟ إن النفاق في هذه الأحوال وكثير أمثالها ، لا بد منه لتيسير الحياة الاجتماعية في سهولة ويسر ، كالزيت للسيارة ، ثم يتدرج النفاق في السوء بمقدار ما يصيب المجتمع من الضرر ، فإذا قابل الموظف رئيسه في أدب وظرف وابتسام ، فهذا واجب ، فإذا هو مدحه أحياناً وبالمناسبة بما فيه من محامد فلا بأس ، فإذا هو مدحه بالحق وبالباطل ، وأشعره بأنه منزّه عن كل خطأ ، وبأن أعماله التي تصدر عنه هي المثل الأعلى للأعمال ، فهذا شريـحـب أن يجتنـب ، لأنه يفسد الرئيس ويفسد عمله ، فإذا هو اتخذ من هذا المديح وسيلة للإيقاع بإخوانه من الموظفين ، فهذا نفاق أسوأ ، وجريمة لا تغتفر ، وهكذا لكل نفاق وزنه ، ولكل نفاق حكمه ، ولكل نفاق مقياسه ، ومقياسه ما ينتج عنه من ضرر .

يوميات مصرى فى لندن

لى صديق يقيم فى لندن ، كتب إلىّ يقول : إنه اعتزم أن يدون له يوميات ، تشبها بالعظماء وإن لم يكن عظيما ، وأنه ليس حريصا على أن يكتب كل يوم ، وإنما يكتب فى اليوم الذى يستفيد فيه تجربة ، أو تخطر له خاطرة يعتقد أنها قيمة ، وأنه إنما حملها على ذلك أن وقعت فى يده كتابات له قديمة ، فوجدها عزيزة عليه ، تمثل نفسه أيام كتابتها ، فلو داوم على ذلك لكان له منها تاريخ كامل لنفسه . وسبب آخر وهو أنه عند ما جاء لندن لفتت نظره أشياء كثيرة جديدة عليه لو كتبها فى حين جدتها لكان لها قيمة كبيرة ، ولكنه كلما طال به الزمن ألفها وعدها عادية ، ولم تعد تستلفت نظره ، فألقى على نفسه أن يدون ما يثير عجبه أو إعجابه أو نفوره أو تفكيره ، وأرسل إلىّ نماذج منها يسألنى رأى فيها فأحببت أن أشرك فيها القراء ، وهذا بعضها :

« ١٦ يناير سنة ١٩٤٧ .

« اشتد البرد ، وتحدث الناس بأنه لم يكن له نظير منذ خمسين عاما ، وتساقط الثلح حتى غطى البيوت والشوارع والأشجار ، فكان المنظر جميلا جدا ، ولكن يصرفنى عن تذوق جماله — كما ينبغى — اصطكاك أسنانى ، ورعدة بدنى ، والشعور بالجمال لا يتم حتى يأخذ الجسم حظه من ضرورات الحياة وتأخذ النفس حظها من الطمأنينة وراحة البال ، وهل لمن عضه الجوع أن يتغزل فى زهرة ، أو من برح به الخوف أن يدرك سحر العيون !

« وعلى الرغم من شدة البرد ، ورعدة البدن ، أحسست نشاطا وميلا إلى الحركة ، فخرجت إلى الشارع أمشى مسرعا ، فنشطت الدورة الدموية ، وأحسست

الدفء — ومن أعجب ما رأيت رجال لبسوا معاطفهم ، ولبسوا فوقها فرو نساءهم ،
فإذا حدثهم قالوا : نحن قوم عمليون ، فما دمننا نبرد فلنتق البرد بما يدفعه على أى
شكل كان ؛ وبأى ملبس نستطيع ، ونحن فى بلاد الحرية نلبس ما نشاء ، ونأكل
ما نشاء ، ولينتقد من ينتقد ما دام عملنا لا يؤذى أحدا .

» ١٩ يناير

» قرأت فى صبيحة اليوم خبراً فى الجريدة استوقف نظرى : ذلك أن امرأة
اتهمت بقتل زوجها وهو فى الحمام بآلة حادة من خلف رأسه قضت عليه .
« وكان من أسئلة المحقق لها : متى بلغت البوليس أن زوجك قد قتل ؟ قالت :
بعد ساعة من معرفتى الخبر .

قال لها : ألم يكن من واجبك أن تبغى البوليس حالا فلعل الإسعاف ينقذه .
قالت : كيف تريدنى أن أخرج بفستان البيت وبدون «تواليت» فى وجهى
وبغير تسريح لشعرى ؟ !

فسكت القاضى وقد أخذه العجب ، وسكت أنا أيضا ولم أتم قراءة القصة .

» ١٤ فبراير

» اشتدت أزمة الفحم ، وصعب وصوله إلى لندن لسوء المواصلات ، وإعاقة
العواصف والثلوج حركة القطارات والسفن التى تمتد لندن بالفحم ، فحُرمت
الحكومة على الشعب أن يستعمل التيار الكهربائى فى الإضاءة أو الطبخ أو نحو
ذلك من ٩ صباحا إلى ١٢ ظهرا ، توفيراً للفحم الذى يولد الكهرباء ، واستخدامه
فى أغراض أهم .

« وشعرت سيدة في بيتنا بالبرد الشديد وحاجتها إلى فنجان من الشاي ،
وكان مطبخنا لا يستعمل فيه إلا الكهرباء فهمت إلى المطبخ لعمل الشاي في الساعة
العاشرة ، وقالت إنه لا يستهلك من التيار إلا شيئاً تافهاً لا يعتد به . .
« وصادف في البيت « جارة عجوز » بلغت الثمانين ، ففضبت واحمر وجهها ،
وتطايير من عينها الشرر ، وصرخت في وجهها : ألم يبلغك ما قالته لنا الحكومة ؟
إن كان لابد من الشاي فعندي في بيتي وابور غاز أعمل عليه الشاي وخرجت
تتوكأ على عصاها وتجر رجلها ثم عادت بالشاي بعد قليل ! »

« ١٧ فبراير »

« خرجت اليوم لعمل هام ، وكنت على موعد ، وقد قرب الوقت وأنا أقتصد
دائماً في ركوب السيارات الخاصة ، فلمحت من بُعد سيارة عامة ، حتى إذا قاربت
الوقوف قفزت إليها وسألت : هل هي ذاهبة إلى مكان كذا ؟ فقيل لي : نعم . .
ولكن لم أضع قدمي حتى صاحت في وجهي سيدة تقول : لقد تجاوزت حدك ،
واعتديت على الناس قبلك ، وكان يجب أن تقف في « الطابور » حتى يأتي
دورك . . فنجلت منها ، وخجلت من نفسي ونزلت ، وسهل علي أن أغرم أجرة
سيارة خاصة لأصل في الموعد المحدد . . ! »

« ٢٠ فبراير »

« ذهبت إلى طيب بعد أن حدد لي موعداً ، ودخلت حجرة الانتظار
فرأيت على المدفأة منظراً جميلاً ، حوضاً من البلور فيه شعاب حجرية بحرية ،
وأسماء صغيرة لطيفة تسبح فيه . . وكان كل شيء في الحجرة فنياً جميلاً ، ورأيت
فتاة في نحو الرابعة عشرة من عمرها تنتظر الدكتور مثلي ، فتبادلنا الحديث فسألتنى
عن جنسيتي فقلت احزري ، قالت : هندی ، قلت : لا ، قالت : صيني قلت :

لا ، قالت : فماذا إذن ؟ قلت : مصرى ، ثم سألتها : هل تعرفين شيئا عن مصر ؟
قالت : أعرف أن فيها الأهرام ، وقد حدثنا مدرسنا في المدرسة أن أهلها
ينامون بالنهار ! »

وختم خطابه بقوله : هذه — يا أخى — نماذج من يومياتى ، فإن أعجبتك
بعثت إليك بغيرها وإلا كانت — كما يقال — فى بلادنا بيضة الديك ..

شخصية عرفتها

أنيق كل الأناقة في ملبسه ، ومظهره ، ومعاملته ، قد ضنت عليه الطبيعة بالطول ، فهو يعالج مظهر قصره بالكعب العالي ، والطربوش الطويل ... تربى في إنجلترا فأخذ أحسن ما فيها ، وعاد ينفع مصر بالتعليم في مدارسها ، والتعليم في مجالسها .

شاء القدر أن يرفع عنه عبء الأسرة فلا أب ، ولا أم ، ولا أخ ، ولا أخت ، ولا زوجة ، ولا ولد ، فعاش حياته للناس يتعلم ، ويعلم ، ويتهذب في روحه وخلقه ويشع على من حوله سمو روحه ، ونبل خلقه .

استطاع بحسن استعداده وشدة فهمه العلمى ، واللغوى ، أن يحيط بكثير من اللغات الشرقية وآدابها ، والعربية وآدابها ، فهو يجيد الفارسية ، والتركية ، وهو يجيد الإنجليزية والفرنسية والألمانية ؛ وهو يؤمن أن هذه اللغات وسائل لا غايات ، فهو يستخدم كلا منها في الوقوف على آدابها والاستفادة من ثقافتها .

أما في اللغة العربية وآدابها فكان الخبير بدقائقها ، الواقف على أسرارها ، المتذوق لآدابها ، ولم تفته اللغة العامية ، فكانت له فيها الأجزاء الطريفة ، وعلى قدر حبه للعلم والأدب كان لا يأبه للمال ، ولا يكثر به . ليس له منه إلا مرتبه الكبير ، ينفق منه القليل على نفسه ، والكثير على من حوله ، نأديه للضيافة ، وبيته للقاصدين ، وهو مطعم المقترضين ، وغوث المنكوبين .

بلغ من الوظائف أرقاها إلا الوزارة والوكالة فلم تكونا تصلحان له ، ولا يصلح لهما ، فهما يحتاجان إلى أخلاق خاصة ، لا يحسنها هو في كثير ولا قليل ، تقلب

في وظائف إدارية كبيرة مما يشتهيها الناس ، ولكن كان أكبر ما يحزنه أنه ترك مهنة التدريس ، وهي التي خلق لها .

من أكبر مزاياه ، وإن شئت فقل من أكبر مصائبه ، أن رزق حساً في منتهى الرفاهة ، والدقة ، والرقّة ، ينجّل أن تتجه إليه الأبصار ، ويتخرج أن يؤلم أحداً ، أو يأتي بما يظنه مؤلماً ؛ يبالغ في مراعاة عواطف الناس ، ومشاعرهم ، كما يبالغ في المطالبة بأن يراعى الناس عواطفه ومشاعره ... إذا نزل فندقاً أخذ حتامه في نوم الناس حتى لا يزعجهم ... يختار من معارفه العدد القليل يحالسه ممن لا يجرحون حسه ، ولا يخذشون نفسه ، وله في هذا الباب غرائب . .

يساكن قوماً فيخشى أن يأتي بأي حركة تؤذيهم ، أو كلمة تجرحهم ، ويحتاج جيرانه إلى المال فيحتال حتى يوصل إليهم المال عن طريق لا يمس كرامتهم ، ويختار من الطرق وأما كن الرياضة أقلها ناساً ، وأخفها زحاما ، وأبعدها عن معارفه ... كريم إلى أبعد حدود الكرم ثم لا يرى فضلاً له على أحد ، وللناس عليه كثير من الأفضال .

قد انطوت نفسه على نوع من الوطنية حار ، لم يكن معروفاً في زمنه ، يكره أن يجلس في مقهى صاحبه أو خادمه يوناني يتمتع بالامتيازات الأجنبية ، ويشعر بالسيادة على كل من في المقهى مع أنه يعيش منهم ، ويستمتع في الحياة بمالهم ، ويكره أن يكون خائط ملابسه أو تاجرهم أو طبيبه أجنبياً ، لأن قومه أحق بماله ، ثم هو يالم أشد الألم لأن قومه لا يحسنون من التجارة والصناعة ما يحسنه الأجنبي ، وبذلك يضطرونه أحياناً لأن يعامل هؤلاء الأجانب . يحز في نفسه في صمت وهدوء ، أن يرى قومه محكومين بالأجانب في حكومتهم ، وتجارتهم ، وصناعاتهم ، وكل خير لديهم ، وقومه بألسون فقراء أذلاء جهلاء .

فكيف العيش في هذا الجو؟

لقد نما هذا الشعور عنده حتى أقلق نفسه ، وصمم على أن يهرب من البلد ويترك وظيفته ، ولكنه لا يريد أن يسكن في بلد شرقي محكوم بالأجانب ولا بلد غربي مستقل لأنه لا يلائم مزاجه ، وفتش فلم يجد إلا استانبول بلدا مسلما شرقيا مستقلا ، يستطيع أن ينعم فيه برؤية المآذن الشرقية وسماع الأذان الإسلامي ؛ ويرى — من قريب — التطور الاجتماعي الذي أحدثه مصطفى كمال ، ويعيش في هذا الجو ما بقي من أيامه .



عُتبت عليه يوماً وقد زرته في الأستانة أنه — وهو الواسع العلم ، الثاقب النظر ، البعيد الفكر ، القادر على الإصلاح — يعيش هذه العيشة السلبية ؛ ويرضى بهذه العزلة ، ولا يكون في طليعة المجاهدين ، ولا يضع خطط العاملين . فابتسم ابتسامة مريرة وقال : « أنا أعلم بنفسى » .

وعاد إلى مصر في آخر حياته وشاء القدر الساخر أن يصاب بمرض خطير فيكون عرضة للأطباء والعمليات والجروح والغيار في أدق موضع من جسمه — وهو الذي يخجل من ظله ويستحي من أن تلتقي عين أحد بعينه ، وزرته في المستشفى فكان ألمه من خجله أشد عليه من ألمه من مرضه .

رحمه الله فقد أثر في كل تلاميذه ومعارفه ، وعلمهم درسا في حب العلم ، والرغبة في الاطلاع ، والدقة في النظر ؛ ونبل الخلق ، وسمو العاطفة وإنكار الذات .



أتحب أن تعلم من هو؟

هو أستاذنا « على بك فوزى » وقل من يعرفه ، وما كان أعظمه في عين من يعرفه .

الدكتور سرور

من الأقوال المأثورة عند الإنجليز أن خير الأطباء ثلاثة : الدكتور « حمية »
والدكتور « راحة البال » والدكتور « سرور » .

ولا شك أن الدكتور « سرور » دكتور ماهر ، فما هو إلا أن يعطى المريض
جرعة منه حتى يقضى على كل مكروبات الغم .

يأتى إليه المريض ذابلاً هزيراً ، أصفر الوجه منقبض الصدر ، تضيق الدنيا
في عينه ، فيحقنه الدكتور سرور في عروقه مرة واثنين وثلاثاً ، فإذا هذا المريض
الذابل باسم ضاحك ، محمر الوجه ، مفتوح الصدر ، يرى الدنيا كلها جمالاً ،
والحياة نعيماً .

وهو دكتور طيب ، رخيص الدواء ، رخيص العلاج ، لأنه يعلم أنه إذا أغلى
دواءه أو أغلى أجره ، أدخل على مريضه من الغم ما يجعل العلاج عسيراً ، والشفاء
غير ممكن .

أحياناً يعالج بمحاضرة ؛ فلا يكتب « تذكرة » ، ولا يرى حاجة إلى
« أجزاينات » ولا « عمليات » بل يكتفى بالوصفة البلدية .

سمعتة مرة يحاضر مريضه فيقول : دواؤك في يدك ، وعلاجك منك ، وإن
الناس قسمان ضعيف وقوى ، قادر وغير قادر ، والفرق بينهما شيء واحد ، وهو أن
القوى القادر يستطيع أن يتغلب على إرادته وبواعثه ، وعلى أهوائه ورغباته ،
فيوجهها حيث شاء ، بالصبر والمران ، وأما الضعيف فيستسلم لكل ذلك ، ولا يكون
له عليها سلطان ، القوى القادر إذا رأى شيئاً ضاراً بصحته وبنفسه من أفكار
وهوم استبعدها وأزالتها ومسحها كما يمسح الرجل منظاره ، وكما تمسح المرأة مرآتها ،

فإذا رأى الهموم تكاد تقضى عليه ، والأفكار السوداء تذبل روحه وتضنى نفسه ، قضى عليها قبل أن تقضى عليه ، ونظر إلى المسرورين فى الحياة فعمل عملهم وضحك ضحكهم ، وفعل ذلك — أول الأمر — تصنعاً فإذا هو فى آخر الأمر طبيعة ، فخذ أوقية من أعمال السرور والضحك والرياضة يصل إلى النفس الباطنة منها — على الأقل — درهم . واستقبل طلوع الشمس بالأمل ، وبقطعة موسيقية لطيفة ، أو دعاء دينى يملأ قلبك قوة ونشاطاً ، تشعر أن أسباب الغم والهم ضمرت وذبلت ، فإذا كررت ذلك انقطعت .

ورأيت المريض — وهو يسمع هذه المحاضرة ويشرب هذا الدواء — تنفتح أسارير وجهه ، ويذهب عنه كدّه ، ويحل أمله محل يأسه ، ويخرج من عند الدكتور مصمماً على أن يكسر المنظار الأسود الذى على عينه ، ويلبس بدله منظاراً أبيض .

ومن غريب الأمر أن الدكتور « سرور » مع شهرته ونجاحه فى العلاج — لا يذهب إلى عيادته إلا القليل ، ولا ينتفع بعلاجه إلا أناس معدودون ، على كثرة المرضى وأنواعهم . فهؤلاء أشقياء يحملون الهم لكثرة مشاكلهم القضائية المالية ، وهؤلاء يعلمون الهم لحسدهم وحقدهم على منافسيهم فى المناصب أو التجارة أو الصناعة أو السياسة الحزبية ، وهؤلاء السيدات أشقياء بالغيرة ونحو ذلك ، ثم هم كلهم لا يفكرون فى الدكتور « سرور » وعلاجه وعيادته ، مع أن فى استطاعته أن يشفيهم جميعاً بوصفاته العجيبة ، من بث الأمن والطمأنينة فى نفوسهم ، ونصحه بسعة القلب والترفع عن الصغائر ، والثقة بالنفس ، ورسمه خطة للاستمتاع بمباهج الحياة فى اعتدال ، وتذوق الجمال فى الطبيعة وفى الفن وفى الإنسان وهكذا . فعند الدكتور « سرور » علاج لكل حالة بتحليلها ، والوقوف على أسبابها ، ووصفه العلاج المناسب لها . ولكن مع الأسف هناك مشكلة كبرى : وهى أن كثيراً من الناس يقولون

لا نذهب إلى الدكتور « سرور » إلا إذا سررنا ، والسرور ليس إلا عند الدكتور « سرور » فكانت المسألة كما قال الشاعر :

مسألة الدور جـرت بيني وبين من أحب

لولا مشيبي ما جفا لولا جفاه لم أشب

لقد كان آباؤنا يؤمنون بالدكتور « سرور » أكثر مما تؤمن اليوم . فكانوا في حياتهم أكثر فرحا وطمأنينة وراحة بال ، وكان كل حي من الأحياء الوطنية لا يخلو من منظر « مندره » أو مناظر يجتمع فيها الأصدقاء للسمر اللذيذ ، والفكاهة الحلوة ، والطرب المشجي . وكان ختان الطفل فرح الحارة ، وزواج الشاب والشابة سرور الحى أياماً وأسابيع . ثم أصبحنا اليوم ودواعى السرور كثيرة من سينما وتمثيل ورقص وجاز بند وراديو وفونوغراف ، ومع هذا كله فإنى أظن أن كمية السرور عند الناس أقل ، لأن الحياة تعقدت ، وتكاليفها ثقلت ، ومتاعبها كثرت . والسرور لا بد له من حالة نفسية تتقبله وتستمتع به ، وهو يعتمد على الظروف الداخلية أكثر مما يعتمد على الظروف الخارجية . وكثير من شبابنا أفرطوا في السرور حتى انقلب غما ، فالسرور الذى يعدّ علاجاً هو السرور الدائم الثابت فى اعتدال . أما السرور المشتعل الملهب فمثل كالكش يلهب سريعاً ويخمد سريعاً . السرور المعتدل الذى يستمر طويلاً هو غذاء الروح وصحة البدن . ومن كان غنياً وغلب عليه الانقباض والحزن لم ينفعه غناه ، ومن كان فقيراً وأخذ يحظ وافر من السرور عوضه غذاء النفس عن قلة غذاء الجسم فامتلاً قوة وعافية . أيها اليائسون والبائسون والمهمومون والمغمومون ، هيا إلى الدكتور سرور فعنده العلاج لكل ذلك .

في الهواء الطلق

تحت الشمسية في سيدى بشر جلست . . .

لقد مضى زمن العيون الساحرة ، والحدود الموردة ، والقوام الرشيق ، والمنظر
الأنيق ...

وغرق الفكر في جمال الطبيعة ، ينعم به ويطيل التأمل فيه .
هذا البحر الممتد إلى ما لا نهاية ، وهذه الأمواج المتتابعة في رشاقة وجمال ،
وهذا الرمل المنبسط في سكون وهدوء ، وهؤلاء الناس يذهبون ويحيثون وأنا
وهم أجزاء في آلة واحدة ضخمة تسير تبعاً لقوانين منظمة واحدة ، بعضها نعرفه
وبعضها نجهله .

وهذه الآلة الضخمة تستطيع أن تلد بمعدل خمسين ألف نسمة ، وتقذف
خمسين ألفاً إلى القبور في الساعة الواحدة ...

من كل قوانينها نستطيع أن نستخلص قانوناً واحداً هاماً ، وهو أننا نسعد
ما سايرنا قوانينها وأطعنا أوامرنا ، ونشقى إذا عاكسنا قوانينها وعصينا أوامرنا .
إن للأموال قوانين ، من سايرها عرف كيف يعوم ونجا ، ومن خالفها غرق ..
وهكذا الشأن في بحر الحياة وأمواج الحياة .

إن الطبيعة تصادق وتعادي ، تصادق من انسجم معها وعاش وفق قوانينها ،
وتعادي من نفر منها وحارب قوانينها ، فإذا صادفته سار فيها ركابها ، وكان ترساً
من تروسها ، وخدمته الشمس من فوقه والأرض من تحته ، وإلا سلطت عليه كل
أسلحتها حتى حطمته .

أتدرى ما المرض ؟ هو مخالفة قوانين الطبيعة في الصحة ، سواء خالفها هو أو خالفها آباؤه وأمهاته من قبله ...

أتدرى ما السرور والألم ؟ هو مكافأة الطبيعة للمطيع لقوانينها ، وعقوبتها لمخالفتها ..

أتدرى ما النجاح والفشل ؟ هما إسمان آخران للطاعة والعصيان ...

وهذه الطبيعة — كهذا البحر — ديمقراطية في معاملتها الناس ، أمواج البحر

تغشى الناس على السواء ، وتضربهم على السواء ، وتغرقهم أو تنجيهم على السواء .. من أطاع فالجزاء ، ومن خالف فالجزاء .

كذلك شأن الطبيعة في أمور الحياة ، قوانينها نافذة على الطبقة الراقية والطبقة

الوضيعة على السواء ، لأنها لا تعترف بالطبقات ، فالفقير جداً صحيح لأنه اتبع قوانينها ،

والغنى جداً مريض لأنه خالف قوانينها ... وهى — مع ديمقراطيتها — لا تعذر

بالجهل ، فمن أخذ سماً على أنه سكر مات ، ومن أخذ سكرأً على أنه سم لم يمت ..

ومن اتبع قوانين الطبيعة في الاقتصاد ربح ولو لم يدرها ... ومن خالفها خسر

ولو دراها ... وهكذا ...

وما قوانين الأخلاق ، ولا قوانين الاجتماع ، ولا قوانين الاقتصاد ،

الاقوانين الطبيعة للإنسان ، تعينه أن يتفهمها ليسير على وفقها إن أراد السلامة ،

وأحياناً يخطئ العلماء فيظنون قانوناً ما ليس بقانون ، وأحياناً تدعو الشهوة إلى مخالفتها

فتصفعه الطبيعة صفة تكون إنذاراً إن اعتبر بها ... فإن هو لج في المخالفة أنزلت

عليه عقابها الصارم في غير رحمة ...

وللطبيعة في عقابها أشكال وألوان : فأحياناً تعاقب عقاباً صارماً جداً كالسهم

في القلب ، وعمل الجزاء في الذبيحة ؟ ..

وفي أغلب الأحيان تجازى جزاء بطيئاً قل أن يدرك ، كما تفعل في تنمية

البذرة ، وتكوين الشجرة ، وإنضاج الثمرة ، كالذى يفرط في شرب الخمر ثم لا يظهر

على بدنه أثر من عقوبة وهو — في الواقع — تهدم خلاياه تهدماً بطيئاً قلما يدرك ولكنه مؤكد . . فإذا تهدمت آخر خلية سقط المدمن سقطة لا قيام بعدها ، وكان شأنه في ذلك كآخر قطرة يطفح بها الكأس . . بل نرى في عقوبة الطبيعة أحياناً شيئاً عجيباً ، وهي أن تكافئ الجاني أولاً ، كالذى يحدث في ربح الكاذب والخائن ، ولكنها في الواقع تمد له في الحبل حتى يتأدى فيسقط سقطة لا قيام منها ، وقد لا يسقط ، ولكن تعاقبه بشكل آخر فتسلبه ضميره وإنسانيته ونبل نفسه ، ولا تزال تفعل ذلك حتى تصيره خنزيراً غنياً ، أو كلباً مطوقاً بذهب ، فيظن المغفل أنه سعيد وهو ليس من السعادة في قليل ولا كثير . . فإن كنت تظن أن دكان الجوهري أو الصائغ سعيد فهذا سعيد ولكنه جماد . .

إن الطبيعة لا يهتمها كسب فلان مليون جنيه أو خسرها ، ولكن يهتمها ما اتصف به من صفات الإنسان أو ما تجرد عنها . .
وسمعت ضحكة عالية من شمسية بجاني ، فأفقت ولم أدرأ كانوا يضحكون على من سكرتى أو من نكتة لا علاقة لها بي .

النفخة الكذابة

إذا رأيت قربة مملوءة بالماء ، فتلك نفخة صادقة ، ولكن إذا رأيتها مملوءة بالهواء فتلك نفخة كاذبة .

وإذا رأيت جلد بقرة على بقرة حية فتلك نفخة صادقة ، ولكن إذا نزع من البقرة جلدها وحشى تبناً ليكون الشكل شكل بقرة فهذه نفخة كاذبة .
وعندنا أنواع وأنواع من النفخة الكذابة ، يقع نظرك عليها في كل مكان .
فعندنا الموظف يرى أنه لا بد له من طقم من العظمة والكبرياء يلبسه أثناء قيامه بوظيفته كما يلبس بذلته ، ويخلعه إذا فرغ من عمله في الوظيفة كما يخلع بذلته أيضاً ، فإذا لبس الطقم انتفخت أوداجه ، وعلا صدره ، وأمر ونهى في عنف ، وتصنع الكبرياء والعظمة ، فهو لا يتكلم كما يتكلم الناس ، ولكن كما يكلم السيد عبده ، وإذا تصرف فليس كما يتصرف الناس ، ولكن كما يتصرف الآلهة ...
تجد هذا في الموظف الصغير أمام الجمهور ، والموظف الكبير نحو الموظفين الصغار طبقات بعضها فوق بعض ، كل يذل لمن فوقه ، ويأخذ ثأره ممن تحته ، فكل هذه المظاهر نفخة كذابة ...

وتنعكس صورة الموظفين على زوجاتهم ، وأبنائهم ، وبناتهم . فزوجة الموظف الكبير أيضاً لا بد أن تشمخ بأنفها ، وتتكبر على من دونها ، وتتكلم من طرف لسانها ، وتتصنع العظمة في حركاتها وسكناتها ، وكذلك تفعل زوجة الموظف المتوسط مع زوجة الموظف الصغير ، وكذلك يفعل أبنائهم وبناتهم ، فهذه أيضاً نفخة كذابة .

ومن لوازم النفخة الكذابة حرص الموظف على الحجر الفخمة ، والمكاتب

الضخمة ، وعدد الحجاب والسعاة على الباب ، والسجاجيد تفرش بها الحجرة ، والتليفون على مكتبه ، وكثرة الكتيبة الصغار تحت أمره ، وتعدد الزائرين لسعاده ، وصعوبة وصول أصحاب الحاجات إليه ، وترفعه عن أن يصغى لمطلب ، أو يناقشه موظف ، فهذه كلها نفخة كذابة ..

لقد شاهدت مدير جامعة أجنبية ، ودخلت حجرته ، فإذا هي ليس بها إلا مكتب متواضع ، وستة كراسى معتادة ، مما لا يرضى به موظف في الدرجة السادسة ، وكنت عنده فإذا ابنه يطلب منه قروشاً يدفعها ثمن تذكرة لسينما تقام في جامعته ! فقلت لو كان هذا عندنا لأخلى لابن العميد « بنوار » يجلس فيه مع أصحابه من غير أجر ، ولكانت السينما كلها تحت أمره ونهيه ، فالموظف الإدارى عندنا لا يصح أن يدفع ثمن سينما ولا تمثيل ، ولا شيئاً من هذا القبيل إذا أقيم في دائرة اختصاصه ، لا هو ولا أحد من أقاربه وأتباعه ، وكل هذا نفخة كذابة .. والغنى الكبير مظهر غناه سيارة فخمة ، وسراى فسيحة ، وخدم وحشم ، وعصا مذهبة ، وساعة ذهبية في جيبه ، وخاتم ماسى كبير فى أصبعه ، وصوت ضخم ، ونداء للخدم فى عظمة ، ثم لا شىء وراء ذلك من تبرعات ، ولا أعمال خيرية ، ولا شىء نافع ، فهذه نفخة كذابة ..

صالون كبير يحجز فى السكة الحديدية للموظف الكبير ، والناس مثلى ومثلك لا يجدون مقعداً متواضعاً ، ويقفون على أقدامهم من مصر إلى الإسكندرية ! وكراسى ضخمة توضع للعطاء فى قاعة المحاضرات والاجتماعات ، وموائد فخمة للكبراء بجانبها موائد متواضعة لعامة المدعوين فى الولائم ، وموظف كبير يتبعه حاجب يحمل محفظته ، ويفسح الطريق أمامه ، ونشرات فى الجرائد بأن فلانا رزق مولوداً سعيداً ، وأنه سافر إلى عزبته استراحة من عناء الأعمال . وألوف وألوف من هذه الأمور كلها نفخة كذابة ..

يحمل وزر هذا كله الطبقة العليا من الموظفين ، والأغنياء ، والذوات ، والأعيان ، ونسأؤهم ، وأولادهم ، فهم يضربون المثل في النفخة الكذابة . والناس بعدهم تبع لهم ، فلو استطعت أن تلغيها في الكبار لم تجدها في الصغار ، فالعسكري يقلد « المعاون » ، والمعاون يقلد مأموره ، والمأمور يقلد مديره ، والمدير يقلد وزيره ، وهكذا .

وسبب النفخة الكذابة وشيوعها في أمة من الأمم شعورها بمركب النقص ، فالعالم الكبير يغنيه علمه عن مظهره ، والموظف الذي يعرف حقوقه وواجبه لا يعنى بالتوافه ، والوزير الذي يشعر باحترام نفسه واحترام الناس له لقيمته الذاتية لا يعبأ بالمظاهر العرضية ، والسنبلة الفارغة من سنابل القمح أكثرها شموخا ، والمملوءة بالحلب أكثرها تواضعا ، والطبل الأجوف أعلى صوتا ، والجبان عند النزال أكثر تهديدا ووعيدا ..

مقياس الأطفال والعقول الساذجة تقويم الأشياء بمظاهرها ، ومقياس العقول الراقية تقويم الأشياء بحقائقها ..

هذه النفخات كلها — مع أنها كذابة — تسبب ضغطا هائلا لو انفجر لسمعه من في الأرض ومن في السماء ، لأن مصادر هذا الضغط لا عداد لها ، فنفخة رجال الإدارة على العمدة والأعيان ، ونفخة العمدة والأعيان ومشايخ البلاد على الفلاحين ، ونفخة أصحاب رؤوس الأموال على العمال ، ونفخة الموظفين بعضهم على بعض ، ونفخة الموظفين على الجمهور ، كل هذه النفخات وهذه الضغوط تسبب جوارا كذا بغضا غير صالح للتنفس ، يشعر كل من فيه بنوع من الكابوس ثقيل كربه ..

فمن لنا بقوة تنسف هذه النفخات كلها ؛ وتفجر هذه الضغوط كلها ، فنستمتع بالعزة والحرية ، وبالإخاء والمساواة ؟

لو أنشأت حزبا ... !

لو أتيح لى أن أنشىء حزبا لتجنببت — أول كل شىء — أن يكون حزبا سياسيا ، لأن الأحزاب السياسية كثرت حتى سمجت ، وخابت حتى هانت ، واحترف السياسة كل من هب ودب ، واعتقد الكفاية فيها من منح خنجرة قوية ، وصوتا ضخما ، وثرثرة فى الكلام . ومهارة فى التهريج ، وعنادا فى الرأى ، ولجاجة فى الخصومة !

وإنما أريد حزبا اجتماعيا يعنى بالداخل ، على حين تعنى السياسة بالخارج ، ويرى أن تحسين الدار ينتهى أيضا بتحسين الجوار ، وأن الاستقلال التام إذا لم يقرن بالرق الذاتى فهو الموت الزؤام !

وأرى أن أعلن برنامج الحزب قبل تكوين الحزب حتى ينضم إليه من يرى صلاحية مبادئه ، ويبعد عنه من لا توافقه تعاليمه ، لا كأحزابنا السياسية ، تختلف وتأتلف على الأشخاص لا على المبادئ ، وعلى الزعماء لا على البرامج ، حتى إذا سئلت ما الفرق بين حزب وحزب لم تجد تعبيراً يسعفك ، إلا أن هذا الحزب زعيمه فلان ، وذلك زعيمه فلان ، ولا شىء بعد ، وراء هذا الفرق . .

والإيمان بالأشخاص درجة تناسب الطفولة ، أما الإيمان بالمبادئ والمعانى فدرجة لا تناسب إلا الرجولة . . وسيكون من أهم برنامج الحزب :

١ - ومرة المدرسة :

ذلك أن الأمة تنحل وتتمزق بتعدد أنواع مدارسها .
ويقتضى هذا المبدأ ألا يكون هناك تعليم أزهرى ، وتعليم أجنبى ، وتعليم

وطنى ، بل تكون هناك مدرسة واحدة فى الابتدائى والثانوى والعالى تشرف على جميعها وزارة المعارف وتخضع لنظمها ومناهجها . . وإن اختلفت المدارس بعض الاختلاف كالتعليم الزراعى والصناعى والدينى فاختلف فى التفاصيل أما أسس التربية فواحدة للجميع .

أما الأزهر فلا يكون إلا كلية من كليات الجامعة المصرية لدراسة الدين دراسة جامعية .

وأما المدارس الأجنبية فلا يسمح لها بالبقاء فى مصر ، إلا مدارس تنشئها الطوائف الأجنبية لتعليم أبنائها الأجانب ، بشرط أن تعلم اللغة العربية بجانب لغتها ، وأن تخضع لرقابة وزارة المعارف فى منهجها وكتبها ، حتى لا تضار الدولة بشئ من تعاليمها .

بذلك نتق بلبلة الأفكار ، ونقضى على سوء التفاهم بين أفراد الشعب الواحد بسبب اختلاف اتجاهات التربية والتعليم .

٢ - المحاذير على الدين :

وذلك فى أكل صورته وأسمى معانيه . ولكن بجانب ذلك يجب القضاء على كل ما علق به من أوهام . وبناء على هذا المبدأ تلغى نقابة الأشراف ومشيخة الطرق الصوفية ، وما يتبع ذلك من موالد وصناديق نذور وما إلى ذلك . فكل هذه الأمور أفسدت عقول الشعب ، ومزقته تمزيقا آخر كما مزقه تعدد المدرسة ، وجعلته لا يستجيب إلى دعاة الإصلاح الاجتماعى ، كما شوهدت مظهر الأمة وجعلتها ضحكة الضاحكين وهزأة المستهزئين !

ويتصل بذلك القضاء على المشعوذين والدجالين والخرفين من قارئى الطوائف ، وفاتحى الكنوز ، وكاتبى الأحجية ، ووضع مواد فى قانون العقوبات تعاقب مرتكبى

هذه الجرائم ، اللاعبين بعقول السذج . فكم ترتب عليها من فساد في العائلات وضياع للأموال ، فضلا عما يقتضيه ذلك من انحطاط العقل وتشجيع التخريف .

٣ — العناية بالصحف والوزاعة والسينما

لأنها مكونة للرأى العام وموجهة له ، فالصحافة يجب أن تستعمل على مقالات قيمة في الإصلاح الاجتماعى ، ومحاربة الفساد العقلى ، والتخريف في جرأة وصراحة ، كما يجب أن تترفع عن السباب المكشوف ، وتوسيع هوة الخلاف بين الأحزاب ... وكذلك الإذاعة يجب أن تتجه بجانب ترقية الفن إلى ترقية العقل ، وأن يكون لها برنامج قوى مسلسل فى الإصلاح الاجتماعى يلقى كبار المختصين ، مع الاجتهاد فى وضعه فى إطار فنى جذاب ، ومع انتهاز فرصة المناسبات .

وأما السينما فيجب تشديد الرقابة عليها حتى لا تكون مبعثاً للانحلال الخلقى والاجتماعى ، وألا يسمح إلا بالأفلام التى ترقى الذوق والروح والعقل ، وأن ينظر إليها على أنها مدرسة لا متبر ، فإن كان — ولا بد — فمدرسة أولا ومتبر ثانيا !

هذا برنامج الحزب فى الناحية الثقافية العقلية الروحية ، وثم بقية للبرنامج فى النواحي الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية والإدارية ، أعرضها إذا سنحت الظروف .

وقفه أمام التعداد .. !

ظهرت نتيجة الإحصاء ، وتبين منها أن عدد السكان في مصر قد ازداد نحو ثلاثة ملايين في عشر سنوات ، وبذلك بلغ تعداد مصر أكثر من تسعة عشر مليوناً .

لقد وقفت قليلاً عند هذا الخبر : أفراح أم أحزن ؟ ثم وجدتني حزنت ! ذلك لأن الأم لا تتباهى بكثرة العدد ولكن بنوع العدد ، وأمة عددها عشرة ملايين في سعادة ، خير من عشرين في شقاء .

كنت أفراح لو أن زيادة عدد الأنفس صحبتها زيادة ثروة البلاد الدائمة . ولكنني أرى أن زيادة السكان في عشر سنوات أكثر من الثلث ، وزيادة الأرض المزروعة — مثلاً — في عشرين سنة لم تزد إلا عدداً تافهاً ، فكانت في سنة ١٩٣٣ خمسة ملايين وثلثمائة ألف فدان فصارت في سنة ١٩٤٤ خمسة ملايين وستمائة ألف فدان !

ومعنى هذا أن الملايين الثلاثة التي زادت ستأكل من زاد الأصليين ، فإذا كان هؤلاء الأصليون جوعاً فقد زاد الجوع والبؤس والفقر ! وليس الأمر مقصوراً على الثروة الزراعية . بل هكذا الشأن في جميع الثروات — تجارة وزراعة وثروة معدنية ، إن زادت فزيادة قليلة لم تبلغ السدس كما بلغ السكان !

ثم يدل الإحصاء عادة على أن الطبقات الفقيرة من عمال وصناع وزراع هم أكثر إنتاجاً من الطبقة الوسطى والطبقة الغنية القادرة على العيشة الرخية ، فبين هذه الطبقة الفقيرة يكثر تعدد الزوجات ، ويتبع ذلك كثرة النسل ، وحتى

الذين يقتصرون على زوجة واحدة من الفقراء أكثر نسلاً من أمثالهم من الأغنياء .
ونتيجة هذا أن الأسرة التي كان عدد أفرادها ستة أصبحت ثمانية ، فإذا كان دخلها
ثلاثة جنيهات في الشهر تقسم على ستة ، فينال الفرد خمسين قرشاً ، أصبحت
تقسم على ثمانية ، فينال الفرد ٣٧ قرشاً في الشهر موزعة على أكله وشربه
وملبسه ومسكنه !

ثم كان في التعداد الأخير أن زاد عدد النساء على عدد الرجال زيادة
واضحة ، إذ بلغت الزيادة أكثر من مائتي ألف ! والنساء عندنا لا يشتركن في تنمية
الثروة ، وإن اشتركن في تكثير العدد ! ..

هذا من الناحية المادية ، أما من الناحية المعنوية فالأمر أسوأ ! فستزدحم
الشوارع من غير نظافة ، ومن غير نظام ، وسيزداد تسلق الترام وازدحامه ، لأن
الشركات لا تزيد مركباتها بنسبة نمو العدد ، وسيتكاثر سكان الحجرة الواحدة
لأن البناء لم ينشط نشاط الإنسال !

وسيضعف التعليم ، وتضعف مقاومة الأمية ، لأن وزارة المعارف لا تستطيع
بوسائلها أن تخلق معلمين يواجهون كثرة العدد .. فإذا كانت اليوم عاجزة عن
مكافحة الأمية فهي إذا زاد العدد أعجز !

وسيزداد انحطاط مستوى العمال والفلاحين في مساكنهم وأكلهم وشربهم ،
لأن وسائل الحكومة محدودة وزيادة الأنسال غير محدودة .. وهكذا الشأن في
جميع مرافق الحياة . فالأيدي إذا كانت لا تستطيع إلا إصلاح مائة فهي لا تستطيع
إصلاح مائتين بالأولى . فكيف إذا كانت لا تستطيع حتى إصلاح المائة ؟ !

إن مسألة الثروة تتحكم في حياة الفرد والأسرة والحكومة في كل شيء من

مادياتها ومعنوياتها ، ومقدار الثروة فى الأسر لا يقاس بالرقم وحده ، ولكن
بنتيجة القسمة على عدد الأفراد ، فأسرة دخلها عشرة جنيهات وعدد أفرادها ثلاثة
أغنى من أسرة دخلها ثلاثون جنيها وعدد أفرادها عشرة . . . وكذلك الشأن فى
ثروة الحكومات .

إن كفايتنا فى إصلاح التعليم وإصلاح الحالة المالية والاجتماعية كفاية
محدودة ، فإذا هى لم تغلح فى إصلاح السبعة عشر مليوناً فهى أمام التسعة عشر
مليوناً أو أكثر أقل كفاية !

ثم إننا أمة لا تنقص من عددنا الحروب ، ولا تنظمنا الجندية ، فكثرة العدد
مع السلم الدائم ومع الفوضى الشنيعه خطر أى خطر !

ولو كنا أمة نحب الهجرة لكان الأمر بعض الشيء . ولكننا أمة تألف الإقامة
حيث تولد ، ومن صدر له الأمر بالانتقال من القاهرة إلى بنها شكا وتذمر ، ولست
تستطيع أن تنقل أسرة من المنوفية المزدهرة إلى البحيرة الأقل ازدهاراً مهما
أطعمتها فى شيء من الرخاء ، ولذلك أصبحت الحياة فى المدن كلقاهرة والإسكندرية
حياة مقلقة للراحة ، هادمة للأعصاب ، وكلما زاد عددها زادت سوءاً !

لهذا كله حزننا من كثرة عدد السكان وتمنيت أن ينجح دعاة « ضبط
النسل » فى دعوتهم ، مادام نمو السكان لا يصحبه نمو المساحة ونمو الثروة ونمو
القدرة على مكافحة الفقر والمرض والجهل .

فن الخصومة !

أما أن الخصومة فن فأمر لا شك فيه .
وأما أنها فن لا تتقنه نحن المصريين فأمر واضح جلي ، بدليل ما نرى في البيوت ، وفي مصالح الحكومة ، وفي الشوارع ، وعلى صفحات الجرائد ، وبين الأحزاب من خصومات خلت من كل ذوق وفن .
الجو كله مملوء بخصومات غير فنية ، بين الزوج وزوجه ، وبين الأب وأبنائه ، وفي الترام ، وفي السينما ، وبين أعضاء الحزب الواحد ، وبين الأحزاب المختلفة ، وبين موظفي كل قسم في كل مصلحة ، وفي كل مجتمع ! .
ومظاهر خلوها من الفن كثيرة ، منها أنها في كثير من الأحيان تكون « غير ذات موضوع » أو ذات موضوع تافه لا يستدعي خصومة ! فالبيت ، شعلة نار لأن طبقاً كسر ، أو قرشاً ضاع ، أو كلمة نطق بها أحد أفراد الأسرة فأولت تأويلاً سخيفاً ! وخصومة في الترام على قرش ممسوح ! وخصومة في السينما على رجل داس رجل آخر ! وخصومة في مصلحة حكومية لأن موظفاً أخذ قلم موظف من غير استئذان ! وخصومة في الجرائد لأن أحد المحررين كتب في جريدته كلمة فهم منها تعريض بآخر ! وهكذا لو أحصيت أسباب الخصومات لوجدت تسعين في المائة منها أسباباً تافهة كان يكفي فيها حبة صغيرة من سعة الصدر حتى تنقطع .
ومنها ضيق الصدر وسرعة الغضب . . فكثير منا لو حككت له على أنفك لثار ، وملاً الدنيا غضباً وسباً وشتماً ، ولم يتورع عن أن يقول أى لفظ وأى معنى ، واضحى لهذا السبب التافه بصدقة سنين ! .

وإنما كانت هذه وأمثالها خصومات غير فنية ، لأن الخصومة الفنية لا تكون إلا لأسباب قوية تستعمل فيها أساليب راقية ووسائل شريفة .

الخصومة الفنية كالصراع بين فارس نبيل وفارس نبيل ، لا بد لخصميهما من سبب قوى للخصومة ، فإذا تحاربا خضعا تمام الخضوع لقوانين الفروسية ، وترفعا عن الصغائر والسفاسف ، وأساليب الخداع والمراوغة ، ثم إذا انتهى الصراع انتهت الخصومة ! .

الخصومة الفنية خصومة شريفة دعا إليها سبب معقول ، وتبدلت فيها الحجج والبراهين من غير مهاترة ، والوسائل المكشوفة الظاهرة لا الخفية الدنيئة ، وخرج كل خصم من المعركة شريفاً نبيلاً لم تدنسه الخصومة . .

والخصومة الفنية — ككل شيء فنى — تحتاج إلى ذوق ، فما نراه من خصومة سافلة ، تستعمل فيها ألفاظ نابية ، ورمى بالخيانة ، ومهاترة في السباب ، وفحش في الشتم ، فليس له من سبب إلا ضعف الذوق — ضعف في ذوق المتساين المتشاكسين إذ سمحوا لأنفسهم أن تخرج هذه الألفاظ من أفواههم ، أو تجرى على أفلأهم . وضعف في الذوق العام لأنه سمح لهؤلاء أن ينطقوا بالفجور أو يكتبوا الفجور . . والذوق العام كالرأى العام إذا رقى كان خير رقيب وأقوى رادع .

وأشنع خصومة غير فنية تلك التى على صفحات الجرائد والمجلات . فهى إن شنت وسفهت كانت دروساً أليمة تفسد أذواق الجمهور ، وتغلظ شعورهم ، وتعود ألسنتهم قول الهجر ، وآذانهم سماع البهتان من غير استنكار ! .

لا يمكن أن تخلو الحياة من أعمال تثير النفس ، ومن أناس يثيرون الخصومة ، وإذا أملت أن يسير الناس كما تشتهى ويعملوا كما تريد ، فخير ألا تنتظر طويلاً وأن تخلص من الحياة ، ولكن خير من ذلك كله أن تأخذ الناس كما هم . وهناك

علاج واحد ناجح في الخصومات ، هو أن تسمو بنفسك وتترفع عن الصغائر وتكون واسع النفس عميقها ، تتقبل شرور الناس وأعمالهم الصغيرة بصدر رحب ونفس واسعة .

لقد اعتاد الأخلاقيون أن يقسموا الناس إلى أخيار وأشرار ؛ وما أظن الأمر كذلك ، فليس يخلو إنسان من أن يكون مزيجاً من خير وشر ، ولكن يمكن تقسيم الناس إلى عطاء وغير عطاء ، والعظيم من استطاع أن يسمو بنفسه عن السفاسف واستطاع أن ينظر إلى المخالفين له نظرة تقدير أو إشفاق ، واستطاع إذا خالفهم أو خالفوه في أمر أن ينظر إليه من زاويتهم كما ينظر إليه من زاويته .
إنه إن فعل قلت الخصومة ، فإن كان ولا بد منها كانت خصومة فنية تخضع لقوانين النبل والشرف .

تسعيرة الذمم

للذمم تسعيرة كتسعيرة الخضر والفواكه والبقول . . . وتستطيع أن تضع على كل ذمة بطاقة تحدد فيها ثمن الشراء !

ولكن هناك فرقاً بين تسعيرة الذمم ، وتسعيرة الفواكه والبقول ، هو أن تسعيرة الفواكه والبقول متقاربة الثمن ، فأقة الموز بسبعة أو ثمانية أو عشرة قروش ، وأقة المشمش بعشرة أو اثني عشر ، وأقة الباذنجان بثلاثة أو أربعة ، ولكن تسعيرة الذمم واسعة جداً ، متفاوتة تفاوتاً كبيراً ! فذمة سعرها قرش ، وذمة سعرها مائة ألف جنيه أو تزيد ، حتى إذا عرضت الذمم في معرض ، تعب عارضها من كتابة البطاقات لأثمانها !

وفرق آخر ، وهو أن الفواكه والبقول تسعر بالقرش ومضاعفات القرش ، ولكن أسعار الذمم شأنها عجيب ، أحياناً تقدر بالمال ، وأحياناً تقدر بغير المال ؛ فهذا ذمته لا تشتري بمال مهما كثر ، وإذا عرضت عليه عشرة آلاف جنيه — مثلاً — هاج وغضب ، وإذا حدثته أقسم لك بالآيمان المغلظة أن أى مقدار من المال مهما كبر لا يستطيع أن يشتري ذمته ، وأن ثمن ذمته من المال لم يخلق بعد ! وهو صادق . . . ولكنه — مع ذلك — تشتري ذمته بامرأة ، فما هو إلا أن يرى امرأة جميلة ، وما هى إلا أن تحدثه حديثاً ناعماً ، وتبسم له بسمه أو تضحك له ضحكة ؛ حتى ينسى نفسه وينسى ذمته ، فيؤدى من ذمته كل ما يؤديه بائع الذمة بالمال ، وإن اختلفت التسعيرة !

ومنهم من تسعيرة ذمته مجلس شراب ، فهو لا يبيعها بمال قط ، ولا بامرأة قط ، ولكنه عاشق خمر ، والخمر لا تحلو إلا بالندمان ، هو لا يهتمه المال ، فهو

ينفقه عن سعة في شربه وشرب ندمانه ، ويلذه أن يسكر ويكر معه أصحابه ، فإذا شعشت الخمر في رأسه فهنا يبيع ذمته . فما يطلب منه أحد من ندمائه شيئاً إلا أجاب طلبه . . فهو يعين في مصلحته غير الكفء ، وهو يحابي ، وهو يظلم وهو يفعل كل ما يفعل خرب الذمة ، من غير أن يمد يده إلى مال ، بل هو قد أنفق من جيبه المال .

وهناك صنف آخر غريب لا تشتري ذمته بمال ولا بنساء ، ولا بمجلس شراب ولا بمجلس قمار ، ولكن تشتري بشيء آخر غير هذه كلها ، هي أن تقدم له «خدمة» ، تختلف باختلاف قيمة الذمة ، فإن كان ذا أطيان وكنت من موظفي الزراعة قدمت له التقاوى المنتقاة ، واخترت له نوع الأشجار الصغيرة الجيدة ، وسألته عما يحتاج إليه من السماد ، وأخبرته أنك تعرف له بستانيا ماهراً ، وهكذا وهكذا حتى تفرقه بأفضالك ، ثم تنتهز الوقت المناسب فترجوه الرجاء الصعب . الرجاء الذي لا تتحمله أية ذمة نزيهة ، ولكنه يذكرك أفضالك ولا تزال نفسه تصغر شيئاً فشيئاً أمام إلحاحك ومتابعة خدماتك ، فإذا هو يخضع ويلبى الطلب ويبيع الذمة . ومن الغريب أنك لو حسبت جميع ما قدمت له من خدم وحولتها إلى مال ما ساوت مائة جنيه ، ولو كنت قدمت له ألف جنيه ما قبلها ، ولكن مثل هذا الصنف يحتاج في بيع ذمته إلى «أسلوب» في تقديم المال أكثر مما يحتاج إلى قيمة المال !

ومنهم صنف سخي لا يأخذ مالا ولا يبيع ذمته لمن قضى له مصالحه ، ولكنه يبيعها في سهولة إذا رجاه فلان الوزير ، أو فلان الكبير ، أو فلان الغنى ، أو فلان الباشا . . وهو يفعل ذلك لا طمعا في مال ولا رغبة في مصلحة تقضى له ، ولكنه خلق عبدا للجاه ، والعييد أشكال وألوان : فعبد المال ، وعبد المرأة ، وعبد المنفعة ، وهذا عبد الجاه . . وليس أحد منهم عبد الله ! .

وهناك ذم تباع بالملق . . فإذا كان ممن يعنى بشكله قفل له : ما أجملك !
وما أحسن « بذلتك » ! وما ألطف انسجام لون بذلتك بلون جزمك بلون
رباط رقبتك ! .

وإن كان أديبا قفل له : ما أروع قصيدتك ! من يكون بشار ومن أبو نواس
ومن شوقي بجانب شعرك ! إنهم ليموتون خجلا إذا سمعوا بيتا من أبياتك ،
أو تشبيها من تشبيهاتك ! .

وإن كان غزلا قفل له : إن النساء تذوب من سحر عينيك ، ورقة شفتيك ،
وحسن حديثك ، وكمال ظرفك ، ثم اطلب منه ما شئت فقد انهارت ذمته أمام
ملكك ! وهكذا ... وهكذا . . وهكذا ! .

فلو عرضنا الذم في معرض عام ، ولو نأ بطاقات التسعيرة بألوان مختلفة ، بعضها
لما يشتري بالمال ، وبعضها لما يشتري بالنساء الخ ... لرأينا العجب من اختلاف
القيم واختلاف الألوان ...

ولكن عجبا ! هذه ذمة من الذم منتحية ناحية قصية من المعرض لم أجد
عليها بطاقة من البطاقات ، هل نسي القائمون على المعرض أن يعلقوا عليها بطاقة ،
أو عزت عن البطاقات فلم يمكن أن تشتري بأى ثمن ؟ ! ...

لو كان لنا رأى عام .. !

لو كان لنا رأى عام لأخاف الشركات فاحترمته ، ولم تحتقره ولم تستغفله ،
ولصرفت على راحة الشعب كثيراً وربحت قليلاً ، فلا نرى ركاب الترام في وضع أسوأ
من السردين في العلب ، ومن البقر والحير في عربات السكك الحديدية ، ولأكثر
من عرباتها حتى يجد كل راكب مكاناً ، ولأحاطتهم بما يقيهم شر الحر والبرد .
ولما رأيت شركة النور والكهرباء تتحكم في الجمهور على أسوأ شكل ، فتغلى
الثلث ، وتتعسف في أجور العداد ، وتنذر وتتوعد ، وتفعل ما تشاء ، لأنها لم
تخش أحداً !

ولما رأيت الوزراء السابقين والكبراء ينظرون إلى ما يجرى على يد الشركات
من مظالم ثم يسكتون سكوتاً عميقاً ، لأنهم أعضاء في هذه الشركات . والعضوية
تدر على صاحبها من المال ما يحمل على إغضاء العين وصمت اللسان !

ولو كان لنا رأى عام لخافه الزعماء فلم يختلفوا حين يجب الاتفاق ، ولم يهزلوا
حين يجب الجد ، ولم يستغلوا زعامتهم في قضاء شهواتهم ومصالحهم ، ولفهموا أن
وراءهم قوة تحاسبهم حساباً عسيراً على الكبير والصغير ، وتطردهم إذا أفسدوا ،
وتمجدهم إذا أحسنوا .

ولو كان لنا رأى عام لصرخ الفلاح في وجه عمدته إذا ظلمه ، ولصرخ العمد
في وجه مأمورهم إذا ظلمهم ، ولصرخ المأمورون في وجه مديرهم إذا ظلمهم ، ولصرخ
أصحاب الحاجات في وجه الموظفين إذا عطلوا مصالحهم ، ولصرخت الوزارات
في وجه وزارة المالية لأنها تشل كل حركة للإصلاح ، ولعرف كل وزير أن
كرسيه في قبضة الرأى العام : إن أحسن أبقاه في كرسيه ، وإلا زلزه من تحته !

ولو كان لنا رأى عام لضج الفلاح من مائه القدر الذى يشربه ، ويسته
القدر الذى يسكنه ، وجهله القدر الذى يظلم عقله ، وبؤسه القدر الذى يتعس نفسه ،
ولأرسلها صيحة مدوية ترعب الملاك فلا يشتطون فى استغلاله ، ولا يستنزفون
كل دمه ، ويرعبون الحكومات فلا يضيعون ميزانيتهم على ضروب الترف
قبل أن تستكمل الأمة ضرورات الحياة ، ولا يشترون الزهور للسائدة قبل إعداد
خبز المائدة !

ولو كان لنا رأى عام لاحتقر غنى الحرب يفتنى من السوق السوداء ،
واحتقر التاجر يغش الناس ، واحتقر الموظف يتهاون فى عمله ، واحتقر الوزير لم
تحسن سيرته ، واحتقر الزعيم يستغل زعامته ، ولم يكتف بالاحتقار فى سره ، بل
ترجم عقيدته إلى عمل ظاهر !

إذن لو كان لنا رأى عام لأرعب كل ظالم ، وأرهب كل مستبد ، وكافأ كل
محسن ، ومجد كل نبيل ، ولسارت الأمور كلها سيراً حميداً . فطبيعة الناس فى كل
زمان ومكان تخشى القوة وتحسب لها ألف حساب ، ولا تأبه للحق إذ لم يرتكن
على سند من قوة ... وقديماً قال عمر : « ما يزع السلطان (القوة) أكثر مما
يزع القرآن » .

لقد كان هذا هو الحال فى كل زمان ومكان ، ولا يزال كذلك ، ولا يزال كذلك .

لقد كان هذا هو الحال فى كل زمان ومكان ، ولا يزال كذلك ، ولا يزال كذلك .
لقد كان هذا هو الحال فى كل زمان ومكان ، ولا يزال كذلك ، ولا يزال كذلك .
لقد كان هذا هو الحال فى كل زمان ومكان ، ولا يزال كذلك ، ولا يزال كذلك .
لقد كان هذا هو الحال فى كل زمان ومكان ، ولا يزال كذلك ، ولا يزال كذلك .
لقد كان هذا هو الحال فى كل زمان ومكان ، ولا يزال كذلك ، ولا يزال كذلك .
لقد كان هذا هو الحال فى كل زمان ومكان ، ولا يزال كذلك ، ولا يزال كذلك .
لقد كان هذا هو الحال فى كل زمان ومكان ، ولا يزال كذلك ، ولا يزال كذلك .
لقد كان هذا هو الحال فى كل زمان ومكان ، ولا يزال كذلك ، ولا يزال كذلك .
لقد كان هذا هو الحال فى كل زمان ومكان ، ولا يزال كذلك ، ولا يزال كذلك .
لقد كان هذا هو الحال فى كل زمان ومكان ، ولا يزال كذلك ، ولا يزال كذلك .

أمة تعيش على عشر مجهودها

مررت على « قهوة » عامرة في الصباح ، لا يقل عدد من فيها عن مائة ، وهى طول النهار وجزءا من الليل تُمَلَأُ وتُفَرِّغ . فلا يقل عدد المترددين عليها عن ألف ، متوسط ما يصرفه الرجل فيها ساعتان ... فهذه ألفا ساعة ضاعت فى غير عمل — فى أغلب الأحوال !

اضرب عدد هذه الساعات الضائعة فى عدد القهاوى فى القاهرة والاسكندرية وطنطا والمنصورة وسائر المدن ، وانظر كم مائة ألف ساعة ضاعت هباء لا فى عمل دنيا ولا فى عمل آخرة ، ولا فى رياضة بدنية ولا رياضة عقلية ؟!

وانظر إلى ملايين الفلاحين ، كم شهراً يقضون فى العمل وكم شهراً يقضون فى البطالة ؟ إن مواسم الأعمال كلها لا تتجاوز خمسة أشهر ، والسبعة الباقية بطالة أو شبه بطالة . . . ولو أدخلت عندنا أساليب الزراعة الحديثة والآلات الحديثة لا نخفض زمن العمل إلى نصفه تقريباً !

فاحسب فى ضوء ذلك كم من ملايين الساعات تذهب فى غير عمل ! .

واحسب حساب النساء ساكنات المدن ، كم من الساعات يعملن ، وكم من الساعات يكسلن ، وكم من السيدات لا عمل لهن مطلقاً إلا النوم إلى أقصى حد ممكن ، والقيام من مكان ليجلسن فى مكان آخر ، ومحاولة التغلب على الملل من عدم العمل ، من غير جدوى ؟!

وانظر الموظفين فى دواوينهم ومكاتبهم تجد قليلا جدا مرهقا بالعمل ،

والكثير الكثير لا عمل له ، أو لا عمل يشغل وقته ، فهو يضيعه في قهوة وشاي ،
وفي استقبال زائر ، وفي محادثات تليفونية ، وفي الانتقال إلى موظف آخر يعطله
أو يتبادل معه العطل !

وراقب العاطلين من طبقات الناس من وزراء سابقين لا عمل لهم إلا ارتقاب
الوزارة ، وأصحاب ضياع وعمارات لا عمل لهم إلا انتظار زمن تحصيل الريع ، وعمل
لا يجدون عملاً ، وطوافين وطوافات في الشوارع يسألون الناس ، وبائعين متجولين
لا حاجة إليهم مع وجود الدكاكين والأسواق ، وغير هؤلاء وهؤلاء ممن
لا يحصى عددهم !

ألا ترى معي أن النتيجة لهذا كله أننا أمة نعیش على جزء قليل جداً من مجهودنا
وطاقتنا ، وباقي المجهود والطاقة يضيع سدى في غير ما ينفع البدن والخلق والعقل ؟
قد أفهم أن يكون ذلك لو ضاقت علينا الموارد والأعمال . ولكني لا أفهمه
وعندنا مئات الآلاف من الأبدنة لا تجد لها يداً تعمل ، وعقولا تفكر !
ولا أفهمه وعندنا كل مرافق الحياة بدائية تنتظر في ترقيتها اليد والعمل والأقدام !
ولا أفهم ذلك وأرى الأجانب يتدفقون على بلادنا فيجدون العمل ، ويجدون
الثروة ، ويجدون العيشة الرخية المهنية ، وأهل البلاد يحلمون في القهوات ، والمتعلمون
يتسكعون في الطرقات ، وأكثرهم يرضى من العيش بالفتات !

حيرة العالم

العالم الآن كله قلق مضطرب حائر، وسبب قلقه واضطرابه وحيرته أنه في حربه الأخيرة هدم كل معتقداته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولم يستطع أن يبني جديدا غيرها .

ثم إن المبادئ العتيقة — مبادئ القرن التاسع عشر وما قبله — لا تزال متأصلة في نفوس القادة والزعماء ومن ييدهم زمام الأمور الدولية ؛ وليس في إمكانهم مداومة السير على هذه المبادئ العتيقة في القرن العشرين ، لأن الشعوب تنورت ، ولا في إمكانهم هم أن يعتنقوا مبادئ القرن العشرين ، لأن عقولهم تحجرت .

اعتاد رجال السياسة أن يعلنوا على الملأ أن الحروب التي تقع إنما يبعث عليها أغراض نبيلة ، مثل حماية الديمقراطية — وما يتبعها من حرية الشعوب — من الانهيار ، ومثل حماية الأمم الصغيرة من عدوان الأمم الكبيرة ، ومثل المحافظة على حرمة المعاهدات ، ومثل دفع الخطر الذي يهدد أمتهم ونحو ذلك ؛ وكانت هذه الأقوال تجوز على الشعوب فيصدقونها — وكان رجال السياسة يعلمون نفسية الشعوب وأنها لا تستجيب إلا للمثل الأخلاقية مهما ضعفت أخلاقها ، وانحلت في سلوكها ، فكان هؤلاء الساسة يستغلون هذا الشعور النبيل في الإنسان ، فيهيجونه لمصلحة الحرب ، وكانت الشعوب عمياء تستجيب عن غفلة لهذه الدعوات ، وتبلي الدعوة متحمسة للمبادئ الأخلاقية ، التي يبثها الزعماء ويعلنونها بشتى وسائل الدعاية ، وبمهرورون في نشرها .

وإلى ذلك أفسد هؤلاء الساسة اللغة ، فاستعملوا الألفاظ في غير معانيها ، كالديمقراطية والحرية وحقوق الأقلية ونحو ذلك ، فهذه الألفاظ لها معان في موضع ،

ومعان أخرى في موضع آخر حسب المصلحة ؛ فجلاء الجيوش الروسية عن إيران عدل وداع إلى السلام ، وجلاء الجيوش البريطانية عن مصر ليس عدلا وليس داعياً إلى السلام ؛ وحق إيرلنده في الانفصال عن بريطانيا معقول ومقبول ، وحق باكستان في الانفصال عن الهندوس ليس معقولا ولا مقبولا ؛ وحق اليونان والأسبان ومصر في تقرير مصيرها يقاس بمقاييس مختلفة ، ومطالبة السوريين واللبنانيين بالاستقلال وخروج الفرنسيين عن هذه البلاد مطلب عادل ، ومطالبة المغاربة بجلاء الفرنسيين عن بلادهم وتمتع أهل البلاد باستقلالهم مطلب غير عادل . ولكل هذه الحالات الماثلة ألفاظ غير متماثلة ، فهذه الأشياء المتماثلة تسمى بحق تقرير المصير إذا دعت الحال ، وحق الانتداب أو الوصاية إذا دعت الحال ، وبالحرية إذا اقتضى الأمر ، وبالأخذ بيد الأمة حتى تنضج إذا اقتضى الأمر ، وهكذا من العبت بالألفاظ والمنطق عبثاً يستدعى العجب .

هذه كانت عقلية الساسة والقادة في القرن التاسع عشر وما قبله ، ولكنها عقلية عتيقة قد أتنلت وتعفنت ، وتنبهت الشعوب ، سواء منها الشرقية والغربية ، وفهموا أن ما يقولونه من البواعث على الحرب ، والظنطنة بالمبادئ الأخلاقية من حرية وديمقراطية ومحافظة على المعاهدات ، ليست إلا ستارا مموها يخفي وراءه البواعث الحقيقية على الحرب ، وأهمها الخوف وحب السيادة ، الخوف على ضياع المركز الممتاز الذي تتمتع به بعض الدول الكبيرة ، وحب السيادة وما يستتبعه من نعمة قومية وعصبية وطنية ، ثم بعد ذلك بواعث أخرى ، كالسيطرة الاقتصادية والحصول على المواد الخام في البلدان المختلفة ، وتصريف السلع ، ونحو ذلك مما يرمى إلى غنى الأمة وعظم ثروتها .

هذه هي البواعث الحقيقية للحروب لا المبادئ الأخلاقية ، وإنما اتخذت المبادئ الأخلاقية ، ستارا استغلالا لنفوس الشعوب الطيبة بطبعها .

وهذا الستار المزيف قد أتقنت صنعه المدنية الحديثة فأبدعت نقشه وتصويره بما أجادت فيه من فن وتصوير وتهويل ، واستخدموا لذلك اللغة والأدب وفن الدعاية وفن التمويه ، وفن الكذب ، وفن الصحافة والإذاعة الخ ، حتى خدع الناس فصدقوه . وقد كان الناس قبل هذه الحضارة الموهبة صادقين ، إذا حاربوا قالوا إنا نحارب للغلبة والاستيلاء والإخضاع والغنيمة ، فلما تقدم الناس في العقلية ولم يتقدم رجال السياسة معهم جاءوهم من ناحيه التزييف والتلفيق والكذب . ولكن عمر الكذب مهما طال قصير ؛ فقد نظر الناس إلى الساسة فرأوهم يقولون ما لا يفعلون ، ورأوا وعودا تبذل في الحرب لا تتحقق في السلم ، وأمانى تنفق في إسراف حتى إذا جاء موعد القبض غلت الأيدي إلى الأعناق ، والحريات الأربع لا تتحقق منها حرية واحدة ، وميثاق الأطلنطي ليس ميثاقا وإنما هو بهلوان !! وغضبت الشعوب غضب الرجل من آخر ظهرت خداعه وتكشفت سريرته ، ووجدت هوة عميقة واسعة بين الحاكمين والمحكومين ، والمستعمرين والمستعمرين ، والمنتصرين في الحرب والمنهزمين ، وبعض المنتصرين مع بعض المنتصرين ؛ وضعفت ثقة العالم بالمؤسسات المنشأة للتعاون والتفاهم كمجلس الأمن ، وهيئة الأمم ، وزاد معسكر المتشائمين وتضاءل معسكر المتفائلين . وأدرك العقلاء أن سر هذا يرجع إلى أن من ييدهم أمر العالم فئة قد تربت في أحضان الماضي ، وعُلمت على البرامج العتيقة التي تشيد بمجد الوطن وحب الاستعمار والتمدح بالغلبة ، ولا بد لعلاج الحال من تعميم مناهج للتعليم تنشئ العقلية الجديدة على حب الإنسانية والإخاء العام ، لا فرق بين شرق وغربي ، وروسي وأمريكي ، وأسود وأبيض . وسيظل العالم في حيرته واضطرابه وقلقه حتى يتم تنشئة الجيل الجديد ويتسلم هو زمام الحكم . إذ ذاك يفهم العالم أن أسخف الطرق في فض النزاع بين أمتين أو معسكرين أن تعتمد كل منهما إلى السلاح فتقتل العدد العديد من الأخرى ، ثم يستمر التقتيل

على أشده حتى تسلم الأمة الأخرى أو المعسكر الآخر ، فإن معنى هذا بالبداهة أن ليس الحق هو الذى انتصر وإنما القوة هى التى انتصرت ، وكثيرا ما تكون القوة بجانب الباطل ، ومعنى هذا أيضا بالبداهة سكوت المهزم على مفض حتى يقوى فيحارب . وهكذا تتسلسل الحروب .

ومما زاد الأمر سوءا فى الحيرة والقلق والاضطراب ، أن الحرب — وخاصة الحرب العالمية الأخيرة — قد عبثت بالأخلاق عبثا كبيرا ، وويل للأمم إذا زلزلت أخلاقها ، فالجرب فتحت الأبواب على مصارعها لأحط الأصناف من الشعوب وأسوأهم أخلاقا ، ليستغلوا ظروف الأمة فى الحرب أسوأ استغلال ، بالتجار بالأعراض ، والاتجار فى السوق السوداء ، وباستخدام وسائل الرشوة ، واستغلال السلطات الممنوحة لهم بحكم الظروف استغلالا شنيعا وضيعا . وترتب على ذلك انقلاب الأوضاع الاجتماعية فى الأمم ، فعلا فيها أغنياء الحروب فقراء الأخلاق ، وهبط فيها من تمسكوا بالفضيلة وحرصوا عليها مهما جر ذلك عليهم من فقر ؛ وضعف شأن العفة فى الأمم المحاربة ، وتعلل بعض النساء بأنهن يبذلن عفتهن أداء لواجب الترفيه عن الجنود ، وترتب على ذلك أضرار اجتماعية لا حد لها ، إلى كثير من أمثال ذلك مما زلزل القواعد الأخلاقية التى تبنى عليها الأمة حياتها .

وكما عبثت الحرب بالأخلاق عبثت بالحقائق ، فالذاعات فى الصحف والمجلات والإذاعات لا تستند على حق ، وكل معسكر من المتحاربين جرح المعسكر الآخر بقليل من الحق وكثير من الباطل ، ثم توصف أعمال الغدر والخيانة والتقتيل بأنها أعمال بطولة ، وتوصف أعمال البطولة بأنها أعمال غدر وخيانة ، إلى كثير من أمثال ذلك .

هذه البلبلة فى السياسة وفى الحقائق هى التى جعلت العالم الآن فى حيرة ، لأنه فقد قديمه ولم يجد بعد جديده .

لماذا - ولأن

لماذا ترى الرجل عاقلاً حكيماً ، صادق الرأي في الحكم على الأشياء ، صحيح التقويم لها ، عادلاً في تقديرها — وذلك كله إذا كان الشيء الذي يحكم عليه أو يقدره غير متصل بذاته ، ولا يمس مصلحة من مصالحه ، ولا يناله منه خير أو شر ؛ فإذا اتصل هذا الشيء بنفسه ، أو كان يتوقع منه ضرراً أو نفعاً ، فسَدَ حكمه وساء تقديره ، وأصبح مثله مثل السفينة في الرأي ، الكاذب في النظر ، السيء التقدير ؟ لأن الإنسان في الأعم الأغلب لا يستطيع أن يجرد الأشياء عند الحكم عليها من عواطفه ؛ وقد لاحظ الفلاسفة هذا الخطأ في الأحكام ، فحاولوا تجريد الأشياء المحكوم عليها مما يتصل بها من العواطف ، وأدرك هذا علماء المنطق ، فرأوا أن الألفاظ في القضية قد يتصل بها شيء من العواطف يفسد حكمهم ، فحاولوا أن يعبروا عن هذه القضايا ب : ا ، ب ، ج ، د . حتى يكون حكمهم مجرداً فيكون أقرب إلى الصدق .

والدنيا مملوءة بالأحكام الفاسدة ، والتقويم الفاسد ، وكان سبب الفساد وسوء التقويم دخول المنفعة الشخصية في التقويم والحكم ، حتى في القضية الواحدة ، والمثل الواحد ، ينظر إليه الإنسان في غيره فيصدر حكمه صحيحاً ، فإذا اتصل هذا الأمر بشخصه نفسه أصدر حكماً آخر ، وتقويماً آخر .

وهذا ما حدا بطائفة من الفلاسفة أن يقولوا إن الإنسان لم يمنح العقل لمعرفة الحقائق ، ولكن لخدمة المصالح .

ومما يؤسف له أن مداخل العواطف في تقويم الأشياء والحكم عليها مداخل في منتهى الخفاء ، وليس الكذب مقصوراً على الكذب على الآخرين ، بل

أشد منه خطرا كذب الإنسان على نفسه ، فهو يخدعها ، ويظن أنه ينصحها ؛ ويجور في حكمه ، ويظن أنه يعدل . ولم يستطع أن يتحرر من هذا إلا القليل النادر . وما سبب النزاع في العالم إلا الوقوع في هذا الخطأ ، وما ملأ المحاكم بالقضايا إلا هذا الخطأ ؛ فليست المحاكم والمجالس القضائية وغير القضائية مقصورة على الشريرين والباغين الذين يدعون الحق ويعلمون أنهم مبطلون ، ولكن أكثر من هؤلاء المتخاصمون الذين يختلفون على الأمر الواحد ويعتقد كل منهم أنه على حق ؛ ذلك أن كلا منهم ينظر إلى المسألة من زاويته هو ، لا من زاوية خصمه ، والزاوية التي ينظر منها كل متخاصم عمل في تكوينها عقله ومنطقه وبواعثه وعواطفه والخير الذي يرتجيه والشر الذي يهرب منه .

وهذه المصيبة الكبرى تطالعك كل يوم في الخلاف المالي بين الأشخاص ، والخلاف بين أعضاء المجالس ، حتى في الهيئات التي تتكون من أرق الناس عقولا وأكثرهم ثقافة وأوسعهم إدراكا ؛ فإنك إن فتشت عن أكبر سبب للخلاف بينهم وجدته في لعب العواطف والمصالح الشخصية الخفية في أعماق النفوس .

وهذا هو ما يطالعك في الجرائد في أكثر ما تكتب يوميا ؛ فالمسألة الواحدة تعرضها جريدة بشكل ، وتحكم عليها بشكل ، وتخالفها في كل ذلك الجريدة الأخرى ؛ وكلا السكاتيين عاقل ممتاز ، كان من الممكن أن يتفق مع صاحبه في نظره وحكمه ، لو تجرد من عواطفه وهواه ؛ ولكن تدخلت في حكمه على الشيء مصلحته الشخصية ، أو مصلحته الحزبية ، فلونت عرضه للمسألة ، وحكمه عليها ، حتى رآها أحدهما سوداء ، والآخر بيضاء ، وحتى عجب القارئ على الحياد من بعد ما بين الفريقين من الخلاف ، وكيف لعبت المصالح بالعقول ، حتى صارت موضع الهزء والسخرية .

بل هذا ما يطالعك أيضا في شئون السياسة العامة ، فخرج الروس من إيران

صواب في نظر الإنجليز خطأ في نظر الروس ، وخروج الإنجليز من مصر صواب في نظر الروس خطأ في نظر الإنجليز ، والتعدى على أية أمة ولو صغيرة بتقسيمها خطأ في نظر جميع الأمم ، ولكن تقسيم فلسطين صواب عند أغلب الأمم ، ووجود منفذ على البحر الأبيض لروسيا خير لا بد منه في نظر الروسيين ، شر لا بد من مقاومته في نظر الأمريكيين ، وهكذا .

ذلك لأن العقل ليس هو الذى يحكم وحده ، ولكن تدخلت العاطفة الوطنية والمصالح القومية ، فلونت المسألة الواحدة عند كل فريق بلون يخالف تمام المخالفة اللون الذى صبغه الفريق الآخر .

وهذا هو سر الخلاف بين الشرق والغرب ، بل هو سر الخلاف بين الدول كلها الآن ، وانقسام العالم إلى معسكرين كما كان من قبل ، بل هو سر الخلاف بين الممثلين لهذه الأمم ، مع أن المفروض فيهم أنهم من أرقى الناس عقلا وأصدقهم حكما ، وأعدلهم تقويما للأشياء ؛ وإنما المسألة أن العقل وحده ليس الذى يحكم ، وليس الذى يقدر ، ولكن العامل الأكبر فى الحكم والتقدير هو ما تراه كل أمة ومن يمثلها ، مراعيما ما يعود من رأى على أمته من مصالح أو مضار . ولو أنك جمعت هؤلاء الممثلين ، وجردتهم من عواطفهم لاتفقوا على رأى واحد فى تقدير الأشياء خيرها وشرها ، وما يجب أن يعمل ، وما يجب يُترك ، فى أقرب زمن .

وإن شئت فقل إن الحروب فى العالم وويلاتها سببها هذا الخطأ فى الحكم من حفنة من قادة الرأى والسياسة ، قدر كل زعيم أمة مصلحة أمته ، وما ينالها فى الحروب إن دخلت الحرب ، أو السلم إن جنحت إلى السلم ، ثم أصدر حكمه غير مُصنَّع إلى عقله الجرد ، وغير مقدر للحقائق كما ينبغى أن تقدر . وقد يؤثر فى رأيه هوى شخصى ، أو ناحية من نواحي ضعفه الخلقى ، أو رغبته فى المجد الوطنى الكاذب ، أو خضوعه تحت تأثير قوم من الرأسماليين الشريرين ، أو نحو ذلك

من شهوات أو مطامع ومطامح ، يتأثر بها عدد قليل من القادة ، فيوقعون العالم
الإنسانى كله فى كوارث لا تقدر خطورتها .

ولو أتيح للعالم يوما من الأيام أن يكون قاداته من المناطق أو الفلاسفة الذين
يستطيعون أن يتجردوا فى حكمهم على الأشياء من هوى أو مطمع أو مطمح ، وأن
يقدروا المسائل حسب قيمتها الذاتية لا حسب ما يغلفها من أعراض وأغراض ،
فإن كان ولا بد من اشتراك العواطف والمشاعر فى الحكم فالعواطف للإنسانية
لا الوطنية ، والمشاعر للعالمية لا القومية — نعم العالم بالسلم ، وعاش فى رفاهية ،
وكان الناس بنعمة الله إخوانا .

ولكن أنى لنا ذلك والقول ما قال بديع الزمان : « والله ما فسد الناس ،
ولكن اطرده القياس » .

محنة العالم الاسلامى

يجتاز العالم الإسلامى اليوم محنة من أشق الحن وأقساها ، تختلف فى مظاهرها وتتحد فى أهم أسبابها — العراق ومصر يرفضان المعاهدة التى تعرضها عليهما انجلترا ، فيضطربان من حين لآخر ، وتقوم المظاهرات وتكثر الضحايا ، وفلسطين تشور لما لحقتها من ظلم ، وما فرضته عليها الأمم المتعدنة من سلبها أخصب جزء فيها ، ويشور معها العالم الإسلامى بأجمعه . والمغرب يجوع من فرنسا ، ويثن تحت حكمها ، فإذا تحرّك للخلاص منها عومل أقسى معاملة وأفظعها . وليس القسم الغربى الذى تحتله أسبانيا بخير مما تحتله فرنسا . وطرابلس تعانى ما تخيط لها انجلترا وأمريكا وإيطاليا من شباك . وأندونيسيا تشكو من هولاندة ما يشكو المغرب من فرنسا من عسف وجور وفتك وانتقام . والباكستان تعانى الأمرين مما يحيق بها من جيرانها الهنود ، ومن السياسة الإنجليزية العامة . وهكذا وهكذا فى كل قطر إسلامى مآثم ، وفى كل جسم جراح .

وأهم سبب لهذا القلق والاضطراب أن العالم الإسلامى دبّ فيه الوعى القومى وتوالت عليه ألعايب السياسة الأجنبية ، ولم يكن يفهمها ، ففهمها ، وتتابع عليه الوعود أيام الحرب ، وخُلِفها أيام السلم ، فأدرك كذبها ، ورأى بعد التجارب الطويلة أن الحجب العقلية لا تقنع السادة المستعمرين ، وأنهم لا يفهمون من الأساليب إلا أساليب القوة ، ولا من الحجب إلا حجب القتال ؛ ولم يعد يصدق لغة السياسة المزوّقة ، ولا أساليبها النمقة ، ولم يعد يُخدع ما كان يُخدع به من قبل من تغيير لفظ الاستعمار بالانتداب ، ولا لفظ الانتداب بالمشاركة والمساواة ، أو نحو ذلك من أساليب تختلف ألفاظها ويتحد مدلولها .

ليست هذه أول محنة لقيها العالم الإسلامي من العالم الأوربي ، فقد امتحن من قبل بغزو أوربا له ، وهجومها عليه ، وتسليطها الحديد والنار على أقطاره ، حتى سقطت في يدها ، فقد كانت هذه محنة عظيمة ، ولكنها أصابته وهو نائم ، فلم يشعر بها الشعور التام ، ولم يقاومها المقاومة الواجبة ، بل خضع لطغيانها ، وامتلأ لأوامرها ، حتى إذا توالى عليه الطغيان ، وتتابعت عليه الكوارث ، أخذ يستفيق ويقاوم ، ويشعر أن استغماره مذلة ، واستغلاله عبودية ، وأنه يجب أن يفك هذه القيود التي كبلته ، ويتحرر من العبودية التي نكبتة . وعلى الجملة فقد أدرك أنه إنسان يجب أن تحترم إنسانيته ، وأنه حر يجب أن تقدّر حريته ، فقلق واضطرب . هذا من ناحيته ، أما من ناحية أوربا ، فقد استعذبت سيادتها ، واعتزت بسلطانها ، وبنت حياتها الاقتصادية والسياسية على الانتفاع بموارده ، والاستفادة من تصريف تجارتها فيه ، وتلذّذت من امتصاص دمائه . ومضت فترة طويلة وهي تحقق أغراضها منه في سهولة ويسر ، حتى ظنت أن هذا هو المنهج الأبدي ، والطريق المعبد السوي . ولكن ما لبثت أن رأت العقبات تعترض حكمها على أشكال شتى ، وجاءت الحروب فأشعرتها بالحاجة إليه ضد خصومها ، فبذلت له الوعود تلو الوعود ، تمنيه بمستقبله وحريته واستقلاله . غير أن الحرب ما تهدأ ويحل السلم ، حتى يعز عليها أن تفرط في شيء مما تستمتع به ، وأن تتنازل عن شيء من سيادتها .

هذا كان شأنها عقب الحرب العالمية الأولى ، وعقب الحرب العالمية الثانية . وهذا هو الموقف الآن . قلق واضطراب من العالم الإسلامي ، لأنه يريد أن يعتز بإنسانيته ، ويريد أن ينتفع بما أودعه الله في أرضه ، ويريد أن يشارك في بناء الإنسانية ، ويريد أن يقف على قدم المساواة مع أوروبا ، إذ يرى أنه لا يقل عنها عقلا وذكاء واستعداداً ، وقد شاركها من قبل في بناء الحضارة القديمة والحضارة

الوسطى ، كما شاركت أوروبا ، بل أحسن مما شاركت . وتريد أوروبا أن لا تنزحزح خطوة عما ألفت ، ولا تتخلى عن شيء من سيادتها وسيطرتها وظلمها واستعبادها — وتذكر أوروبا الخطوب المقبلة والحروب القادمة ، فتود أن تخدع العالم الإسلامي خدعة جديدة بالأساليب والألفاظ والمعاهدات الناعمة من غير أن تنازل عن شيء حقيقى من سلطاتها . ويدرك العالم الإسلامى هذه الخدعة ، فلا يأبه بها ، ولا يقع فى شرَكها . تريد انجلترا أن تصادق العراق ومصر ، وأن تعقد معهما معاهدة . ولكن لا على أساس المساواة الحقيقية ، بل على أساس المساواة الشكلية الوهمية ، ولا تريد أن تترك شيئاً من سيادتها الفعلية ، وإنما كل ما تريد أن تتركه شيء قليل من سيادتها الشكلية . وتريد فرنسا أن تصادق المغرب ، ولكن على أساس أن يذوب المغرب فى فرنسا ، وأن يكون مزرعتها وحقلها ومستغلها دون أن تردّ عليه شيئاً من حقوقه . وتريد هولندة أن تصالح الأندونيسيين على أساس أن تمنحهم شيئاً من المظاهر مع الاحتفاظ بالجواهر ، وهكذا شعور من العالم الإسلامى بالاعتداء والسيطرة غير المشروعة ولا المعقولة ، وشعور من أوروبا بحب الغلبة والاستغلال والسيطرة كما ألفت منذ عشرات السنين — لهذا كان القلق والاضطراب والاحتكاك الدائم والثورات والمظاهرات من جانب العالم الإسلامى ، ولا حل لذلك إلا أحد أمرين : إما أن يموت الوعى القومى الذى تنبّه عند العالم الإسلامى ، ولكن لا أمل فى هذا ، لأنه يزداد يوماً بعد يوم على ضوء الحوادث ، ولأنه من المستحيل أن يرضى العاقل يوماً ما أن يكون عبداً ، أو يرضى الشاب أن يكون فى سلوكه طفلاً ؛ وإما أن يضطر الغرب إلى التنازل عن سلطانه ، والتخلى عن سيادته ، وإدراكه أن مصادقة الإنسان للإنسان خير من استعباده ، ومعاملته معاملة المثل خير من استغلاله ؛ وإذا كان الحل الأول مستحيلاً ، فالحل الثانى لا بد أن يكون ، ولأن يكون قريباً خير من أن يكون بعيداً ، ولأن يكون بالرضا

والاختيار خير من أن يكون بالقهر والاضطرار . ولكن هل يدرك العالم الغربي هذا ، ولما يزل يكفر بكل شيء إلا القوة ، ويُغضى عن كل شيء إلا مصلحته الذاتية العاجلة التي يملئها النظر القاصر القريب ، لا النظر الحكيم البعيد !
وشيء آخر هو أن العالم الإسلامي وقد أدرك أن الغرب لا يؤمن إلا بالقوة — إذ دلته التجربة تلو التجربة على أن كل أمة من أمم العالم الإسلامي تكتفى بالحجج العقلية لا يُسمع لقولها ، ولا يلتفت لمطلبها ، حتى إذا لجأت إلى القوة دعيت للتفاهم ، كما كان الشأن في أندونيسيا والباكستان وفلسطين والعراق ومصر — يجب عليه أن يزداد من الحجج التي توصله إلى غرضه ، دون الحجج التي تذهب مع الريح ، وتطير في الهواء — وللقوة مظاهر متعددة وأساليب مختلفة ، فشر العدل في البلاد قوة كقوة السلاح ، والاتحاد بين الزعماء وطبقات الشعوب قوة كقوة الدبابات ، والإلحاح في طلب الحقوق كاملة غير منقوصة دون المساومة قوة كقوة الطائرات والغواصات . وهكذا كل ضرب من ضروب نشر الحكم الصالح في البلاد ، واتحاد الزعماء ، ومراعاة المصلحة العامة لا الخاصة قوة معنوية لا تقل شأنًا عن جميع ضروب القوة المادية .

وشيء ثالث ، وهو أن كل قطر من أقطار الشرق قليل بمفرده ، كثير بإخوانه . وأن التعاون بين جميع الأقطار الشرقية يعود بالنفع العظيم على كل قطر ، والعالم الإسلامي سائر في هذا الطريق . لقد أدرك بصحة نظره ، وصدق شعوره ، أن الأمم المستعمرة تتعاون ، فيوم تبدو حركة وطنية في المغرب تتحد فرنسا وأسبانيا وترسمان الخطط المشتركة للقضاء عليها ، ويوم تريد هولاندة أن تعيد سلطانها على أندونيسيا تجد من الدول المستعمرة ما يؤيدها ، ويوم تريد إيطاليا أن تبسط سلطانها ثانية على طرابلس ترى من الدول المستعمرة تأييدها ، وهكذا ، علما منهم بأن الاستعمار نظرية واحدة وفكرة واحدة وملة واحدة ، إذا انهارت في

جانب سرت عدوى الاهيار فى الجوانب الأخرى . فإذا كان الاستعمار الظالم الباطل المخالف للطبيعة الإنسانية والقوانين البشرية يتعاون ، فكيف لا يتعاون أصحاب فكرة الاستقلال ، وهو العدل ، وهو الحق ، وهو الأليق بالإنسانية .

قد بدا هذا التعاون على شكلٍ ما فى فكرة الجامعة العربية ، ولكن لا يزال فى مبدأ أمره ، وفى مستهل حياته ، والتعاون الذى نرجوه تعاون أوسع من ذلك وأشمل وأعمق ، تعاون يجعل الأفطار العربية والإسلامية كلها تحاصم فرنسا إذا ظلمت فرنسا المغرب ، وتحاصم أمريكا إذا ظلمت أمريكا فلسطين ، وتحاصم هولندية إذا ظلمت هولندية أندونيسيا . تعاون يشمل الاقتصاد . فلا بترول يقدم لأمريكا من أى قطر عربى حتى تعدل عن ظلمها لفلسطين ، ولا معاهدة تجارية مع فرنسا حتى تعدل عن ظلمها للمغرب الخ . وتعاون سياسى ، فلا معاهدة مع دولة عربية إلا إذا علمت بها جميع الأمم العربية ، وأقرتها جامعة الدول ، فى ضوء المصالح المشتركة . الخ . وهذا مطلب قد يبدو عسيرا ، وقد يصيب بعض الأمم بسببه من الأضرار ما يصعب احتماله ، ولكن ما دامت هذه اللغة هى اللغة الوحيدة التى يفهمها المعتدى ، فلا بد من استخدامها واحتمال أضرارها ، ثم إذا هى نفذت لا تحتاج فى احتمال التضحية إلى زمن طويل ، لقرب نتائجها ، وسرعة الفائدة منها . وإذا كانت الأمم الغربية ترسم الخطط المحكمة المشتركة للاستعمار ، فأحرى أن ترسم الدول المظلومة الخطط المحكمة المشتركة للاستقلال ، وعجيب أن يصير الظالم على ظلمه ولا يصير المظلوم على الدفاع عن حقه .

الأخلاق الاجتماعية

هنالك أخلاق يصح أن نسميها أخلاقاً فردية ، وهى التى يُقصد بها أول الأمر إلى إصلاح الفرد وترقيته ، كالصدق والعفة وضبط النفس . وإن كانت آخر الأمر ترقى المجتمع كما ترقى الفرد ، بطبيعة أن المجتمع يتكون من الأفراد . وهناك أخلاق اجتماعية يُقصد بها أول الأمر إلى إصلاح المجتمع ، كأداء الواجب والتعاون . ويتجلى هذا التقسيم أيضاً فى الغرض الذى يرمى إليه الفرد ، فأحياناً يكون غرضه تحسين حالته الفردية ، فيصوغ أعماله وفق هذا الغرض ؛ فقد يقصد — مثلاً — إلى أن يكون غنياً ، فيوجه أخلاقه وأعماله هذه الجهة ، ويشكل حياته التشكيل الذى يتناسب وهذه الغاية ، من جد فى العمل ، وحسن سمعة ، واقتصاد ، وما إلى ذلك ؛ وقد يرمى إلى أن يكون عالماً ، فيتخلق بالأخلاق التى تُعده لهذه الغاية ، من جد وصبر على البحث ، وسعة اطلاع وعمق فى الدراسة ؛ وبجانب هذا قد يكون غرضه رقى مجتمعه ، فيبذل المال لبناء مدرسة ، أو تأسيس مستشفى أو نحو ذلك مما يفيد المجتمع الذى يعيش فيه ويرقيه .

والذى نلاحظه على الشرق عامة أن الأخلاق الفردية تحسنت وارتقت إلى حد ما أكثر مما تحسنت وارتقت الأخلاق الاجتماعية . ولعل أكبر ما يوضح ذلك خلق التعاون ، فهو فى الشرق على العموم ضعيف . ويتجلى ضعفه فى الأعمال التى تحتاج إلى تنظيم الجهود ، كالنقابات والشركات والجمعيات الخيرية ، وما إليها . فهى لا تنجح عادة كما تنجح أعمال الأفراد . وكثيراً ما نسمع بعشرات الجمعيات ، ومئات اللجان ، والعدد العديد من الشركات والنقابات ، تتأسس ثم لا تلبث أن تفشل . وقد نلاحظ أن ما ينجح منها ، وما يقدر له البقاء إنما هو فى الحقيقة عمل

فرد في شكل شركة ، أو نقابة ، أو جمعية . فهي تُرزق بفرد جاد نشيط أمين ، يتحمل العبء كله أو أكثره ، ويقوم بمهام الأعمال كلها أو أكثرها ؛ ثم يُظن أن العمل عمل جماعة ، والنجاح نجاح جماعة ، والحقيقة أنه عمل فردى ، والنجاح نجاح فردى .

فالأخلاق الاجتماعية لم ترتق الرقى الكافى ، والنظر إلى الغاية التى ترمى إلى رقى المجتمع ليس متوفراً فى الكثير من الناس . وتتغلب النزعة الفردية على النزعة الاجتماعية ، ويضعف الشعور « بنحن » عن الشعور « بأنا » ، والناس قد يشعرون بحاجة مجتمعهم إلى وسائل كثيرة لعلاج الجهل والفقر والمرض من مستشفيات وملاجئ ومؤسسات علمية ونحو ذلك ، ثم لا يتحركون لإخراج هذا الشعور إلى حيز الوجود ، لأنه يتطلب عملاً تعاونياً دقيقاً منظماً ، وهو ما لم يصلوا إليه بعد . ولذلك يخفون هذا النقص إما بكثرة الكلام فى وصف العيوب من غير عمل ، وإما برمى العبء كله على حكوماتهم ، ومطالبتها أن تقوم بكل شيء وهم لا يقومون بشيء .

وربما تجلى هذا النقص الاجتماعى أيضاً فى الأحزاب السياسية ؛ فالانضمام إلى حزب ، والخروج منه ، يبعث عليه فى الغالب الأعم نظرة العضو إلى مصلحته الشخصية ، أكثر من نظره إلى المبادئ الأساسية التى يدعو إليها الحزب ، ثم النظر إلى الزعيم من هو وما صفاته أكثر من النظر إلى نوع الإصلاح الذى يدعو إليه الحزب ، بل إن الأحزاب لا تتميز بالمبادئ وإنما تتميز بالزعماء — وقلماً ترى أعمالاً عظيمة أنشئت بتبرعات قام بها الأفراد لخدمة المجتمع ؛ والقليل الذى أسس منها كان الداعى إلى التبرع له خشية ذى جاه أو سلطان ، أو رغبة فى التقرب إلى مدير أو رئيس حكومة أو نحوها ، أكثر من أن يكون الباعث عليه الشعور بالحاجة إلى مؤسسة تُصح المريض أو تنقذ الفقير .

وعلى الجملة فإن هذه الظاهرة — أعنى ظاهرة عدم التعاون الاجتماعى — واضحة فى كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية ؛ فتتجلى فى السياسة بعدم تعاون الأحزاب السياسية حتى فى الأزمات الحرجة ، وتتجلى فى الناحية الاقتصادية بعدم نجاح الشركات والنقابات والمصارف إلا قليلا . وتتجلى فى الناحية الاجتماعية بقلّة المؤسسات الخيرية .

خلق التعاون يتطلب شعوراً عميقاً بأن الفرد نتيجة لمجمعه ، وبأن الخير الذى يناله أتى من مجتمعه ؛ فلولاً لمجمعه ما وجد ، ولولاً لمجمعه ما سعد ، فهذه العقيدة تؤدى إلى شعور بوجوب سداد هذا الدين ، وذلك بالنزول عن جزء من ماله أو عن جزء من جهده وصحته ونشاطه وعلمه زكاة عما ناله من مجتمعه . وهذا الشعور — مع الأسف — لا يزال فى حالة بدائية . وسر ما نحن فيه من متاعب هو نقص هذا الشعور — حتى إضراب رجال البوليس والمرضى وأمثالهم إنما حملهم عليه نظرهم إلى شخصهم كطوائف لا إلى الأمة كآمة .

ومن الغريب أن هذه الناحية الخلقية الاجتماعية لم ترتق رقيّاً سريعاً واضحاً كالرقى الفردى ، فما السر فى هذا ؟ .

لعل السبب أن الشعور « بنحن » متأخر فى الطبيعة وفى الوجود عن الشعور « بأنا » ، شأن المجتمع فى ذلك شأن الطفل ، لا يشعر فى أول وجوده إلا بنفسه ، ويريد أن تكون الدنيا كلها له ، حتى إنه ليطلب من أبويه أن ينزلا له الشمس ليضعها فى يمينه ، والقمر ليضعه فى يساره ، ولا يفرق فى ذلك بين ممكن ومستحيل . ولا يأتى الشعور « بنحن » إلا متأخراً ، عندما تصطدم رغباته برغبات إخوته وأسرته ، ثم رغباته برغبات إخوانه فى المدرسة ، ثم بالناس فى الحياة ؛ فيبتدى الشعور بالغير ، وينمو بالتجارب ، وهذا قانون طبيعى ؛ فأفراد الأمة فى مبدأ حياتهم كالأطفال لا يشعرون إلا الشعور الفردى الأنانى ، فإذا رقوا شعروا بالشعور

الاجتماعى ، ثم إذا زاد رقيهم زاد شعورهم ، فكادت التضحية .

أولعل السبب ما توالى على الشرق من استبداد وظلم ، والاستبداد يميمت النفس ، ويثير شعور السخط على من بيده الحكم ، ويحمل الفرد على كره المجتمع الذى يعيش فيه ، لأنه فقد فيه حريته ، والظلم إذا شاع فى المجتمع جعل الفرد لا يفكر إلا فى أن ينجو بنفسه ، ونتيجة هذا كله التفكير فى النفس لا فى الغير ، والتخلق بالأثرة لا بالإيثار .

أولعل السبب أن الأخلاق الاجتماعية فى الغرب نشأت عما حدث فيه من الانقلاب الصناعى ؛ فالآلات الجديدة والمخترعات وتقدم الصناعة احتاجت إلى كثير من رؤوس الأموال وتأسيس المصانع وتعاون العقول التى تديرها وتعاون الأيدى التى تعمل فيها ، فكان من ذلك الشعور القوى بأن التعاون لا بد منه لنجاح هذه المشروعات الضخمة فتعاونوا ، وأصبح التعاون خلقاً يتوارثه جيل عن جيل ، ولذلك بدأ التعاون يظهر فى الشرق عند ما بدأ يتحول من اعتماد على الزراعة وحدها إلى اعتماد أيضاً على الصناعة .

أولعل كل هذه مجتمعة هى الأسباب فى ذلك . وأياً ما كان فلا نجاة للشرق من أزماته المختلفة وما يحيط به من أخطار إلا بتخلقه بالأخلاق الاجتماعية .

وظيفة اللغة في المجتمع

قال بعض الظرفاء : إن اللغة وضعت ليخفي الإنسان بها آراءه — وقد قال ذلك لما رأى أن أكثر الناس لا تنطبق أقوالهم على أفكارهم ، فغنى يعبر عن نفسه بأنه فقير ، وفقير بأنه غنى ، ومتكبر بأنه متواضع ، وذو المنفعة الشخصية بأنه إنما يريد المصلحة العامة ، وهكذا . فقال : إن اللغة لا تعبر عن حقيقة ما في النفس ، ولكنها تستر ما في النفس .

ومثل ذلك ما قال آخر : إن وظيفة اللغة اجتهد الإنسان في إخفاء حقيقته عن الناس ، وهذه الحقيقة هي أنه ليست له أفكار قيمة ، وقد استنتج ذلك مما رأى من أن أفرغ الناس عقلاً أكثرهم قولاً ، وأكثر كلام الناس ليس له محصول ، فهم إنما يتكلمون ليتظاهروا بأن لديهم حقائق يقولونها ، وهم في الواقع إنما يخفون فراغ عقولهم وسخافة أفكارهم .

ونحن إذا تجاوزنا هذه الأقوال التي تعد طرائف وملحاً أكثر منها حقائق ، وجدنا أن وظيفة اللغة أمران هامين ، وهما : نقل الأفكار والمشاعر من إنسان لآخر ، سواء كانت هذه الأفكار راقية أو وضعية ، وسواء كانت المشاعر نبيلة أو خسيسة . والوظيفة الثانية أنها عون على التفكير ، فمعجم اللغة في أذهاننا عون لنا على تفكيرنا — نعم إن بعض الفلاسفة يشكو من أن اللغة لا تسعفه في تحديد المعاني ، وأن قوالب الألفاظ والأساليب في اللغة كثيراً ما تعوق عن التفكير الصحيح المجرد ، ولكن مهما كان الأمر فاللغة عون للإنسان على التفكير ، ولولاها لكان تفكيره بطيئاً محدوداً .

ولست أريد أن أقول إن اللغة لا تستخدم إلا في هذين الغرضين ، فقد تستعمل اللغة في أغراض أخرى ، كما يفعل الطفل ، يتكلم لمجرد التقليد ، وكما تفعل

الأم والمربيات ونحوهن ، يتكلمن كلاماً غير مفهوم لغرابة وقوعه على السمع . وكما يفعل الناس أحياناً ، يتكلمون إذ يشعرون أن اللسان عضو لا بد من تمرينه كسائر الأعضاء — وتمرينه بالكلام ، كما تنطق بالألفاظ الثقيلة النطق تمريناً للسان — ولكن على كل حال فهي أمور قليلة الشأن بالنسبة للوظيفتين الأساسيتين .

وفضلاً عن نقل المعنى والشعور من شخص لآخر ، فإن اللغة وظيفة اجتماعية أدق ، وهي إيجاد الأُنس الاجتماعي بين المتحدثين ، فإذا أنت جلست مع من لم تعرف لغته لم تأنس به أنسك بمن تخاطبه ويخاطبك . والإنسان الصامت المنطوي على نفسه أقل علاقة بالناس من المتكلم وأقل أنساً بهم ، وإيناساً لهم . وعند كثير من القبائل المتوحشة : من لم يتكلم لغتك فهو عدوك ، وكلمة « السلام عليكم » أو « نهارك سعيد » أو « صباح الخير » أو « مساء الخير » تبعث من الأُنس ما يستدعي العجب .

ثم لغة ناحية أخرى غريبة ، وهي ناحية سحرية ، كالتى يستعملها الكهان والمشعوذون والعرافون وأمثالهم ، فقد ينطقون بكلمات غير مفهومة كشمهورش وغرائب أسماء الجان ، وكالألفاظ الضخمة كالجلجلوتية ونحو ذلك . لا يقصدون منها الإفهام ، ولكن تأثيرها السحرى فى النفوس شديد ، كأن للألفاظ قوة مسيطرة على الأذهان موجّهة لها ، حيث يريد الناطق بها ، وبعض العامة يتخرجون من ذكر أسماء الجن والعفاريت — وخاصة بالليل خيفة أثرها السحرى — ومن هذا القبيل الألفاظ التى تكتب فى الأحجبة وما يُعتقد فيها من أثر ، وما يلقيه المعزّمون من ألفاظ يتلوها الشخص ليكون لها التأثير فيمن يريد بما يريد ، إما بوصل أو هجر أو قضاء مصلحة أو انتقام قدر .

وقريب من هذا ألفاظ وتعايير يسر الناس أن ينطقوا بها ، ولو لم تدل على معنى ، لطرافتها أو استملاحها ، كالألفاظ التى استعملت للإتباع ، مثل حَسَن بَسَن ، وهى بن بى ، ومثل بالهيل والهيلمان ونحوه كثير .

ولعل هذه الناحية السحرية من اللغة هى التى استخدمها الأدباء فى التأثير فى السامعين بالسجع أحيانا ، وتناسق الألفاظ أحيانا ، وضخامتها أحيانا ورقتها أحيانا ، وهكذا . وإن من البيان لسحرا .

* * *

ثم إن هناك فرقا كبيرا بين اللغة بمعناها الجزئى ، كأن أقول : لغتى أولفتك أو لغة فلان ، وبين اللغة بمعناها الكلى كأن أقول : اللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية ، وربما كان من الخير أن نسمى اللغة بمعناها الجزئى : « كلاما » وبمعناها الكلى : « لغة » فلغتى أو كلامى ملكى وخاضع لإرادتى ، ولى منها معجمى الخاص الذى لا يشمل إلا الكلمات التى أستعملها ، والأساليب التى أستخدمها ، أما اللغة الكلية كاللغة العربية ، فهى ملك لمجموع متكلميها ، لا يستطيع أن يتصرف فيها إلا ممثلوها ، ومعجمها هو المعجم العام الذى يستمد منه كل أهلها ، وقواعد النحو والصرف هى قواعد اللغة بمعناها الكلى ، وذلك كالفرق بين الموسيقى وتوقيع الموسيقى ، وقوانين التجارة ومزاولة العمل التجارى ، وهكذا ، فلغتى تتاجى ، ولغتك تتاجك . وأما اللغة الكلية فتتاج المجموع من ماضين وحاضرين ومستقبلين .

لغة الفرد ومعجمه تابع لمقدار ثقافته وعقليته ، واللغة الكلية مظهر من مظاهر العقل الشعبى من عدم الخضوع للمنطق أحيانا والخضوع له أحيانا ، وهكذا . وهناك تفاعل قوى بين الفرد والمجموع ، وبعبارة أخرى : بين لغة الفرد ولغة المجموع ؛ فالفرد يتلقى لغته من المجتمع منذ رضاعته ، ولا يزال يستمد منه طول حياته . فلغة الفرد ظل للغة الكلية ، ولكن للفرد أيضا أثرا فى اللغة الكلية ؛ فالفرد قد يخلق كلمة أو استعمالا أو أسلوبا ، فيتلقاه مجتمعه الخاص بالقبول ، ثم ينتشر شيئا فشيئا حتى يكون جزءا من اللغة الكلية ، شأنه فى ذلك شأن الجملة ينطق بها فرد فتستملح وتتناقل ، حتى تكون « مثلا » يدخل فى صميم أدب اللغة ولا يعرف

قائله ، والأفراد يختلفون في المقدرة على خلق الألفاظ والأساليب والتعبيرات التي يستسيغها الجمهور وتشيع عنهم ، ولا بد لقبول الجمهور للكلمة من أن تتجاوب مع نفوسهم وإلامات .

ونشوء الكلمات والأمثال والأغاني الشعبية وانتشارها وشيوعها وصيرورتها من ملك الأفراد إلى ملك الأمة كثيراً ما يكتنفه الغموض ، لم يحيا بعض ويموت بعض ؟ وما العوامل في الحياة والموت ؟ كل هذه ونحوها أمور تحتاج إلى الدرس الطويل العميق ، وليس هنا موضعه .

وهنا يصح لنا أن نتساءل : ما موقف الفرد في لغته الجزئية إزاء اللغة الكلية ؟ وبعبارة أخرى : إن لكل لغة ألفاظاً وتعابير وأساليب وقوانين عامة في النحو والصرف ، فإلى أي حد يجب أن يخضع لها ؟

إن الفرد إذا تكلم كان مضطراً أن يخضع لقوانين اللغة وألفاظها ليستطيع أن يفهم غيره ، ولكن له حرية إلى حد ما — فهو يختار هذا اللفظ أو ذاك ، وهذا الأسلوب أو ذاك — ما دام يؤدي الغرض الذي يرمى إليه ، فمثلته مثل لاعب الشطرنج في كل لعبة يواجه أوضاعاً جديدة لم يلعبها من قبل ، وهو يتصرف فيها حسب تجاربه السابقة — وله الحرية في التصرف ، ولكن في حدود قوانين الشطرنج . فما مدى هذه الحرية ؟ ومتى يقال : إنه مصيب أو مخطئ ؟ وما المقياس الذي نقيس به الخطأ والصواب ؟

في كل يوم نرى مناقشات حول هذه المسائل ، هل هذا اللفظ أو هذا الأسلوب صواب أو خطأ ؟ وكثيراً ما يكون سبب الخلاف راجعاً إلى خلاف في المقياس الأساسي .

اختلفت الآراء في الإجابة عن هذه الأسئلة ، فبعضهم يرى أن مقياس الصحة مطابقة الكلام لألفاظ المتقدمين وأساليبهم وقوانينهم ، وما خرج عن ذلك أي خروج فغير صحيح .

وقد وجهت إلى هذا الرأي اعتراضات ، منها : لماذا تكون اللغة والأساليب في عصر خيراً منها في عصر ؟ ولماذا تتحكم لغة العصر القديم في لغة العصر الحديث ؟ إن كل شيء خاضع لتقدم الزمان . واللغة في تطور دائم ، فلماذا نخرج باللغة عن قانون التقدم العام فنفسر أنفسنا على القديم ؟ وهكذا .

لهذا قال آخرون : إن اللغة — ككل نظام — ينمو ويرتقى في ظل الحرية ، فكل تقييد لها جريمة في حقها ، وهؤلاء يتحررون من قيود الألفاظ والأوضاع القديمة ، ويحكمون في ذلك ذوقهم واستحسانهم أو استهجانهم ، ومثلهم في هذه الآراء مثل الفوضوية في النظم السياسية . وقد وجد مثل هذا الرأي عند بعض اللغويين في أوربة في القرن التاسع عشر ، وكانوا ينادون أن لا خطأ ولا صواب إلا ما قضى به الذوق .

وهناك رأى ثالث يقول أن ليس مقياس الصحة قول الأقدمين ولا مجرد الاستحسان والاستهجان ، ولكن مقياس الصحة الدقة في أداء المعنى من القائل وسرعة الفهم من السامع ، وسهولة النطق من المتكلم ، فكلما قرب الكلام من أداء هذه الأغراض فهو صحيح ، وإلا فخطؤه بمقدار البعد عن تحقيقها . وهو — أيضاً — مبدأ لا يسلم من الاعتراض ، فأى الأوساط نجعله الحكم ؟ فقد يكون الكلام أو اللفظ سهل الفهم في وسط صعباً عند آخرين ، وقد يكون سبب عدم الفهم غباء السامع لا تعسف القارىء .

والأرجح في نظرى ألا تكون هناك حرية مطلقة ، فينطق الفرد بما يشاء ، متجاهلاً كل الأوضاع الموروثة ، والقواعد الموضوعية ، والأساليب المألوفة ، وإلا نبا عن الذوق ، وبعد عن أن يفهم ويفهم ، ولكن له مقداراً من الحرية في أن يقترح من الألفاظ ما لم يوجد في اللغة ، والناس إما أن يقبلوه أو يرفضوه . ومن الأساليب ما يرى أنه أدل على المعنى أو أنه أجمل ، بشرط ألا يكون خارجاً على الأسس التي بنيت عليها اللغة .

كذلك ليس من الصواب الجود المطلق ، فلا ننطق باللفظ إلا إذا نطق به الأقدمون ، ولا نسمح بالتعديل إلا إذا عدّل الأقدمون ، ولا نستعمل من الأساليب إلا ما استعمله الأقدمون ، فإن هذا يجمّد اللغة ويجعلها متخلفة عن الزمان ، غير صالحة لمسايرة العصر . ولكن تحرّره بالقدر الذى أشرنا إليه ، وسيرّه فى حدود العقل .

وهناك مقاييس متعددة ، يرجع إليها الناس فى مواقف مختلفة ، ليحكموا بالتصويب أو التخطئة .

من ذلك « الخبراء » الذين قضوا حياتهم فى ممارسة اللغة وتذوقها ، ومعرفة ما طرأ عليها ، كالجمع اللغوى فى فرنسا وعلماء اللغة وواضعى المعاجم فى إنجلترا والجامع اللغوية والهيئات العلمية فى الشرق . فهؤلاء اكتسبوا من الخبرة ما يمكنهم من صحة الحكم . نعم إنهم قد يخطئون وقد يجمدون وقد يتفهبون ، ولكن مهما قيل فيهم فشأنهم شأن الخبراء فى كل مهنة وكل فرع من فروع العلم .

ومن ذلك الموقع الجغرافى ، فعند الأمم مواقع عرفت أكثر من غيرها بصحة النطق وجودة الألفاظ وحسن التعبير ، كباريس لفرنسا وأكسفورد لإنجلترا ، وأغلب ما يكون ذلك فى العواصم . وكما أدرك علماؤنا الأقدمون هذا عند جمعهم للغة العربية من نصهم على مواضع فى جزيرة العرب عدوا لغتها أفضل من لغة غيرها . كذلك من المصادر خيرة الكتاب الذين عرفوا بالتحرى فى دقة اختيارهم

للغتهم وأسلوبهم ، ولسنا نقصد تقليدهم فى ألفاظهم وأسلوبهم ، فلكل زمن ألفاظه وأسلوبه ، ولو كتب كاتب اليوم بأسلوب ابن المقفع أو الجاحظ وألفاظه لم يستغ قوله ، كما أنه لو كتب كاتب إنجليزى بأسلوب شكسبير وألفاظه لاستسج ، ولكن دراسة هؤلاء الكبار من الكتاب وهضم أسلوبهم وألفاظهم تعين على ترقية الذوق وصحة الحكم .

ويتصل بذلك لغة الطبقة الأرستقراطية من المثقفين ، فإن ألفاظهم وأساليبهم من غير شك أبقي وأرق من ألفاظ السوق والجاهير ، بحكم ما أضفته ثقافتهم على أذواقهم ، وما اختارته أذواقهم من ألفاظهم وأساليبهم .

وقد يذهب قوم إلى تحكيم المنطق في اللغة فيحكمون على صحة الصيغ أو خطئها بقواعد المنطق ، ولكن الحق أن ليست اللغة خاضعة للمنطق دائماً ، فاللغة نفسية لا منطقية ، وهذا هو ما يفسر ما نسميه بالشواذ في اللغة ، فمعنى الشاذ خروجه على المنطق ، أو كما يعبرون خروجه على القواعد ، ذلك لأن اللغة لم توضع بواسطة الفكر المنطقي ، ولم توضع كلها بواسطة المثقفين المتعلمين ، بل هي من وضع البدائيين أكثر منها من وضع المثقفين ، ومن وضع من اختلفت أزمנתهم وأمكنهم . وعلماء اللغة والنحو لما وضعوا القواعد راعوا الأغلب وحكموا المنطق واعتبروا غير ما يجري على قواعدهم شاذاً ، مع أن هذا الشاذ لا يقل قيمة عن غيره ، وهذا هو الذي يفسر الشاذ في الألفاظ كما يفسر الشاذ في الأسلوب ، مما تعبوا في إعرابه أو تمحلوا في تأويله . ولكن من الذي يملك في اللغة حق الحكم بالصحة والخطأ ؟ ومن الذي يملك أن يحجي الألفاظ والأساليب أو يميتهها ؟ ومن الذي يحكم بتفضيل لهجة على لهجة وتعبير على تعبير ؟ .

أسئلة في منتهى الصعوبة ، ومما يزيد لها صعوبة صعوبة التنفيذ ، فقد نقول — مثلاً — إن ما يقوله علماء اللغة والخبيريون بها صواباً فهو صواب ، وما يقولونه خطأ فهو خطأ ، ولكن الأمر في اللغة ليس كالأمر في القوانين المدنية ، تقوم الحكومة على تنفيذه ، بل الأمر إلى ذوق الجماهير ، فقد تقرر الجامع اللغوية شيئاً ولا يسمع لقولهم ، وتجري الجماهير على ما تتذوق لا ما تتذوق الجامع ، فالناس كثيراً ما يعشقون الحرية في اللغة ، ويفضلون ما يرون أنه أحسن أداء لمعانيهم وأفكارهم على ما يوصى به علماء اللغة ، والناس في شأن اللغة جارون على قواعد

غير معروفة ، فقد ينجح اختراع لفظ ولا ينجح آخر ، وقد ينجح أسلوب ولا ينجح آخر ، وتعليل النجاح والفشل في منتهى الصعوبة .

ثم اللغة الواحدة يختلف المتكلمون بها طبقات : فلفة الخاصة غير لغة العامة ، ولغة المعلمين والقضاة غير لغة الفلاحين والصناع ، لأن كل إنسان يكون لغته من الوسط الذى يعيش فيه ، من بيت ومدرسة وقوم يشاركونهم فى العمل وكتب يقرأها الخ . بل إن لغة الشخص الواحد تختلف فى أدوار حياته حسب نموه الاجتماعى والثقافى فيختلف معجم ألفاظه وأنواع أساليبه — بل إن لغة الإنسان الواحد تتشكل بحسب من يحادثهم ، فإذا تكلم خطيب أو محدث مع فلاحين أو عمال فحديثه يتلون بلون غير اللون الذى يتكلم به مع المثقفين ، كما نرى فى الرواية ، يخالف المؤلف فى لغتها بين ما يجرى على لسان سيد البيت وخادمه . وعلى الجملة فاللغة تختلف باختلاف القائل والسامع ، كما تختلف اللغة باختلاف آداب اللياقة ، فمخاطبة الإنسان لأهل بيته غير مخاطبته لمعارفه ، غير مخاطبته للعظماء والرؤساء . وهناك عوامل اجتماعية كثيرة تؤثر آثاراً مختلفة من هذا القبيل ، ففسو الديمقراطية — مثلاً — قلل من استعمال ألفاظ التعظيم فى مخاطبات الرؤساء — وإذا كانت الفروق كبيرة فى الثقافة بين أفراد الأمة كثر الاختلاف فى لغة طبقاتهم ، كأن يكون فى الأمة أميون كثيرون ومتعلمون ، كما أن وجود لغتين عند متكلمي العربية — أعنى اللغة العامية والعربية الفصحى — باعد بين طبقات اللغة وألوان الكلام .

لست أدرى السبب فى نشأة اللغة العامية ، أهو الثورة على اللغة الفصحى ، أو العجز عن متابعتها والتزام قوانينها ، وخاصة عند الجماهير فى باب الإعراب ، أو سبب نشوئها هو الرغبة فى التطرف وحب التجديد ؛ أو كل ذلك ، أو شئ غير ذلك .

وأياً ما كان السبب فوجود اللغة العامية بجانب الفصحى مشكلة كبرى ،

ومسبب لمصاعب كثيرة ، فنحن نتعلم ونعلم بالفصحى ، ونتكلم فى حياتنا اليومية بالعامية ، واستخدام اللغة فى الحياة اليومية يكسبها مرونة وحيوية وتجديدا ، وهذا ما حرّمته لغتنا الفصحى لما لم نستعملها فى الحياة اليومية — ومنها صعوبة نشر التعليم ونشر الثقافة ، لأننا نريد أن نعلم لغة تشبه أن تكون جديدة ، ثم نعلم بها الثقافة ، فى حين أننا لو كان لنا لغة واحدة نسمعها وتكلم بها وتعلم بها لكان الأمر أسهل كثيرا — نعم إن كثيرا من اللغات له لغة عامية ، ولكن ليس الفرق بينها وبين الفصحى كبيرا كما هو الشأن عندنا . ونحن فى عصر الديمقراطية ، وهى تتطلب نشر التعليم وتعميمه ، فيجب أن نفكر فى هذا الأمر طويلا .

وإذا كان الفرد فرداً عادياً فى الأمة كانت لغته مجرد انطباع للغة جمعيتها ، أما إذا كان فرداً ممتازاً فى أدبه أو فى ثقافته أو خطابته فإنه يتأثر بلغة قومه ولكنه يؤثر فيها بما يستعمل من أساليب وتعايير ، بما يخلق من ألفاظ وبما يبتدع من لهجة ؛ وهؤلاء هم الذين يسيرون حركة اللغة ، وبفضلهم تختلف لغة عصر عن عصر .

ثم إن اللغة هى أداة التفكير ، فاللغة إن كانت غنية وافرة تتسع للتعبير عن أدق المعانى ساعدت فكر الإنسان على التفكير وحسن الإنتاج ، وإلا ضاق فكره وضعف إنتاجه ، فالأمة البدائية لا يمكن أن تنتج فيلسوفاً ، ومن أسباب ذلك ضيق اللغة . ومن أجل هذا يصعب على علماء العربية الإنتاج والابتكار فى العلوم الحديثة كالطبيعة والكيمياء ما لم تعرب مصطلحاتها .

كما أن اللغة هى المادة الخاصة للأدب ، فالأدب إنما يعتمد فى معانيه وأخيلته وموسيقاه على اللغة ، وكلما كانت اللغة أغزر فى هذه الأبواب كان الأدب أقوم . وللأدب أكبر الأثر فى الحياة الاجتماعية للأمة ، فالأمة تعزأ وتذل بأدبها ،

وترقى أو تنحط بأدبها ، بل تخضع لنير الأجنبي أو تستقل بأدبها . والحق أن الأدب والحياة الاجتماعية متفاعلان ، تؤثر الحياة الاجتماعية في الأدب ويؤثر فيها — أطلع الناشئ على الأدب الراقى وزوده بالأدب النبيل تجده نبيلاً ، وأطلعه على الأدب الذى يثير الشهوة وزوده به تجده شهوانياً ، ولو استعرضنا عصور التاريخ للأمة العربية لوجدنا أن الأدب عزيز أيام عزة الأمة ، أو قل : إن الأمة عزيزة أيام عزة أدبها والعكس . وكثيراً ما روى لنا تاريخ الأدب عن عطاء كالحسين بن على ومصعب بن الزبير وأبى جعفر المنصور وعبد الرحمن الداخل ، ترددوا قليلاً فيما يصنعون فى أخرج الأوقات ، ثم ذكروا أبياتاً من الشعر حملتهم على انخطة المثل والموقف النبيل .

ومن أجل هذا عنيت طرق التربية الحديثة بمعاجم اللغة للنشء وأناشيدهم ومحفوظاتهم ، علماً منها بأنها هى التى تربي ملكاتهم ، وتحبى نفوسهم ، وتقوى أرواحهم . ثم إذا نحن تساءلنا : بم تفضل لغة لغة ؟ فيظهر لى أن ذلك يرجع إلى أصول أربعة :

(١) أن تكون اللغة مما يعين على صياغة الأفكار فى وضوح ، وأدائها فى وضوح ، وفهمها فى وضوح .

(٢) الدقة ، فهى مع الوضوح دقيقة فى أداء المعنى ، لا يدخل فيه ما ليس منه ؛ ولا يخرج منه ما هو منه .

(٣) الجمال من حيث موسيقى الألفاظ وحسن خروجها من اللسان وحسن وقعها فى السمع .

(٤) أن تكون وافية بحاجات الزمان ، فكل شئ لفظه ، وإذا جد جديد فى الحياة الواقعية دخل لفظه فى المعاجم اللغوية .

وربما أضيف إلى هذه الأصول أصل خامس ، وهو الناحية الاقتصادية ، أعنى أنها تؤدى هذه الأغراض كلها بأقل طاقة وفى أقل مساحة .

وقد يكون في لغة مزايا ليست في غيرها كالذى يقول بعض المقارنين بين اللغات إن اللغة الإيطالية تمتاز بجهاها الموسيقى ، والفرنسية بالوضوح المنطقي ، واليونانية بالتنوع والجمال المرن ، والإنجليزية بالغنى والفحولة .

فإذا نحن نظرنا إلى اللغة العربية في ضوء ما قدمنا ، وجدنا ما يأتى :

أولاً : غناها ، فهى من غير شك غنية فى ألفاظها وفى أساليبها ، مرنة فى اشتقاقها ، جميلة فى موسيقاها ، ولكن يؤخذ عليها كثرة مترادفات ، وكثرة المترادفات فى نظرى عيب ، إذ يضخم اللغة ويعبى حاملها ومتعلمها ويملاً الفراغ الذى نحتاجه فى الأشياء المستحدثة ، وعذر اللغة العربية فى هذا أنها جمعت من قبائل مختلفة ، وكانت لكل قبيلة لفظة واحدة للدلول الواحد ، وهذا كان طبيعياً ومعقولاً ، فقبيلة تسمى الآلة القاطعة سكيناً ، وقبيلة تسميها مديّة ، فلما جاء علماء اللغة جمعوا كل هذا ، ووجدوا بينه وجعلوه لغة واحدة ، فنشأ هذا العيب . لست أنكر مزايا الترادف من خدمة لقوافى الشعر وموسيقى السجع ونحو ذلك ، ولكن هذه المزايا لا تساوى الضرر .

كذلك مما يعاب على أهلها أنهم لم يسايروا بها الزمان ، فآلاف المستحدثات لم تعرب ، ومعاجمها عليها طابع القرن السابع والثامن الهجريين ، لا طابع العصر الحديث ، فى محتوياتها وتعريفها .

وأخيراً أنها لا تستخدم فى الحياة العامة ، فى المنازل والشوارع والمجالس ، وإنما فى دروس اللغة العربية وحدها ، وفى الكتب والجرائد ، وعدم استخدامها فى الحياة العامة يحرمها التجدد والمرونة . فليست معانى الألفاظ هى ما ورد فى المعاجم فقط بل كل كلمة لها معنى فى المعجم وهالة حولها تحدث لها من استخدامها ولا تستطيع المعاجم شرحها ، ولعل نهضة العرب الشاملة لجميع مرافق الحياة تشمل اللغة أيضاً ، فتكمل نقصها وتنتفع بمزايها . والله الموفق .



DATE DUE



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01038983

American University of Beirut



832-7408

A517A

General Library

